UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190808

UNIVERSAL
LIBRARY

رسالة الغفران

للشاعر الفيلسوف

أبي العلاء المعري

الجزء الثاني والثالث

ما عرض في شرحه من الأعلام مأخوذ من أشعارهم طرف أو العلاء

(١) الرد على رسالة ابن القارح (٢) رسالة ابن القارح
(٣) رسالة الملائكة (٤) دراسات في رسالة الغفران.
(٥) رسائل الحيوان

إيجاز وشرح

كامل كيلاني

بالأوقاف

الطبعة الثانية

سنة ١٣٤٣ هـ - سنة ١٩٢٥ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

الطبعة التجارية الكبرى

مدينة الشيطان

فى الكوميديا الالهيه للشاعر دانتى

« انظر ج ٣ ص (٥٨ — ٥٩) »

(اقترب الشاعر ومرشده « فرجيل » من مدينة الشيطان فاذا أبراج وقباب متوهجة باحمرار اللهب المندلع واذا الأبواب تحرسها طغمة من الشياطين . وعلى الاسوار بنات الشر الثلاثة ملوثة بالدم تمزق أفاعى شعرها وتصرخ مهددة بالويل والثبور) ...

رسالة الغفران

للشاعر الفيلسوف

ابى العلاء المعرى

الجزء الثانى

الرد على رسالة ابن القارح

ما كان فى هذه الدنيا بنو زمن
الا وعندى من اخبارهم طرف
أبو العلاء

ايجاز وشرح

كامل كيلانى

بالاوقاف

الطبعة الثانية

سنة ١٣٤٣ هـ - سنة ١٩٢٥ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة للشارح

(المطبعة التجارية الكبرى بشارع عابدين بحارة فايد رقم ٣ تليفون نمرة ٩٥-٦١)

القسم الثانى

الرد على رسالة ابن القارح [١]

(وقد أطلت فى هذا الفصل ، ونعود الآن إلى الاجابة على الرسالة) :

وفاء ابن القارح

فهمت قوله : « جعلني الله فداءه » لايذهب به الى النفاق[٢] ـ وبعد ابن آدم من الوفاق ـ وهذه غريزة خص بها الشيخ ـ دون غيره ، وتعايش العالم بخداع ، وأضحوا من الكذب فى ابداع [٣]

شيرين وكسرى

لو قالت شيرين الملكة لكسرى « جعلني الله فداءك » لخالبته فى ذلك ونافقته ، وان راقته ووافقته ، على أنه اخذها من حال دنية فجعلها فى النعمى السنية ، وعتبه فى ذلك الأحباء وجرت لهم فى ذلك قصص وأنباء ، وقيل

---

(١) هى رسالة ابن القارح المنشورة بالجزء الثالث من هذا الكتاب

(٢) يعنى أن بن القارح قال هذا الكلام مخلصا فيه غير منافق

(٣) أى فى افتنان ، وقد امتلأ شعر ابى العلاء ونثره بهذا المعنى وأشباهه ، ومن أدق ما قاله فى ذلك قوله فى لزومياته :

مين يردد ، لم يرضوا بباطله حتى أبانوا الى تصديقه طرقا

له ـ فيما ذكر ـ : « كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس ؟ » فضرب لهم المثل بالقدح ، جعل فى الاناء الشعر والدم ، وقال للحاضر : « تجيب نفسك لشرب مافيه ؟ » فقال : « انها لاتطيب وهى بالانجاس قطيب[1] »

فأراق ذلك الشىء وغسله وهذب وعاءه ، وجعل فيه من بعد مداما ، وعرضها على الندامى ، فكلهم بَهش[2] أن يشرب ، فقال : « هذا مثل شيرين »

غريزة النفاق

كم من شبل نافق أسداً ، وأضمر له غلا وحسداً ، وضيغم نقم على فرهود ، وود لو دفنه

(والفرهود ولد الأسد ، وهو ـ آنس الله الاقليم بقربه ـ أجل من أن يشرح له مثل ذلك . وإنما أفرق من وقوع هذه الرسالة فى يد غلام مترعرع[3] ، ليس الى الفهم بمتسرع ، فتستعجم عليه اللفظة ، فيظل معها فى مثل القيد)

وكم خالبت الذئاب السِّلَق[4] ، وفى الضمائر تكن الفِلَق ![5]

يقول القائل : « بأبى أنت . جاد عملك وأتقنت » ولو قدر لبت الودج[6] . وانما جامل أو سدَج[7] !

---

(١) ممزوجة (٢) ارتاح له وخف اليه (٣) ناشئ

(٤) الاناث من الذئاب (جمع سلقة) (٥) الدواهى (٦) عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة (٧) كذب وتقول الأباطيل ، ونحو من هذا المعنى قول ابى العلاء فى لزومياته

اذا جلس الاقوام بالحق أصبحوا عداة ، فكل الأصفياء على خب

وقوله :

ولعل بعض العتارف[١] يلفظ الى البائضة حبة البر ، ويأنس بها ،وفى فؤاده من الضغن أعاجيب

* * *

وكيف يقول الخليل المخلص ، إن حنينه حنين واله من النوق ، وهى الذاهلة إن حمل عليها بعض الوسوق ، وانما تسجع ثلاثا أو أربعا . ثم يكون سلوها متبعاً فأما الحمامة الهاتفة ، فقد رزقها البارئ صيتاً شائعا ، فظل وصفها بالأسف ذائعاً ، تنهض الى التقاط حب ، وتعود الى جوز لها[٢] ذات أب[٣] فان هى صادفته أكيل باز ، فما هي الا مثل الحيوان ، تمل حالها فى أقصر أوان[٤] وقد زعم زاعم لايصدق ، أن الحمام فى هذا العصر يبكين مقعداً هلك فى عهد نوح ، وان دوامها على ذلك لدليل الوفاء[٥] ،

يلقاك بالماء النمير الفنى وفى ضمير النفس نار تقيد :

(١) الخبثاء (جمع عتروف أو عتريف وهو الخبيث الفاجر الجرئ)

(٢) فرخها (٣) كلأ (٤) كرر أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى فى لزومياته فمن ذلك قوله عن الظبى :

عجبت للظبى ، بانت عنه صاحبة لاقت جنود منايا لا تناخيها
فارتاع يوما ، ويوما ، ثم ثالثة ومال بعد الى احرى يواخيها
ما شد صرف زمان عقدة لاذى الا ومر ليـاليـه يراخيهـا

(٥) أشار أبو العلاء الى هذا المعنى فى كتابه سقط الزند فى قوله :

أبنات الهديل أسعدن أو عـد ن قليـل العـزاء بالاسعـاد
ايه لله دركن فأنـتن اللواتى تحسن حفظ الوداد
ما نسيتن هالـكا فى الأوان الـ ـخال أودى من قبل هلك إياد

وما العوض عن خليل الصفاء ؟ لا عوض ولا نائب إلا فيه ، وكيف يعتب الزمن على تجافيه ، وانما حشى بشر وغدر . وما أقل صدق الآلاف !

وليس خليلي بالملول ، ولا الذى ـ إذا غبت عنه ـ باغنى بخليل

المعرى يتبرأ من العلم

وأما ما ذكره من حالى ، فطال ما أعطى الوثن سعودا [1] وأحلف كيمين امرىء القيس :

« فقلت : يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى »

إنى لمكذوب عليه ، كما كذبت العرب على الغول ، وكما تقولت الأمثال السائرة على الضب ، وكما تكلمت على لسان الضبع وهي خرساء . يظن أني من أهل العلم [2] وما أنا له بالصاحب ، وتلك لعمرى بلية ، والعلوم

---

(١) الوثن الصنم ، ومما نختاره من لزومياته فى هذا المعنى قوله :

وبالجد زار اللات أهل ضلالة وعظمت العزى ، واكرم باجر

وهى أسماء أصنام ثلاثة أولها لثقيف وكان بالطائف وثانيها لقريش وكنانة وثالثهما لقضاعة ومن والاهم

(٢) تبرأ ابو العلاء فى مواضع كثيرة من لزومياته ، من مظنة العلم ، ومن أحسن ما نختاره له فى هذا المعنى قوله :

أقررت بالجهل ، وادعى فهمى قوم ، فأمرى وأمرهم عجب

والحق ، أنى وأنهم هدر لست نجيباً ، ولا هم نجب

وقوله :

الله يشهد أنى جاهل ورَع فليحضر الناس اقرارى واشهادى

« ورَع أى جبان »

تفتقر الى مراس [١] ، ويقال إننى من أهل الدين ، ولو ظهر ما وراء السدين ما اقتنع لى الواصف بسب .

وكيف تدعي للعلج الوحشى ، ان تغريده في السحر أشعار موزونة وهل يصور لعاقل أن الغراب الناعب صدح بتشبيب ، فبعد من زعم أن الحجر متكلم ، وأنه عند الضرب متألم .

ولو أنى لا أشعر بما يقال فى ، لأرحت من إنكارى وتلافيّ وكنت كالوثن سواء عليه ان وقر [٢] وإن أوقر [٣] ، وكالأرض السبخة ما تحفل ان قيل « هي مريعة » أو قيل « بئست الزريعة [٤] »

---

(١) ممارسة (٢) من الوقار (٣) صدع (٤) من أحسن ما نختاره لأبى العلاء في هذا المعنى قوله :

ما يحس التراب ثقلا ـ اذا دي ـ س ـ ولا الماء يتعب الجريان

وقوله :

أما الجماد ، فانى بت أغبطه إذ ليس يعلم اما زاد أو محقا
لا يشعر العود بالنار التى اخذت فيه ، ولا الأصهب الدارى اذا سحقا

وقوله :

عز الذي أعفى الجماد فما ترى حجراً يغص بما أكل أو يشرق
متعريا فى صيفه وشتائه ما ريع قط لملبس يتخرق
لا حس يؤلمه ، فيظهر مجزعا ان راح يضرب ملطس أو مطرق

الى ان يقول :

والصخر يلبث لا يقارف مرة ذنبا ، ولا هو من حياء مطرق

ولعل هذه الميزة التى ذكرها للجماد فى هذا البيت الاخير ، هى التى جعلته يقول :

أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وكيف أغتبط اذا تخرص على ، وعزيت المعرفة الىّ ، ولست آمنا فى العاقبة فضيحة ، ، ومثلى إن جذلت بذلك ـ مثل من اتهم بمال ، فسره قول الجهلة إنه لحلف اليسار ، فطلب منه بعض السلاطين أن يحمل اليه جملة وافرة ، فصادف أكذوبة زافرة [١] وضربه كى يقر ، وقتل فى العقوبة !

وقد شهد الله أني أجذل بمن عابنى ، لأنه صدق فيما رابنى ، واهتم لثناء مكذوب [٢] فغفر الله لمن ظن حسناً بالمسىء . ولو لا كراهيتي حضوراً بين الناس ، وإيثارى أن اموت ميتة علهب [٣] فى كناس [٤] . فاجتمع معي اولئك

---

(١) كبيرة (٢) مما نختاره لابى العلاء فى هذا المعنى قوله فى لزومياته :

وأزهد فى مدح الفتى عند صدقه فكيف قبولى كاذبات المدائح

وقوله :

اذا كان التقارض من محال فأحسن من مدائحنا التهاجى

(٣) العلهب الظبى (٤) الكناس بيت الظبى فى الشجر يستتر فيه

العزلة

وايثار أبى العلاء العزلة معروف بل هو من ألزم صفاته ، وحسبك دليلا على ذلك ، ما لقب به نفسه من أنه «رهن المحبسين» والافاضة فى الاستشهاد بما قاله فى الترغيب فى العزلة والحث عليها ، إطالة لا فائدة منها ، فلنكتف من ذلك بنخبة قليلة من شعره فى بيان فضلها عنده ، كقوله :

بعدى عن الناس خير من لقائهم وقربهم للحجى والدين ادواء

كالبيت أفرد ، لا إيطاء يدخله ولا سناد ، ولا فى اللفظ إقواء

وقوله متضجراً من التكاليف الثقيلة التى يحتمها عليه الاختلاط بالناس :

لقاء الناس ألجأنى برغمى الى حسن التجمل والنفاق

ونحب أن لايفوت القارىء جمال هذا البيت الرائع وهو قوله :

الجائلون ، لصح أنهم عن الرشد حائلون

متى ما يأتنى أجلى بأرضى فحي على الجنازة للغريب

وقوله معللا ميله الى العزلة وأخذه بها :

ولى مذهب ـ فى هجرى الانس ـ نافع اذا القوم خاضوا فى اختيار المذاهب
أرانا على الساعات فرسان غارة وهن بنا يجرين جرى السلاهب
ومما يزيد العيش إخلاق ملبس تأسف نفس لم تطق رد ذاهب

وقوله :

اجتنب الناس ، وعش واحداً لا تظلم الناس ولا تظلم

وقوله :

تمنيت أنى بين روض ومنهل مع الوحش، لامصراً أحل ولا كفرا

وقوله :

يقل الأذى والعيب فى ساحة الفتى ـ وان هو أكدى ـ قلة الجلساء

وقوله :

بوحدانية العلام دنا فدعنى أقطع الايام وحدى

وقوله ـ يؤثر العزلة حتى بعد الموت ـ:

إذا حان يومى فلا وسد بموضع من الأرض لم يحفر به أحد قبرا
هم الناس ـ ان جازاهم الله بالذى توخوه ـ لم يرحم جهولا، ولا حبرا
يرى عنتاً فى قرب حى وميت من الانس من جلى سرائرهم خبرا
فيا ليتنى لا اشهد الحشر فيهم اذا بعثوا شعثاً رءوسهم غبرا
اذا تم فيما تؤنس العين مضجعى فزدنى ـ هداك الله ـ من سعة شبرا

وقوله :

وددت وفاتى فى مهمه به لامع ليس بالمعلم
أموت به واحدا مفردا وأدفن فى الارض لم تظلم (١)

---

(١) تحفر

وأما وروده « حلب » حرسها الله ـ فلو كانت تعقل ، لفرحت به فرح الشمطاء شحط سليلها الواحد ـ وما هو لحقها جاحد ـ وقدم بعد أعوام فنقعت به فرط أوام ، فالحمد لله الذى أعاد البارق الى الغمام الوسمى .

الانتحار

وإني لأعجب من تمالئ جماعة على أمر ليس بالحسن ولا الطاعة ، قد كدت الحق برهط العدم ، من غير الاسف ولا الندم ، ولكنما أرهب قدومى على الجبار ، ولم اصلح نخلتى بإبار ، وقيل لبعض الحكماء :« ان فلانا تلطف حتى قتل نفسه ، وكره أن يمارس بدائع الشرور ، وأحب النقلة الى منازل السرور » فقال الحكيم قولا معناه « أخطأ ذلك الشاب المقتبل ، هلا صبر على صروف الزمان ، فإنه لايشعر علام يقدم »

ولولا حكمة الله ـ جلت قدرته ـ وأنه حجز الرجل عن الموت ، بالخوف من العلز [١] والفوت [٢] لرغب كل من احتدم غضبه ، وكل عن ضريبة مقضبه ، أن تترع [٣] له من الموت كؤوس [٤]

وأبعد عن قائل : « لا سلمت » وآخر قال : « ألا يا اسلم »
أحاذر ان تجعلوا مضجعى الى كافر ـ خان ـ او مسلم
اذا قال : « ضايقتنى فى المحل » قلت : « أساؤا ولم اعلم »

(١) الرعدة أو الاضطراب والقلق والخفة والهلع (٢) الضياع (٣) تملأ
(٤) أبدع ابو العلاء فى صوغ هذا المعنى فى قوله :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية ، لاعتراها القوم أفواجا
وكان من ألقت الدنيا اليه أذى يؤمها تاركا للعيش أمواجا

أبو القطران الاسدى

وأما أبو القطران الأسدى ـ وأى البشر من الخطوب مفدى ـ فصاحب غزل وتبطّل ، وتوفّر على الخرّد وتعطّل[١] ، وهو ذلك المتهيم إلى وحشية ، وإنما ود الغانية خلاب وخداع ، وللكمد فى هواه ابتداع ، ولو هلكت تلك المرأة والمرّار[٢] يعيش ـ لعدّ أنه بتلفها نعيش ، لا سيما بعد السن العالية ، وقوة النفس الآلية[٣]

ولعل « أبا القطران » لو متع بهذه المذكورة ما يكون قدره مائة حقبة[٤] ، على غير الجزع والرّقبة ، لجاز أن يَعْرض من الوصال ـ إذا علم أن حبله فى اتصال ، ولو نزل بها شىء تتغير به عن العهد ، لتمنى أن تقذف إلى غير المهد[٥] ، لان ابن آدم بخيل ملول ، ولو أصابها العور بعد أن سكن عينها الحَوَر لظن أن ذلك نبأ لا يغفر ولا يكفّر :

ومن أين لذلك الشخص الأسدى ما وهبه الله للشيخ من وفاء ، وانما عاشر « ابو القطران » أعبدا في الإبل وآميا . ولعله لو صادف غانية تزيد على « وحشية » بشق الأبامة[٦] لسلاها غيرَ المؤلمة[٧] ، وانما ديدن

---

(١) التبطل والتعطل بمعنى واحد وهو البقاء بغير عمل ، وقد قيل « شر الفتيان المتبطل المتعطل » (٢) هو أبو القطران الاسدى

(٣) المستطيعة أو القادرة (٤) عام (٥) الى غير الراحة ، أى لتمنى أن تضيق بها الحال (٦) الأبامة بقلة ، وشق الأبامة أى نصفها

(٧) من غير أن تؤلمه

ذلك الرجل ونظرائه صفة ناقة أو ربع ، وما شجره المغترس بالنَّبع [١] ، اذا جنى الكمأة بجح ، وخال أنه قد نجح ! ولو حضر أخونة حضرها « الشيخ » لعاد كما قال القائل .

« فلو كنت عذرى العلاقة ، لم تبت بطينا ، وأنساك الهوى كثرة الأكل ! »

وهو - قدر الله له ما أحب - قد جالس ملوك مصر التى قال فيها فرعون . « أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ » ، وقد أقام بالعراق زمنا طويلا ، وبالعراق مملكة فارس ، وهم أهل الشرف والظرف ، ولا ريب أنه قد جالس بقاياهم ، واختبر فى المعاشرة سجاياهم ، وعاطوه الأكؤس آلات التصاوير ، على عاد [٢] المرازبة والأساوير كما قال الحكمى [٣]

تدور علينا الكأس فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى ، وفى جنباتها مهى تدريها بالقسى الفوارس [٤]

---

(١) النبع شجر تعمل منه القسى ، وفى ذلك يقول أبو العلاء فى سقط الزند :

وقال « الوليد » : « النبع ليس بمثمر وأخطأ - سرب الوحش من ثمر النبع

يعنى بالوليد البحترى ، ويرد على قوله :

وعيرتنى خلال العدم آونة والنبع عريان ، مافى عوده ثمر :

(٢) عادات

(٣) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته فى الجزء الاول (ص ٥٠)

(٤) هذان البيتان من قصيدة أبى نواس السينية الرائعة المشهورة وهى :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ، بها أثر منهم - جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبى ، فجددت عهدهم وانى - على أمثال تلك - لحابس

التقبيل

ومما أشك أنه ـ أمتع الله الآداب ببقائه ـ لو رزق محاورة أبي الاسود ـ على عرجه وبخله ـ لكانت مقته له أبلغ من مقة مهدي ليلاه . ولو كان أبو عبيدة أزفر الفم ، لما أمنت ـ مع كلفه[1] بالاخبار ـ أن يقبله شق البلسة[2] وفي الحديث عن عائشة ـ رحمة الله عليها ـ « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبلني شق التينه » وروى بعضهم « شق التمرة » وذلك أن يأخذ الشفة العليا بيده والسفلى بيده الأخرى ، ويقبل ما بين الشفتين

فضل الموت

وأما من فقده من الاصدقاء لما دخل حلب ـ حرسها الله ـ فتلك عادة الزمن ، يبدل من الابيات المسكونة قبورا ، وان رمس الهالك لبيت الحق ، على أنه يغني الثاوي به بعد عدم ويكفيه المؤونة[3] قال الضبي :

ولم أدر منهم غير ما شهدت به ... بشرقي « ساباط » الديار البسابس
أقمنا بها يوما ، ويومين بعده ، ... ويوما ـ له يوم الترحل خامس
تدور علينا الكأس في عسجدية ... حبتها ـ بأنواع التصاوير ـ فارس
فرارتها كسرى ، وفي حنباتها ... مهى تدريها بالقسي الفوارس
فللخمر ما رورت عليه حبوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

(١) شدة حبه (٢) التينة

(٣) رأى أبي العلاء في الموت

هذه هي أكبر ميزة للموت ، عند أبي العلاء . وهي التي حببته فيه ، وربما

ولقد علمت بأن قبرى حفرة ما بعدها خوف على ولا ندم

كان أول مايسترعى انتباهتك فى شعره ، تشاؤمه ، ونظرته الى العالم بمنظار شديد السواد ، وثم سخطه على الدنيا ، وتبرمه بالحياة ، التى دفعته اليها المقادير برغمه فلاقى فيها من صنوف الاذى والعذاب ، ما كان يكفى بعضه ، لتبغيضه فيها ، ونقمته عليها ، حتى أصبح لا يرى فيها الا سلسلة آلام طويلة متصلة الحلقات ، تبدأ ، لابولادة الطفل . كما زعم ابن الرومي فى قوله (١)

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها ، وانها لاوسع مما كان فيه وأرغد
بل منذ كان حنينا فى بطن أمه
وما برح الانسان فى البؤس ـ مذ جرت به الروح ـ لامذ زال عن رأسه الغرس (٢)

ثم لاتنتهى تلك الآلام الا بموته ـ وفى هذه الخاتمة شك كبير عند أبى العلاء كما سنبينه ، فلا غرو اذا حص الدنيا . بأوفر قسط من الذم ، وافتن فى تقبيحها حتى لقبها بأم دفر ـ أى أم نتن ـ فى أكثر مخاطباته اياها ـ وقد جعله مزاجه السوداوى يرى الحياة مأساة مفجعة فيها كل موضع صالح للحسرة والبكاء ، وليس فيها موضع واحد ، يصلح للسرور . وفى ذلك يقول أشعارا كثيرة ، نختزئ منها بقوله :

أعن باكيا لج فى حزنه وسل ضاحك القوم : «مم ابتهج ؟»

وقوله :

يسمى « سرورا » جاهل متخرص بفيه البرى ـ هل فى الزمان سرور ؟

* * *

وقد أكثر ابو العلاء من التفكير فى مسألة الموت ، فلا تكاد تخلو من ذكره

---

(١) ارجع الى ص « ٣٩٣ » ج « ٣ » من ديوان ابن الرومى

(٢) الغرس . الخلدة الرقيقة التى تخرج على رأس الولد او المصيل ساعة يولد ، قد تركت فتلته وهى خلدة رقيقة تخرج معه اذا خرج من بطن امه

فأزور بيت الحق زورة ماكث فعلام أحفل ما تقوض وانهدم

صفحة من لزومياته ، حتى لأصبح من أوليات المسائل التى يدور عليها محور فلسفته ولا نعرف له شبيها فى هذه الخلة ، سوى أبى العتاهية الذى نعده مقصراً — رغم اكثاره — عن شأو أبى العلاء تقصيرا بينا ، والفرق بين الرجلين فى نظرنا هو فرق ما بين الفيلسوف الصادق الزهد ، والواعظ الذى تحذ الوعظ ديدنا له .

* * *

ويمكن الالمام بآراء أبى العلاء فى الموت — رغم تناقضها — مع الاشارة الى سبب ذلك فيما يلى :

(١) فتارة كان يصل جزعه من الموت الى أقصاه ، ويرتاع منه ، فتنبعث من نفسه صيحة مفزعة يكاد ينخلع لها قلبه فيقول

يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل

ثم يصرخ من أعماق نفسه ، وقد نولاه الذهول :

أنبأنا اللبب بلقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبأ

أو يقول :

فويها وواها لسيل المنون كم حر عيرا بأحمالها .

أو تنبهه فكرة طارئة ، تنتابه فجأة ، فيهب مذعورا خائفا فيقول :

يكر الحول بعد الحول عى وتلك مصارع الاقوام حولى

كأنى بالألى حفروا لجارى وقد أخذوا المعاول وانتحوا لى

وفى البيت الثانى صورة مفزعة تمثل ما ألم به من الهلع والرعب :

(٢) وحينا يذكر الموت فيتمناه ولكنه تخشى الا تكون فيه الرائحة والطمأنينة اللتين اخطأهما فى الحياة فيتردد فى تمنيه ويقول :

إن كان نقلى عن الدنيا يكون إلى خير . وأرحب ، فانقلنى على عجل

وان علمت مآلى عند آخرتى شرا وأضيق ، فاسأ رب فى الاجل

وتزداد به الحيرة والارتباك فيقول

وما زالت العرب تسمي القبر بيتاً . وان كان المنتقل اليه ميتاً :

فان خرجت الى بؤس فواحربى وان نقلت الى نعمى ، فطوبى لى

وربما خشى ان يسلبه حسه الذى يعتز به ، ويتضاءل بالقياس اليه كل اعتبار آخر ، حتى انه حرم على نفسه الخمر ضنا ان تذهب به سورتها ـ كما سنبينه فى حينه ـ فيقول :

ولو كان يبقى الحس فى فم ميت لآليت أن الموت فى الفم أعذب

***

وفى هذه الحالة ترى حنينه الى الموت مقرونا بشىء من الجزع والرهبة منه ! على انها نوبات خائبة ، تعرض له . فتنطقه بما استشهدنا به من كلامه

فأما يقينه الذى لا يفتأ رددده . ويتغنى به فى أكثر أحايينه ، فهو النزوع الى تفضيل الموت . لانه يرى فيه المنقذ الوحيد من آلام الحياة وأوصابها ، واليك نخبة مختارة من كلامه تزيدك اقتناعا بايمانه الثابت ، بما ذكره فى رسالته هنا عن الرمس ، من انه « يغنى الثاوى به بعد عدم ويكفيه المؤونة » :

ما أعدل الموت من آت وأستره فهيجينى . فانى غير مهتاج
العيش أفقر منا ، كل ذات غنى والموت أغنى ـ بحق ـ كل محتاج
اذا حياة عليها للأذى فتحت بابا من الشر . لاقاه بارتاج
يغنى الفتى بالمنايا عن مآربه وتنفخ الروح فى طفل فيفتقر
كأس المنيه أولى بى . وأروح لى من أن أكابد أثراء واحواجا
لكون حلك فى رمس أعز له من أن يكون مليكا عاقد التاج
الملك يحتاج الافا تناصره والميت ليس الى حلق بمحتاج
أصبح فى لحدى على وحدتى لست الى الدنيا بمحتاج
كشفى رأسى وافتقارى بها خير من التمليك والتاج
ان يرحل الناس ولم أرتحل فعن قضاء لم يفوض الى

قال الراجز :

متى ألق من بعد المنية اسرتى اخبرهم انى خلصت من الاسر
ومن اليمن للفتى أن يجىء المـــوت يسعى اليه سعياً سريحاً
لم يمارس من السقام طويلا ومضى لم يكابد التبريحا
رقدة الموت ضجعة يستريح الجـــسم فيها والعيش مثل السهاد
تعب كلها الحياة فما أعـــجب الا من راغب فى ازدياد
تدعو بطول العمر أفواهنا لمن تناهى القلب فى وده
يسر ان مد بقاء له وكل ما يكره فى مده
دعا لى بالحياة ، اخو وداد رويدك انما تدعو عليا
وما كان البقاء لى اختيارا لو ان الأمر مردود اليا
آليت لاينفك جسمى فى أذى حتى يعود الى قديم العنصر
عل البلى سيفيد المرء فائدة فالمسك يزداد من طيب اذا سحقا
طال وقوفى وراء جسر وانما ينظر العبور
عشنا ـ وجسر الموت قدامنا ـ فشمر الآن لكى نعبره
أقمت برغمى ، وما طار ترى براض اذا ألفته الوكون
لعل الموت خير للبرايا وان خافوا الردى وتهيبوه
تعود الى الأرض أجسامنا وتلحق بالعنصر الطاهر
ويقضى بنا فرضه ناسك تر اليدين على الظاهر
لعل موتا يريح الجسم من نصب ان العناء بهذا العيش مقترن
متى غدوت ببطن الارض مضطجعاً فثم افقد اوصابى وامراضى

اليوم يبني لدويد بيته يارب بيت حسب بنيته

فمالى أخاف طريق الردى وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشة مرة ومال أضيع ، ومال ملك
هنيئا لطفل أزمع السير عنهم فودع من قبل التعارف ظاعنا
ومسكن الروح فى الجثمان أسقمه وبينها عمه من سقم يعافيه
وما يحس اذا ما عاد متصلا بالترب تسفيه فى الهابى سوافيه
وحبذا الارض قفرا لايحل بها ضنك تعاديه ، أو خلم تصافيه

الهابى تراب القبر

روح اذا اتصلت بجسم لم يزل ـ هو وهى ـ فى مرض العناء المكمد
ان كنت من ريح فيا ريح اسكنى أو كنت من نار ، فيا نار اخمدى
بطن البسيطة أعمى من ظواهرها فوسعا لى ، اهرب من سعاليها
أعفى المنازل قبر يستراح به وأفضل الابس ـ فيما أعلم ـ الكفن
والموت يسعى كمى الحرب صارمه ودرعه وفتاة الحى مجولها
كم من مصائب فى الايام فادحة ـ لولا الحمام ـ لعدت كلها هدرا
نمضي ونترك البلاد عريضة والصبح أزهر ، والنجوم زواهرا
وكيف أقضى ساعة بمسرة وأعلم أن الموت من غرمائى

وانظر الى قوله فى صباه من مرثية أبيه

وخوف الردى آوى الى الكهف اهله وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتى عدن

ثم الى قوله فيها :

هنيئا لك البيت الجديد موسدا يمينك فيه بالسعادة واليمن
مجاور سكن فى ديار بعيدة من الحى ، سقيا للديار وللسكن

ومعصم ذى برة[١] لويته لو كان المدهر بلى أبليته
أو كان قرني واحداً كفيته

مادح أبى العلاء

وأما الفصل الذى ذكر فيه الخليل ، فقد سقط[٢] منه اسم الذى غلا فى[٣] وقرن بالنجوم الصلافى[٤] ، ومن كان ، فغفر الله جرائمه ، وحفظ له فى الأبد كرائمه ـ فقد أخطأ على نفسه ـ فيما زعم ـ وعلىّ . ونسب ما لا أستوجب إلىّ ، وكم اعتذر وأتنصل من ذنب ليس بحصل !

وإنى لأكره ـ بشهادة الله ـ تلك الدعوى المبطلة ، كراهة المسيح من جعله رب العزة . فما ترك الفتن من مهزّة[٥] ، بدليل قوله تعالى : « واذ قال الله : « يا عيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون

وانظر الى قوله وهو يمثل ناحية أخرى من رأيه فى الموت :

« يامرحبا بالموت من متنظر ان كان ثم تعارف وتلاق »

ونختم هذا المختار بتلك المشاجرة الجميلة التى حدثت بينه وبين الدنيا ، وأحسن تمثيلها فى البيتين التاليين :

أف لدنياى ، فانى بها لم احل من انم ومن حوب
قلت لها « امضى غير مصحوبة » فقالت « اذهب غير مصحوب »

(١) البرة الخلخال

(٢) ذكر ابن القارح فى رسالته المنشوره بالجزء الثالث ان شيخا مدح أبا العلاء ولكنه سها عن ذكر اسمه فى رسالته

(٣) غلا فى مدحى (٤) المتمدح بما ليس عنده

(٥) حركة

الله ؟ »قال « سبحانك ! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب [١] ،،

رسالة أبي الفرج الزَّهرَجى [٢]

وأما ابو الفرج الزَّهرَجى، فمعرفته بالشيخ تقسم أنه للأدب حليف وللطبع الخير أليف ، وَدِدْت أن الرسالة وصلت إلىّ ، ولكن ما عدل

---

(١) أشار ابو العلاء الى ذلك فى موضعين من لزومياته ، أولهما قوله :

وقد شهد النصارى أن عيسى توخته اليهود ليصلبوه
وما أبهوا ، وقد جعلوه ربا لئلا ينقصوه ويجدبوه

والثانى قوله :

عجباً للمسيح بين أناس والى الله والد نسبوه
أسلمته ، الى اليهود النصارى وأقروا بأنهم صلبوه
يشفق الحازم اللبيب على الطفل - اذا مالداته ضربوه
واذا كان ما يقولون فى عيسى صحيحا ، ذا بن كان أبوه ؟
كيف خلى وليده للأعادى ؟ أم يظنون أنهم غلبوه ؟

(٢) أبو الفرج الزهرجى هو كاتب نصر الدولة ، وقد كتب رسالة الى ابى العلاء وسأل ابن القارح ايصالها اليه فوضعها فى رحل له ، سرقه جاره المسافر معه ، فكتب ابن القارح رسالته المنشورة بالجزء الثالث يعتذر الى ابى العلاء من ضياع الرسالة ،ويشكو اليه أموره وما لقى فى سفره ،وتطرق من ذلك الى مناسبات أخرى ، فرد عليه المعرى برسالة الغفران - جزى الله السارق عنا خيرا !

ذلك العديل [١] : هلا اقتنع بنفقة أو ثوب وترك الصحف عن نَوْب [٢] فأرِب من يديه ،ولا اهتدى فى الليلة بفرقديه [٣]

لو أنه احد لصوص العرب الذين رويت عنهم الأمثال السائرة ، وتحدثت بهم المنجدة والغابرة ، لما اغتفرت ما صنع بما نظم ، لأنه أفرط وأعظم [٤] وقد وفق « ابو الفرج » وولده ،لما درس عليه الكتب وحفظ عنه

امثال العرب

وأما حلب ـ حماها الله ـ فانها الأم البرة ، تعقد بها المسرة ، وما أحسبها ـ إن شاء الله ـ تظاهر بذميم العقوق ، ولا تغفل المفترض من الحقوق ، و« وحشية [٥] » يحتمل أن يكون الشيخ جعلها نائبة عمن فقده من الاخوان الذين عدم نظيرهم فى الاوان ؟ وكذلك تجرى أمثال العرب ، يكنون فيها بالاسم عن جميع الاسماء ، مثال ذلك أن يقول القائل :

فلا تشلل يد فتكت بعمرو فانك لن تذل ولن تضاما

يجوز أن يرى الرجل رجلا قد فتك بمن اسمه «حسان » أو غير ذلك فيتمثل بهذا البيت ، فيكون « عمرو » فيه واقعا على جميع من يتمثل له به

---

(١) هو الذى جاور ابن القارح فى المحمل وسرق منه الرحل الذى كانت فيه الرسالة

(٢) يعنى : هلا ترك الصحف بديلا مما سرقه من المتاع

(٣) يدعو على اللص بأن تسقط آرابه من يديه وأن يضل فلا يهتدى بنور الفرقدين « وهما النجمان المعروفان » (٤) أتى عظيمة

(٥) هى التى تمثل بها ابن القارح فى الأبيات التى ذكرها فى رسالته وأولها :

إذا تركت « وحشية » النجد ، لم يكن لعينيك ـ مما تبكيان ـ طبيب

وكذلك قول الراجز : « أوردها سعد وسعد مشتمل [١] »

صار ذلك مثلا لكل من عمل عملا لم يحكمه ، فيجوز أن يقال لمن اسمه «خالد » او « بكر » اوما شاء الله من الاسماء ، ويضعون فى هذا الباب المؤنث موضع المذكر ، والمذكر موضع المؤنث ، فيقولون للرجل ، « الصيف ضيعت اللبن » واذا ارادوا ان يخبروا بأن المرأة كانت تفعل الخير ثم هلكت فانقطع ما كانت تفعله ، جاز ان يقولوا : « ذهب الخير مع عمرو بن حُممَة » وهذا كثير .

شكاة الأدباء

وأما شكواه الى. فانى واياه لكما قيل فى المثل « الثكلى تعين الثكلى » ، وعلى ذلك حمل الاصمعى قول أبى دؤاد .

ويُصيخُ أحيانا كما اسـ تمع المضل دعاء ناشد [٢]

كلانا بحمد الله مضل ، فعلى من نحمل ؟ وعلى من ندل ؟

أما المطية فآلية وأما المزادة فخالية

يشكو الى جملى طول السرى صبر جميل فكلانا مبتلى

ولا أرتاب فى أنه يحفظ قول الفزارى [٣] :

---

(١) عجز البيت هو : « ما هكذا تورد ياسعد الابل ! »

(٢) الناشد الطالب ، وهو هنا الضال الذى ينشد السبيل

(٣) مالك بن اسماء الفزارى

كان آباؤه سادة غطفان ، وحكاية البيتين أن أخاه « عيينة بن أسماء » هوى جارية لأخته « هند بنت أسماء » فاستعان باخيه « مالك » على أخته ، فقال مالك

أعيين هلا - إذ كلفت بها - كنت استعنت بفارغ العقل
أقبلت تبغى الغوث من رجل والمستغاث اليه فى شغل ؟

ولم يزل أهل الادب يشكون الغير فى كل جيل ، وهو يعرف الحكاية أن مسلمة بن عبد الملك أوصى لأهل الادب بجزء من ماله ، وقال « إنهم أهل صناعة مجفوة » . واحسب أنهم والحرفة خلقا توأمين وانما ينجح بعضهم ، ثم لايلبث أن تزل قدمه ، واذا كان الادب على عهد بنى أمية يقصد أهله بالجفوة ، فكيف يسلمون من باس ، عند مملكة بني العباس ! واذا أصابتهم المحن فى أيام الرشيد ، فكيف يطمع لهم بالحظ ؟ ومن بغى التكسب بهذا الفن فقد أودع شرابه فى شن [1] غير ثقة على الوديعة

* * *

وأما الذين ذكرهم من المصحفين ، فغير البررة ولا المنصفين ، وما زال التتفل [2] يعرض لأذاة الأسد ، وما أحسبه بشعر بمكان الحسد .

ما يضر البحر أمسى زاخرا ان رمى فيه غلام بحجر

هذين البيتين . ومن مختار شعره قوله من قصيدة مشهورة .

وحديث ألذه ، هو مما يشتهى السامعون ، يوزن وزنا
منطق عاقل ، وتلحن أحيا نا ، وأحلى الحديث ما كان لحنا
. . . . . .
حبذا يومنا « بتل بؤد » اذ نسقى شرابنا ونغنى
أينما دارت الزجاجة درنا يحسب الجاهلون أننا جننا
ومررنا بنسوة عاطرات وسماع وقرقف . فنزلنا

(١) الشن القربة الخلق الصغيرة (٢) الثعلب

* * *

أو كلما طن الذباب أروعه ان الذباب إذن على كريم

وان حساد البارع لكما قال الفرزدق :

فان تهج آل الزبرقان ، فانما هجوت الطوال الشم من آل يذبل

وقد نبح الكلب النجوم ، ودونها فراسخ تقصى ناظر المتأمل

أبو الطيب المتنبي (١)

فأما ما ذكره من قول أبي الطيب : « أذم الى هذا الزمان أهيله » فقد كان الرجل مولعا بالتصغير ، لا يقنع منه بخلسة المغير (٢)، كقوله :

من لى بفهم أهيل عصر يدعى أن يحسب الهندى فيهم باقل

وقوله : « مقالى للأحيمق : يا حليم »

وقوله : ونام الخويدم عن ليلنا »

وقوله : « أفى كل يوم تحت ضبني شويعر »

وغير ذلك مما هو موجود فى ديوانه ، ولا ملامة عليه . إنما هى عادة صارت كالطبع ، تغتفر مع المحاسن ، وهذا البيت الذى أوله : « أذم الى هذا الزمان أهيله » إنما قاله فى على بن محمد بن سيار بأنطاكية قبل أن يمدح سيف الدولة ، والشعراء مطلق لهم ذلك ، لأن الآية شهدت عليهم

---

(١) ارجع الى (جـ ١ ص ٥٣) (٢) ارجع الى الفصل الممتع الذى كتبه الأستاذ العقاد بمناسبة هذه الجملة بعنوان « ولع المتنبى بالتصغير » فى كتابه الرائع « مطالعات فى الكتب والحياة » من (ص ١٢٤ — ١٣٠)

بالتخرص وقول الأباطيل « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ؟ وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ »

رواية القطربلي وابن أبي الازهر

وأما ما ذكره من حكاية القطربلى وابن أبى الازهر ، فقد يجوز مثله وما وضح أن ذلك الرجل حبس بالعراق ، فأما بالشام ، فحبسه مشهور ، وحدثت أنه كان ـ اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب ـ قال: «هو من النبوة» أى المرتفع من الارض ، وكان قد طمع فى شىء قد طمع فيه من هو دونه ، وإنما هي مقادير ، يظفر بها من وفق ، ولا يراع بالمجتهد أن يخفق ، وقد دلت أشياء فى ديوانه أنه كان متألها . فمن ذلك قوله :

« ولا قابلا الا لخالقه حكما » وقوله

ما أقدر الله أن يخزى بريته ولا يصدق قوم فى الذى زعموا

* * *

واذا رجع الى الحقائق ، فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق (١) ، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تدينا ، وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض (٢) ، ولعله قد ذهب

---

(١) وفى ذلك يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أمسى النفاق دروعاً يستجن بها من الاذى ، ويقوى سردها الحلف

(٢) شنع أبو العلاء فى كثير من أبيات لزومياته على هذه الفئة التى تتخذ الدين دائماً وسيلة لنيل أغراض الدنيا ونجتزئ من ذلك بقوله :

اذا كشفت عن الرهبان حالهم فكلهم يتوخى التبر والورقا

جماعة هم فى الظاهر متعبدون ، وفيما بطن ملحدون

دعبل بن على [1]

وما يلحقنى الشك فى أن دعبل بن على لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع ، وانما غرضه التكسب ، ولا أرتاب فى أن «دعبلا» كان على رأي الحكمى [2] وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشية

أبو نواس

وقداختلف فى أبى نواس، ادعى له التأله ، وانه كان يقضى صلوات نهاره فى ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه .

مذاهب جعلوها من معائشهم ، من يعمل الفكر فيها تعطه الأرقا

وقوله :

وانما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد ، لاحب التلاوات

وقوله :

كذب لايزال يطعم خبزا نص عن آدم وعن قابيل
يمتريه جذلان مهتبل الغـــرة يبدى حزنا على هابيل

وقوله :

وليس حبر ببدع فى صحابته ان رام نفعاً بأقوال تقولها
وانما رام نسوانا تزوجها — بما افتراه — واموالا تمولها

(١) هو «دعبل» الشاعر المشهور بالهجاء وهو الذى يقول فيه أبو العلاء فى لزومياته:

لو نطق الدهر هجا أهله كأنه « الرومى» أو «دعبل»

(٢) أبى نواس وقد مرت ترجمته فى (ج ١ ص «٥٠»)

سذاجة العرب

وذلك أن العرب جاءها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى ترغب الى القصيد ، وتقصر همها عن الفصيد ، فاتبعه منها متبعون ، والله أعلم بما يوعون ، فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسق ملكه ، مازج العرب غيرهم من الطوائف ، وسمعوا كلام الأطباء وأصحاب الهيئة وأهل المنطق ، فمالت منهم طائفة كثيرة .

رسالة آدم

ولم يزل الالحاد فى بني آدم على ممر الدهور ، حتى أن أصحاب السير يزعمون أن آدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث الى أولاده . فانذرهم بالآخرة وخوفهم من العذاب . فكذبوه وردوا عليه قوله ، ثم على ذلك المنهاج الى اليوم

زندقة قريش

وبعض العلماء يقول «ان سادات قريش كانوا زنادقة » وما أجدرهم بذلك ـ وقال شاعرهم يرثى قتلى بدر ـ وتروى لشداد بن الاسود الليثى ـ :

ألمت بالتحية أم بكر فحيوا أم بكر بالسلام
وكائن بالطوى طوىّ بدر من الاحساب والقوم الكرام
ألا يا أم بكر لاتكرى على الكأس ـ بعد أخى هشام

وبعد أخى أبيه ـ وكان قرما [١] من الأقوام شراب المدام
ألا من مبلغ الرحمن عني بأنى تارك شهر الصيام
اذا ما الرأس زايل منكبيه فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا «ابن كبشة [٢]» أن سنحيا وكيف حياة أصداء [٣] وهام
أتترك أن ترد الموت عني وتحيينى اذا بليت عظامى

ولا يدعى مثل هذه الدعاوى الا من يستبسل وراءها للحمام ، ولا يأسف له عند إلمام .

عودة الى أبى الطيب المتنبى

وحدثت أن أبا الطيب ، لما حصل فى بنى عدى وحاول أن يخرج فيهم قالوا له ـ وقد تبينوا دعواه ـ : «هاهنا ناقة صعبة ، فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل » وانه مشى الى تلك الناقة وهى رائحة فى الابل ، فتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت سراعة ، وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ، ومشت مشى المسمحة [٤] وأنه ورد بها الحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب . وصار ذلك من دلائله عندهم

---

(١) سيداً عظيما (٢) يعنى به النبى (ص .)
و« أبو كبشة » هو اسم جاهلى كان يعبد الشعرى اليمانية ، وترك دين آبائه ، وهجر عبادة الاصنام ، فاستعادت الجاهلية هذا اللقب للنبى (ص .) لمخالفته اياهم وعزوفه عن عبادة أصنامهم ، ودعوته اياهم الى الاسلام .
(٣) موتى ، أو اجساد ميتة
(٤) التى تلين بعد استصعاب

وحدثت أيضا أنه كان فى ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام ، فجرحته جرحا مفرطا ، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه ، وشد عليها غير منتظر لوقته ، وقال المجروح : « لا تحلها فى يومك » وعد له أياماً وليالى ، وان ذلك الكاتب قبل منه ، فبرئ الجرح ، فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون : « هو كمحيى الأموات »

وحدث رجل كان ابو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية ـ أو فى غيرها من السواحل ـ : أنه أراد الانتقال من موضع الى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : « انك ستجد ذلك الكلب قد مات » فلما عاد الرجل ألفى الأمر على ما ذكر

ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئا من المطاعم مسموماً ، وألقاه له ، وهو يخفى عن صاحبه ما فعل

اختلاف الخواطر

وأما القطربلي وابن أبي الأزهر فمن الزول [1] اجتماعهما علي تأليف كتاب ، وقل ما يعرف مثل ذلك .

ونحو منه قصة « الخالديين » اللذين كانا في الموصل ، وهما شاعران ، وقد كانا عند سيف الدولة ، وانصرفا على حد مغاضبة ، ولهما ديوان

---

(١) العجب

ينسب اليهما، لاينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلا فى أشياء قليلة ، وهذا متعذر فى ولد آدم ، إذ كانت الجبلة على الخلاف وقلة الموافقة ، فأما أن يعمل الرجل شيئا من كتاب ثم يتمه الآخر ؛ فهو أسوغ فى المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان

* * *

والذين رووا ديوان أبي الطيب ، يحكون أنه ولد سنة ثلاثمائة وثلاث، وكان طلوعه الى الشام سنة احدى وعشرين ، فأقام فيه برهة ثم عاد الى العراق ، ولم تطل مدته هناك ، والدليل على صحة هذا الخبر أن مدائحه فى صباه انما هي فى أهل الشام ، الا قوله :

« كُفّى ، أرانى ـ ويك ـ لومك أنوما [1] »

الدهر [2]

وأما شكيته أهل الزمان اليه ، فانه سلك فى ذلك منهاج المتقدمين

---

(١) تتمة البيت هى قوله : « هم أقام على فؤاد على فؤاد فأنجما »
ومن أجمل مافى هذه القصيدة قوله :

وخفوق قلب ـ لو رأيت لهيبه يا جنتى ! لظننت فيه جهنما
واذا سحابة صد حب أبرقت تركت حلاوة كل حب علقما
يا وجه داهية الذى لولاك ما أكل الضنى جسمى ورض الاعظما
ان كان أغناها السلو ، فاننى أمسيت من كبدى ومنها معدما

(٢) الدهر
أشعار أبى العلاء فى الدهر كثيرة تملأ عدة صفحات من لزومياته ، فلنجتزىء

وقد كثر المقال فى ذم الدهر حتى جاء الحديث : « لا تسبوا الدهر ، فان الله

بالقليل منها عن الكثير ، لاظهار مناحي رأيه المتعددة فى الدهر ، وانما نسردها بلا تعليق رغبة فى الايجاز ، وهى قوله :

ان رابنا الدهر بأفعاله فكلنا بالدهر مرتاب

وقوله :

اذا قيل «غال الدهر شيئاً» فانما يراد «اله الدهر» والدهر خادم

وقوله :

ولا عقل للدهر — فيما ارى — فكيف يعاتب ان اذنبا

وقوله :

فلو تكلم دهر كان شاكيهم كما تراهم على الاحسان يشكونه

وقوله :

صحبنا دهرنا دهراً ، وقدما رأى الفضلاء ألا يصحبوه
وغيظ بنوه منه ، وغيظ منهم فعذب ساكنيه وعذبوه
ومن عاداته فى كل جيل غذاه ان يقل مهذبوه
أساء بجهله أدبا عليهم فهل من حيلة فيؤدبوه
وما يخشى الوعيد فيوعدوه ولا يرعى العتاب فيعتبوه

وقوله :

ان خرف الدهر فهو شيخ يحق بالهتر والزمانه
أضحى سليما بغير داء لم تبد فى شخصه ضمانه
أعجم قد بين الرزايا أو جعل الشر ترجمانه

وقوله :

ويا دهر لحاك الله ما هنأت فرحانك

وقوله :

حلف الدهر جاهدا وهو بر اذا حلف
ليبتن كل عقد اذا نظمه ائتلف

هو الدهر » وقد عرف معنى هذا الكلام ، وأن باطنه ليس كظاهره اذ كان الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لم يذهب أحد منهم الى أن الدهر هو الخالق ولا المعبود . وقد جاء فى الكتاب الكريم : « وما يهلكنا الا الدهر »

* * *

وقول بعض الناس « الزمان حركة الفلك » لفظ لا حقيقة له ، وفى كتاب «سيبويه» مايدل على أن الزمان عنده مضى الليل والنهار ، وقد حددته حدا ـ ما أجدره أن يكون قد سبق اليه ـ الا انى لم اسمعه ـ وهو أن يقال « الزمان شىء اقل جزء منه يشتمل على جميع المدركات » وهو فى ذلك ضد المكان ، لأن اقل جزء منه لا يمكن ان يشتمل على شىء كما تشتمل عليه الظروف ، فاما الكون فلا بد من تشبثه بما قل وكثر [1] »

---

(١) الزمان

هذا التعريف ـ هو فى اعتقادنا أدق تعريف فلسفى صحيح عرفناه للزمن ، وقد ذكره ابو العلاء فى لزومياته فقال : « وأيسر كون تحته كل عالم »

واسترسل فى فكرته فى الشطر الثانى من هذا البيت فبين سرعة الزمان ، فقال « ولا تدرك الاكوان جرد صلادم » ثم قسم الازمان فى البيتين التاليين من هذه القصيدة الى ماض اندثر فاستحالت عودته ، ومستقبل آت سيندثر بعد حين ، فقال :

اذا هى مرت لم تعد ، ووراءها نظائر ، والأوقات ماض وقادم
فما آب منها ـ بعدما غاب ـ غائب ولا يعدم الحين المجدد عادم

وقد ذكر شطر هذا الرأى فى «سقط الزند» فقال :

أمس الذى مر ـ على قربه ـ يعجز اهل الارض عن رده

والذين قالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » وغير ذلك من المقال ، مثل البيت المنسوب إلى الأخطل ـ (وذكره حبيب بن أوس لشمعلة التغلبي) وهو

فإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر ـ لا عار بما فعل الدهر

وقول الآخر :

الدهر لاءم بين ألفتنا وكذاك فرق بيننا الدهر

وقول ابى صخر :

وذكر الشطر الثانى منه فى بيته الآخر وهو قوله :

أرى الوقت يفنى أنفسا بفنائه ويمحو ، فما يبقى الحديث ولا الرسم

وهذا الرأى ، لا يناقض قوله فى الدليل على قدم الزمن :

أرى زمنا تقادم غير فان فسبحان المهيمن ذى الكمال

* * *

وبين أن القادم من الزمان « المستقبل » مجهول لا يعرف الا بعد مرور الزمن الذى يكشف الغطاء عن اسراره فقال :

الساع آنية الحوادث ، ما حوت لم يبد الا بعد كشف غطائها

وقد ذكر هذا المعنى « بوپ » الشاعر الانجليزى ، بصيغة اخرى ، وترجمه الاستاذ العقاد ، وهو :

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين

ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر ـ حينا بعد حين

* * *

وكثيرا ما شبه ابو العلاء الزمان بالطائر فمن ذلك قوله :

وما الوقت الا طائرا يقطع المدى فبادره ـ اذ كل النهي فى بداره

وقوله :

يبغى التشبث بالأوقات جائزها هيهات! ما الوقت الا طائر طارا

عجبت لسعى الدهر بيني وبينها فامـا انقضى ما بيننا سكن الدهر

لم يدع ان أحدا منهم كان يقرب للافلاك القرابين ، ولا يزعم أنهـا تعقل ، وانما ذلك شيء يتوارثه الأمم في زمان بعد زمان

شاتم الدهر

وكان فى عبد القيس شاعر يقال له « شاتم الدهر » وهو القائل :

ولما رأيت الدهر وعراً سبيله وأبدى لنـا وجها أزَب مجدَّعا

وجبهة قرد ـ كالشراك ـ حنئيلة وأنفا ، ولوى بالعثانين أخدعا

ذكرت الكرام الذاهبين أولى الندى وقلت لعمرو والحسام :«ألا دعا »

الزندقة والزنادقة

وأما غيظه على الزنادقة والملحدين ، فأجره الله عليه ، كما أجره على الظمأ فى طريق مكة ، واصطلاء الشمس بعرفة ، ومبيته بالمزدلفة

ولاريب أنه ابتهل الى الله ـ سبحانه ـ فى الايام المعدودات والمعلومات ، ان يثبت هضاب الاسلام .

ولكن الزندقة داء قديم ، وقد رأى بعض الفقهاء أن الرجل اذا ظهرت زندقته ، ثم تاب فزعا من القتل ، لم تقبل توبته ، وليس كذلك غيرهم من الكفار ، لان المرتد اذا رجع ، قبل منه الرجوع ، ولا ملة الا ولها قوم ملحدون !

وقد كان ملوك الفرس تقتل على الزندقة ، والزنادقة هم الذين يسمون «الدهرية » ولا يقولون بنبوة ولا كتاب

بشار بن برد [١]

و«بشار» انما أخذ ذلك عن غيره ، وقد روى أنه وجد في كتبه رقعة مكتوب فيها : ,, انى أردت ان أهجو « فلان بن فلان الهاشمي » فصفحت عنه لقرابته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . ،،

وزعموا أنه كان يُشارّ « سيبويه » وأنه حضر يوما حلقة يونس ابن حبيب ، فقال ,, هل هنا من يرفع خبراً ،، فقالوا . «لا» فأنشدهم:

« بنى أمية هبوا من رقادكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ليس الخليفة بالموجود ، فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود »

وكان فى الحلقة سيبويه [٢] فيدعى بعض الناس انه وشى به ، وسيبويه ـ فيما أحسب ـ كان أجل موضعا من ان يدخل فى هذه الدَّنِيئات ، بل يعمد لأمور سنيات

* * *

وحكى عنه أنه عاب عليه قوله :

«على «الغزلا» مني السلام ، فطال ما لهوت بها فى ظل مَخْضَرَة زهر»

فقال «سيبويه» : ,, لم تستعمل العرب «الغزلا !» ،، ـ

فقال بشار : ,, هذا مثل قولهم «البشكى» و« الجمزى » ونحو ذلك ،، وجاء « بشار » فى شعره بالنينان [٣] ، فيقال إنه أنكره عليه . وهذه

---

(١) ارجع الى (جـ ١ ص «١٧٧») (٢) ارجع الى ترجمته فى (جـ (١) ص «٦١») (٣) جمع نون من السمك ، وهو «الحوت»

أخبار لا تثبت ، وفيما روى فى كتاب « سيبويه » أن « النون » تجمع على « نينان[1] » فهذا نقض للخبر .

* * *

وذكر من نقل أخبار « بشار » أنه توعد « سيبويه » بالهجاء ، وأنه تلافاه واستشهد بشعره . ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذاكرون فى المجالس ومجامع القوم ، وأصحاب (بشار) يروون له هذا البيت .

« وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بلبيب »

وفى كتاب (سيبويه) نصف هذا البيت الآخر ، وهو فى باب الادغام لم يسم قائله ، وزعم غيره أنه لأبى الأسود الدؤلى !

* * *

ويقال إن « يعقوب بن داود » وزير المهدى ، تحامل على بشار حتى قتل ، واختلف فى سنه ، فقيل كان ابن ثمانين سنة وقيل أكثر ، والله العالم بحقيقة الامر ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار ، وانما ذكرت ما ذكرت فيما تقدم[2] لأنى عقدته بمشيئة الله ، وان الله لحليم وهاب

* * *

وذكر صاحب كتاب « الورقة » جماعة من الشعراء فى طبقة أبي نواس ومن قبله ، ووصفهم بالزندقة ، وسرائر الناس مغيبة ، وإنما يعلم بها علام الغيوب ، وكانت تلك الحال تكتم فى ذلك الزمان خوفا من السيف ، فالآن

---

(١) وتجمع ايضاً على « أنوان »

(٢) ارجع الى (ج ١ ص « ١٧٧ ـ ١٧٩ »)

ظهر نجيث [١] القوم وانقاضت التريكة [٢] عن أخبث رأل [٣]

نادرة من نوادر الزنادقة

وكان فى ذلك العصر رجل له أصدقاء من الشيعة وصديق زنديق ، فدعا المتشيعة فى بعض الأيام ، فجاء الزنديق ، فقرع حلقة الباب ، وقال : « أصبحت جمّ بلابل [٤] الصدر متقسم الأشجان والفكر »

فقال صاحب البيت (ويحك : ممّ ذا ؟) فتركه الزنديق ومضى .

فلقيه صاحب المأدبة فقال له « ياهذا ! أردت أن توقعنى فيما أكره » خوفا من أن يظن أصدقاؤه أنه زنديق ، فقال : « أدعهم ثانية . وأعلمنى بمكانهم » فلما حصلوا عنده ، جاء الزنديق فقال :

« أصبحت جم بلابل [٤] الصدر متقسم الأشجان والفكر »

فقالوا : « ويحك ممّ ذا ؟ » فقال « مما جناه على « أبى الحسن » [٥] « عمرُ » وصاحبه « أبو بكر ! » .ففرح الشيعة بذلك ، ولقيه صاحب المنزل فقال « جزيت خيرا »

نادرة أخرى

وكان يجلس في مجلس البصرة جماعة من أهل العلم . وكان فيهم رجل زنديق ، له سيفان قد سمى أحدهما « الخير » والآخر « الفلاح [٦] »

---

(١) أى بدا سرهم الذى كانوا يخفونه

(٢) بيضة النعام خرج منها الفرخ (٣) ولد النعام (٤) وساوس

(٥) يعنى على بن أبى طالب (٦) الفوز بما يغتبط به

فاذا سلم عليه رجل من المسلمين ، قال : « صبحك الخير، ومساك الفلح »، ثم يلتفت لأصحابه الذين قدعرفوا مكان السيفين، فيقول :

« سيفان كالبرق إذا البرق لمح »

عودة الى ابى نواس [١]

أما قول الحكمي [٢] «تيه مغن وظرف زنديق»، فقد عيب عليه هذا المعنى ، وقيل أنه أراد رجلا من بني الحارث كان معروفا بالزندقة والظرف، وكان له موضع من السلطان

صالح بن عبد القدوس

وأما صالح بن عبد القدوس ، فقد شهر بالزندقة ـ ولم يقتل حتى ظهرت عنه مقالات توجب ذلك ـ ويروى لأبيه عبد القدوس

كم أهلكت مكة من زائر خرّبها الله وأبياتها
لارزق الرحمن أحياءها وأشوت الرحمة أمواتها

ولقد كان لصالح ابن ، حبس على الزندقة حبساً طويلا ، وهو الذي يروى له :

خرجنا من الدنيا ـ ونحن من اهلها ـ فلانحن بالأموات فيها ولا الأحيا
اذا ما اتانا زائر متفقد فرحنا، وقلنا: «جاء هذا من الدنيا»

واما رجوعه عن الزندقة لما أحس بالقتل ، فانما ذلك على سبيل الختل،

---

(١) (أرجع الى ج ١ ص«٥٠») (٢) هو أبو نواس

فصلى الله على سيدنا محمد ، فقد روى عنه أنه قال : « بعثت بالسيف، والخير مع السيف ، والخير فى السيف ، والخير بالسيف » وفي حديث آخر : «لا تزال أمتى بخير ما حملت السيف» — والسيف حمل صالحا [١] على التصديق ورده عن رأى الزنديق [٢]

الصناديقى

وأما المنسوب الى الصناديق ، فانما يحسب من الزناديق ، وأحسبه الذى كان يعرف بالمنصور . ظهر سنة سبعين ومائتين ، وأقام برهة باليمن، وفى زمانه كانت القيان تلعب بالدف وتقول :

خذى الدف ياهذه والعبى ... وبنى فضائل هذا النبى
تولى نبي بنى هاشم ... وقام نبى بني يعرب
فما تبتغى السعى عند الصفا ... ولا زورة القبر فى «يثرب»

---

(١) هو صالح بن عبدالقدوس الذى مر ذكره (٢) كرر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته بطرق شتى ، فمن ذلك قوله :

اذا ما ألحدت أمم بجهل ... فقابلها بتوحيد السيوف

وقوله :

تمادوا فى الضلال ولم يتوبوا ... ولو سمعوا صليل السيوف تابوا

وقوله :

أبدى « العتاهى » نسكا ... وتاب من ذكر عتبه
والخوف ألزم « سفيا ... ن » أن يغرق كتبه

وأمعن فى التهكم والسخرية فى قوله :

تلوا باطلا ، وجلوا صارما ... وقالوا : «صدقنا؟» فقلنا: «نعم!»

اذا القوم صلوا ، فلا تنهضى وان صوموا ، فكلي واشربى

* * *

ولا تحرمى نفسك المؤمنين من أفربين ومن أجنبي (١)

---

(١) المزدكية

هذا الرأى هو رأى جماعة «المزدكية» وهم اتباع «المذهب المزدكى» المنسوب الى «مزدك» وهو رجل ادعى النبوة على عهد خسرو قباذ، والد أنوشروان ، وزعم أن الله بعثه ليأمر «بشيوع النساء والاموال بين الناس كافة ، كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، لانهم كلهم اخوة اولاد أب واحد » وكان يتوهم أن ذلك يحسم أسباب المنازعات من بينهم ، لانها انما تحدث بسبب النساء والمال ، فانقاد قباذ الى مذهبه وأباح له أن يخلو بالملكة زوجه ، فترامى ابنه أنو شروان على قدمى قباذ ، باكيا متوسلا اليه ، ليعدل عن ذلك وما زال به حتى رجع عن فكرته . فلما ولى الملك بدأ بقتله ، انتقاما منه على ما هم به ، ولم يقبل توسلاته اليه . وقال له : « لن أنسى نتن قدميك ـ حين قبلتهما » ثم استأصل أصحابه وشيعته

(وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى نبذة مفيدة فى بيان هذا المذهب فليرجع اليها من شاء)

والمنصور الصنادبقى هذا هو أحد من اعتنقوا ذلك المذهب ودعوا اليه وسيمر ذكره فى رسالة ابن القارح ، وترى كيف كان يجمع فى دار خاصة ، نساء البلد ورجالها ليلا ، ويأمرهم بالاختلاط « حتى لا يتميز مال من مال ولا ولد من ولد »

* * *

أما رأى أبى العلاء فى المزدكية ، فيدلك على سخطه الشديد عليها قوله :

أقروا بالاله وأثبتوه وقالوا . « لا نبى ولا كتاب »
« ووطء بناتنا حل مباح » رويدكم فقد بطل العتاب
تمادوا فى الضلال ـ ولم يتوبوا ـ ولو سمعوا صليل السيف تابوا

فكيف حللت لذاك الغريـــب وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربّه ورواه فى عامه المجدب ؟
وما الخمر إلا كماء السحـــاب طلق، فقدست من مذهب!

فعلى معتقد هذه المقالة بهلة المبتهلين ! وهذه الطبقة ـ لعنها الله ـ تستعبد الطغام بأصناف مختلفة !

دعوى الربوبية

وقد كان باليمن رجل يحتجب فى حصن له ، ويكون الواسطة بينه وبين الناس خادما له أسود ، قد أسماه « جبريل » فقتله الخادم فى بعض الايام وانصرف ، فقال بعض المجان؟

تبارك الله فى علاه فر من الفسق جبرئيل
وضل من تزعمون ربا وهو على عرشه قتيل

ويقال إنه حمله على ذلك ما كان يكلفه من الفسق

واذا طمع بعض هؤلاء ، فانه لا يقنع بالامامة ، ولا النبوة . ولكنه يرتفع صعدا فى الكذب

*
* *

ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه الامور العظائم . بل كانت عقولهم تجنح إلى رأى الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء ـ اذ كان

وقوله :

شر النساء مشاعات ـ يكنّ لنا كالأرض ـ يحملن أبناء مشاعينا

اكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي ، وينظرون الى ذلك بعين الغبي

ربيعة بن أمية بن خلف الجحمي

وكان ربيعة بن أمية بن خلف الجحمى جرى له مع ابي بكر الصديق ـ رحمه الله ـ خطب ، فلحق بالروم ، ويروى أنه قال

لحقت بأرض الروم ـ غير مفكر ... بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركوني من صبوح مدامة ... فما حرم الله من السلاف[1] من الخمر
اذا أمرت[2] « تيم بن مرة » فيكم ... فلا خير فى أرض الحجاز ولا مصر
فان يك اسلامى هو الحق والهدى ... فإنى قد خليته لأبى بكر

* * *

وافتن الناس فى الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية ، فكان ذلك تنطسا فى الكفر ، وجمعاً للمعصية ، وإنما كان أهل الجاهلية يدفعون النبوة ولا يجاوزون ذلك إلى سواه

سمير بن أدكن

ولما أجلى عمر بن الخطاب ـ رحمة الله عليه ـ أهل الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلامن يهود بنى خيبر ، يعرف بسمير بن أدكن ، قال فى ذلك :

---

(١) ما تحلب وسال قبل العصر وهو أفضل الخمر
(٢) صارت أميرة

يصول أبو حفص علينا بدرة[1] رويدك ، ان المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط لتشبع ، إن الزاد شيء محبب
فلو كان « موسى » صادقا ما ظهرتم علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم الى المين ، فاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا فى طريقنا وبغيتكم فى أن تسودوا وترهبوا

* * *

وما زال اليمن ـ منذ كان ـ معدنا للمتكسبين بالتدين . والمحتالين على السحت ، وحدثنى من سافر الى تلك الناحية : أن به اليوم جماعة كلهم يزعم أنه القائم المنتظر ، فلا يعدم جباية من مال ، يصل بها الى خسيس الآمال

القرامطة

وحكى لى أن للقرامطة بالأحساء بيتا يزعمون أن إمامهم يخرج منه ، ويقيمون على باب ذلك البيت فرسا بسرج ولجام ، ويقولون للهمج والطغام : « هذا الفرس لركاب المهدى ، يركبه متى ظهر[2] » ، وانما

---

(١) سوط يضرب به

(٢) وفى ذلك يقول أبو العلاء :

يرقب الناس أن يقوم أمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقـ ـل مشيراً فى صبحه والمساء
فاذا ما أطعته جلب الرحـ ـمة عند المسير والارساء
انما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا الى الرؤساء
كالذى قام يجمع « الزنج » بالبصـ ـرة « والقرمطى » بالاحساء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصا دق يضحى ثقلا على الجلساء

غرضهم بذلك خدع وتعليل ، وتوصل الى المملكة وتضليل

ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة فى الدهر القديم ، لما حضرته المنية ، جمع أصحابه ، وجعل يقول لهم ـ لما أحس بالموت ـ : « اني قد عزمت على النقلة ، وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمدا ، ولا بد لى أن أبعث غير هؤلاء ، فعليه اللعنة ، لقد كفر أعظم الكفر في الساعة التى يجب أن يؤمن فيها الكافر ، ويؤوب الى آخرته المسافر !

الوليد بن يزيد

وأما الوليد بن يزيد ، فكان عقله عقل وليد ، وقد بلغ سن الكهل ، وقد رويت له أشعار ، يلحق به منها العار ، كقوله :

أدنيا منى خليلى «عبدلا» ، دون الازار
فلقد أيقنت أنى غير مبعوث لنار
واتركا من يطلب الجنـ ـة يسعى في خسار
سأروض الناس ، حتى يركبوا دين الحمار

فالعجب لزمان صيّر مثله إماما ، ولعل غيره ـ ممن ملك ـ يعتقد مثله أو قريباً ، ولكن يُساير ويخاف تثريبا ، ومما يروى له :

أنا الامام الوليد مفتخراً أجر بردى ، وأسمع الغزلا
ما العيش الا سماع محسنة وقهوة تترك الفتى ثملا
أسحب ذيلى الى منازلها ولا أبالى من لام أوعذلا
لاأرتجى الحور فى الخلود ، وهل يأمل حور الجنان من عقلا؟

اذا حبتك الوصال غانيـة فجازها بذلها، كن وصلا

ويقال إنه لما أحيط به ـ دخل القصر وأغلق بابه وقال :

دعوا لى هندا والرباب وفرتنى ومسمعة، حسبى بذلك مالا

خذوا ملككم، لا ثبت الله ملككم فليس يساوى بعد ذلك عقالا

وخلوا سبيلى قبل عيرو ماجرى ولا تحسدونى أن أموت هزالا

فألب عن تلك المنزلة أى الب ، ورؤى رأسه فى فم كلب ، كان حق الخلافة أن تفضى الى من هـو بنسك معروف ، لا تصرفه عن الرشد صروف ، ولـكن البلية خلقت مع الشمس، فهل يخلص من سكن فى رمس؟

أبو عيسى بن الرشيد

وأما « أبو عيسى بن الرشيد » فان صح ماروى عنه فقد بأين بذلك اسلافه ، وما يحفل ربه بالعبيد ، صائمين للخيفة ولا مفطرين [1] وربما كان الجاهل ـ أو المتجاهل ـ ينطق بالـكلمة ، وخلده بغيرها آهل

وأنما أقول ذلك، راجيا ان أبا عيسى ونظراءه ، لم يتبعوا في الغي امراءه ، وأنهم على سوى ما علن يبيتون .

وكان «أبو عيسى» المذكور يستحسن شعره فى البيتين والثلاثة ، وأنشد له الصولى فى نوادره :

---

(١) ذكر ابو العلاء هذا المعنى فى لزومياته أكثر من مرة فمن ذلك قوله :

تورعوا يا بنى حواء عن كذب فـا لـكم عند رب صاغـكم خطر

لم تجدبوا لقبيح من فعالـكم ولم يجئكـم لحسن التوبة ـ المطر

لساني كتوم لأسراره ودمعي نموم بسرى مذيع
ولولا دموعي كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع

فإن كان فر من صيام شهر . فلعله يقع فى تعذيب الدهر !

الجنّابى (١)

وأما الجنابى ، فلو عوقب بلد بمن يسكنه ، لجاز أن تؤخذ به «جنابة» ولا يقبل لها إنابة ، ولكن حكم الكتاب المنزل أجدر وأحرى « أن لا تزر وازرة وزر أخرى »

فعليه اللعنة

---

(١) الجنّابى

٢٨٦ — ٣٣١ هـ

اسمه سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام القرمطى ، بلده «جنّابة» من أعمال فارس متصلة بالبحرين ، وكنيته أبو طاهر ، وقد امتلأت كتب التاريخ بخروج «القرامطة» على الخلفاء والملوك وحروبهم معهم فلا حاجة الى الافاضة فى ذلك ، وحسبنا أن نلم بتاريخه موجزين :

ظهر فى سنة ٢٨٦ هـ بالبحرين وانضم اليه عدد من الأعراب والقرامطة ، ثم ارتفع شأنه وقويت شوكته ، فقتل من حوله من أهالى تلك القرى ، ولما قرب من نواحى البصرة ، جهز اليه المعتضد بالله جيشا فهزمه الجنابى ، وقتل الاسرى وأحرقهم ، واستبقى قائده ثم أطلقه بعد أيام وقال له : " امض الى صاحبك ، وعرفه ما رأيت "، ودخل بغداد فى رمضان تلك السنة ، وحضر بين يدى المعتضد، فخلع عليه ودخل القرامطة الشام سنة ٢٨٩ هـ وجرت وقائع بين الفريقين ، ثم قتله خادمه سنة ٣٣١ هـ فى الحمام وستجد فى رسالة ابن القارح اشارة نافعة اليه

العلوى البصرى

وأما العلوى البصرى ، فذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر ,,أنه : من « عبد القيس » ثم من « أنمار » وكان اسمه أحمد ، فلما خرج تسمى عليا ،،

والكذب كثير جم كأنه فى النظر طود أشم . والصدق لديه كالحصاة ، توطأ باقدام عصاة . وتلك الأبيات المنسوبة اليه مشهورة. وهى :

أيا حرفة الزمنى ! ـ ألم بك الردى ـ أمالى خلاص منك ـ والشمل جامع؟
لئن قنعت نفسى بتعليم صبية ـ يدَ الدهر ـ إنى بالمذلة قانع
وهل يَرْضيَن حُرٌ بتعليم صبية وقد ظن أن الرزق فى الارض واسع

وما أمنع أن يكون حمله حب الحطام على أن غرق فى بحر طام !

* * *

وقد رويت له أبيات تدل على تأله ـ وما أدفع أن تكون قيلت على لسانه ، لأن من خبر هذا العالم حكم عليه بفجور ومين . والأبيات:

قتلت الناس اشفاقا على نفسى كى تبقى
وحزت المال بالسيف لكى أنعم لا أشقى
فمن أبصر مثواى فلا يظلم إذن خلقا
فواويلى اذا ما مت عند الله ما ألقى —
أخلدا فى جوار الله ؛ أم فى ناره ألقى؟

* * *

وأنشدنى بعضهم أبياتا قافيَّة طويلة الوزن ، وقافيتها مثل هذه القافية ، قد نسبت الى عضد الدولة ، وقيل إنه أفاق فى بعض الايام فكتبها على جدار المنزل الذي كان فيه ، وقد نحل فيها أبيات البصرى وأشهد أنها متكلفة ، صنعها رقيع من القوم ، وأن عضد الدولة ما سمع بها قط

* * *

وأما الحكاية عن أصحاب الحديث أنهم صحفوا رخمة ، فقالوا رحمة فلا أصدق بما يجري مجراها ، والكذب غالب ظاهر ، والصدق خفى متضائل (١)

وكذلك ادعاء من يدعي أن علياً ـ عليه السلام ـ قال : « تهلك البصرة بالزنج » فصحفها أهل الحديث بالريح ، لا أومن بشىء من ذلك ، ولم يكن على ـ عليه السلام ـ ممن يكشف له علم الغيب ، وفى الكتاب العزيز « لا يعلم من فى السموات والارض الغيبَ الا الله » وفى الحديث المأثور « لا يعلم ما فى غد الا الله »

ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب ـ حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة (٢) اسمه فلان بن فلان ، وصفته كذا فان

---

(١) يقول ابو العلاء فى هذا المعنى :

والحق يهمس بينهم ويقام للسوآت منبر

ويقول :

اذا قلت المحال رفعت صوتى وان قلت اليقين أطلت همسى

(٢) من هذا نستنج أن رسالة الغفران كتبت فى تلك السنة ، ارجع الى (جـ ١ ص ٣٥)

ادعى ذلك مدع ، فإنما هو متخرص كاذب

النجوم

وأما النجوم فانما لها تلويح لا تصريح ، وحكى أن الفضل بن سهل كان يتمثل كثيراً بقول الراجز :

« لئن نجوت ونجت ركائبي من غالب ومن لفيف غالب
إني لنجاء من الكرائب »

وان غالباً كان في من قتله ، فهذا يتفق مثله ، وأجدر بهذه الحكاية أن تكون مصنوعة ، فاما ما تمثله بالشعر فغير مستنكر

وربما اتفق أن يكون في الوقت جماعة يسمون بهذا ، فيمكن أن يقترن معنى بلفظ ، على أن في الايام عجائب ، وفوق كل ذي علم عليم

الألمعى

وقد حكى أن « إياس بن معاوية » القاضي كان يظن الاشياء فتكون كما ظن ، ولهذه العلة قالوا « رجل نقاب[1] وألمعى » قال أوس[2] :

الالمعي الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا[3]

---

(١) النقاب الذى يحدث بالغائب (٢) هو أوس بن حجر ، التميمى أحد شعراء الجاهلية ، ارجع الى ترجمته فى ج ا ص «٢٠٤»

(٣) ومما قيل فى هذا المعنى قول بعضهم

« عليم بأخبار الخطوب بظنه كأن له فى اليوم عينا على غد »

وقول الآخر :

الحلاج (١)

وكم افترى للحلاج ـ والكذب كثير ـ وجميع ما ينسب ، اليه بما لم

بصير بأعقاب الأمور ، كأنما تخاطبه من كل أمر عواقبه

وقول ثالث :

بصير بأعقاب الأمور ، كأنما يرى بصواب الظن ما هو واقع

وقول البحترى فى سليمان بن وهب :

كان آراءه ـ والحزم يتبعها ـ تريه كل خفي وهو إعلان

ما غاب عن عينه ، فالقلب يكلؤه ، وان تنم عينه . فالقلب يقظان

(١) الحلاّج

اسمه الحسين بن منصور كنيته أبو مغيث ، وجده مجوسى وبلده « البيضاء » احدى بلاد فارس ، وكانت وفاته سنة ٣٠٩ هـ

نشأ بواسط والعراق ، واشتهر بصحبته لأبى القاسم الجنيد ، ومن فى طبقته كما اشتهر بكفره ـ وان بالغ فى تعظيمه بعض الناس ـ ومن شعره قوله :

لا كنت ان كنت أدرى « كيف كنت » ولا

لا كنت ان كنت أدرى « كيف لم أكن »

وقوله المشهور :

ألقاه فى اليم مكتوفا ، وقال له : « اياك اياك أن تبتل بالماء »

وكان يكثر من قوله : « ما فى الجبة الا الله » فسمى « الجبائى » لذلك ، وكان يقول « معبودكم تحت قدمى هذا » وقد تصدى الامام الغزالى للدفاع عنه فى فصل طويل عقده فى كتاب (مشكاة الانوار) اعتذر فيه عن الالفاظ الشديدة التى صدرت منه ، وعزاها الى افراطه فى محبة الله ، واستشهد بقول القائل :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان ، حللنا بدنا

فاذا أبصرتنى أبصرته واذا أبصرته أبصرتنا

وسيمر بك طرف من أخباره فى رسالة ابن القارح

تجر العادة بمثله ، فانه المين لا أصدق به ، ومما يفتعل عليه أنه قال للذين قتلوه : «أتظنون أنكم اياى تقتلون ، انما تقتلون بغلة المادرانى» وان البغلة وجدت فى اصطبلها مقتولة

وفى الصوفية ـ الى اليوم ـ من يرفع شأنه ، وبلغنى أن ببغداد قوما ينتظرون خروجه ، وانهم يقفون بحيث صلب على «دجلة» يتوقعون ظهوره [١] ، وليس ذلك ببدع من جهل الناس ، ولو عبد عابد ظبى كناس [٢] .

إجلال القرد

قرد زبيدة وقرد يزيد

فقد نزل حظ على قرد ، فظفر با كرام الوِرد [٣] ، وقالت العامة :

---

(١) كان السبب فى صلبه ، كلام جرى منه فى مجلس «حامد بن العباس» وزير المقتدر بحضرة القاضى أبى عمر . فأفتى بحل دمه وكتب بخطه ذلك ، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء . فقال لهم الحلاج : « ظهرى حمى ، ودمى حرام ، وما يحل لكم أن تتقولوا على ، وأنا اعتقادى الاسلام ، ومذهبى السنة ، وتفضيل الأئمة الاربعة ، الخلفاء الراشدين ، ولى كتب فى السنة ، فالله الله فى دمى » ولم يزل يردد هذا القول ـ وهم يكتبون ـ حتى أتمو ما احتاجوا اليه . ونهضوا من المجلس وحملوا الحلاج الى السجن ، ثم جلد أمام العامة ، وقطعت أطرافه ، وجزت رأسه ، واحرقت جثته ، ثم القيت فى « دجلة » واتفق أن زادت فى السنة زيادة وافرة ، فادعى أصحابه ان سبب ذلك هو سخط الحلاج .

(١) الكناس بيت الظبى فى الشجر يستتر فيه ، لأنه يكنس الرمل حتى يصل (٢) الجيش

« اسجد للقرد فى زمانه ! »

وأنا أتحوّب[1] من ذكر القرد الذى يقال إن القوّاد ـ فى زمن « زبيدة » ـ كانوا يدخلون للسلام عليه، وان « يزيد بن مَزِيد الشَّيْباني » دخل فى جملة المسلّمين فقتله

وقد روى أن « يزيد بن معاوية » كان له قرد يحمله على أتان وحشية، ويرسلها مع الخيل في الحَلْبة[2] »

رجعة الى الحلاج

وأما الأبيات التى على الياء :

« يا سر سر يدق حتى يجل عن وصف كل حي
وظاهراً باطنا تبدى من كل شيء لكل شى
يا جملة الكل لست غيرى فما اعتذارى اذن الى »

فلا بأس بنظمها فى القوة، ولكن قوله « الى » عاهة فى الأبيات وكذلك قوله « الكل » فان ادخاله الألف واللام مكروه، وكذلك قوله « الكل » إدخاله الالف واللام مكروه، وكان « أبو على » يجيزه، ويدعى إجازته على « سيبويه »

فأما الكلام القديم فيفتقد فيه (الكل) و (البعض) وقد أنشدوا بيتا لسحيم :

---

(١) أجتنب الحوب أى الاثم أوأتحرج منه، وهى ايضاً بمعنى أتوجع باكيا في جزع وصياح (٢) الخيل تجمع للسباق

« رأيت الغنى والفقير كليهما إلى الموت يأتى الموت للكل معمدا: »

مذهب الحلول (١)

وينشد لفتى كان فى زمن الحلاج :

إن يكن مذهب الحلول صحيحا فالهى في حرمة الزجاج
عرضت فى غلالة بطراز بين دار العطار والثلاج
زعموا الى أمرا ـ وما صح ـ لكن هو من إفك شيخنا الحلاج

---

(١) الحلولية أو مذهب الحلول هى الادعاء بحلول الله ـ سبحانه ـ فى الاشخاص، ولمعتنقى هذا المذهب ادعاءات لا يحصيها العد ، فقد ادعى بعضهم ان روح الله حلت فى الانبياء ، واحداً بعد الآخر ، حتى حلت فى أبى هاشم عبدالله بن محمد ابن الحنيفية ، وادعى غيرهم انها حلت فى أبى مسلم ؛ وادعى آخرون حلول الله فى الاشخاص الحسنة ، فكان «الحلمانية» اذا رأوا صورة حسنة، سجدوا لها .واهمين أن الله حل فيها ؛ واستدل بعض هؤلاء على جواز حلول الله فى الاجساد . بقوله تعالى للملائكة فى آدم : « فاذا سويته،ونفخت فيه من روحى،فقعوا له ساجدين » وزعموا أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، لانه خلقه فى أحسن تقويم بدليل قوله تعالى . « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

وزعم الحلاج أن من هذب نفسه فى الطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى الى مقام المقربين ؛ ولا يزال يصفو ويرتقى فى درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية ، فاذا لم يبق فيه منها حظ ، حل فيه روح الله ، الذى حل فى عيسى ابن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئاً الا كان كما أراد ؛ وكان جميع فعله فعل الله تعالى

ولنجتزئ بهذا القدر، فان فيما أورده أبو العلاء فى هذا الفصل، وابن القارح فى رسالته ما فيه الكفاية

وهذه المذاهب قديمة ، تنتقل فى عصر بعد عصر ، ويقال إن فرعون كان على مذهب الحلولية ، فلذلك ادعى أنه رب العزة

*
* *

وحكى عن رجل منهم أنه كان يقول فى تسبيحه : « سبحانك سبحاني غفرانك غفراني » وهذا هو الجنون الغالب ، انما من يقول هـذا القول معدود فى الأنعام ، وقال بعضهم :

أنا أنت ـ بلاشك ـ فسبحانك سبحانى
واسخاطك اسخاطى وغفرانك غفرانى
ولم أجلد يا رب اذا قيل هو الزانى ؟

وبنو آدم بلا عقول ، وهذا أمر يلقنه صغير عن كبير ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ، ويروى لبعض أهل هذه النحلة :

رأيت ربي يمشى بلا لكة فى سوق يحيى ، فكدت أنفطر
فقلت : « هل فى اتصالنا طمع » فقال « هيهات ، يمنع الحذر »
ولو قضى الله الفة بهوى لم يك الا السجود والنظر

التناسخ (١)

وتؤدي هذه النحلة الى التناسخ ، وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند ، وقد كثر في جماعة من الشيعة ، نسأل التوفيق والكفاية : وينشد

---

(١) التناسخ :

هو مذهب القائلين بانتقال الارواح بعد مغادرة أجسادها ، الى أجساد أخر ، ويرى بعضهم ان ذلك يحدث ولو لم تكن تلك الاجساد من نوع الاجساد التى فارقتها الروح ، وبهذا الزعم يدين الكثيرون ، منهم القرامطة ، واحمد بن حائط ، وتلميذه احمد بن نانوس ، وأبو مسلم الخراسانى ، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب ، ومما ذكره الاخير فى بعض كتبه قوله : « لولا أنه لا سبيل الى تخليص الارواح عن الاجساد المتصورة بالصورة البهيمية ، الى الاجسام المتصورة بصور الانسان ، الا بالقتل والذبح ، لما جاز ذبح شيء من الحيوان البتة »

ويزعمون ان التناسخ هو نوع من العقاب والثواب ؛ فالفاسق السيئ العمل ، يعاقب على ذلك بأن تنتقل روحه الى أجساد البهائم الخبيثة المرتطمة فى الاقذار ، والمسخرة الممتهنة بالذبح

* * *

وزعم بعضهم ان الله ـ سبحانه ـ أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالغين ، فى دار سوى هذه الدار الدنيا ، وخلق فيهم معرفته ، والعلم به ، وأسبغ عليهم نعمه ، فابتدأهم بتكليف شكره ، فاطاعه بعضهم فى جميع ما أمرهم به ، وعصاه بعضهم فى جميع ذلك ، وأطاعه بعضهم فى البعض دون الآخر ، فمن اطاعه فى الكل ، أقره دار النعيم التى ابتدأهم فيها ، ومن عصاه فى الكل أخرجه من تلك الدار الى دار العذاب ، وهى النار ، ومن أطاعه فى البعض ، وعصاه فى البعض الآخر ، أخرجه الى دار الدنيا ، فألبسه هذه الاجساد الكثيفة ، وابتلاه بالبأساء والضراء ، والشدة والرخاء ، والآلام واللذات ، على صور مختلفة من صور الناس ، وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم ، فمن كانت معاصيه أقل ، وطاعاته اكثر ، كانت صورته أحسن

١٣٦٩٧

لرجل من النُّصَيْرِيَّة :

وآلامه أكثر ، ثم لا يزال يكون فى الدنيا كرة بعد كرة ، وصورة بعد أخرى ، ما دامت معه ذنوبه وطاعاته

***

واستدل من يعتقد بالتناسخ من المسلمين ، على صحة زعمهم بقوله تعالى : " يا أيها الانسان ! ما غرك بربك الكريم ؟ الذى خلقك ، فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك " ، وبالآية الاخرى " جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومن الانعام ازواجا يذرؤكم فيه "

واستدل غير المسلمين منهم على صحة مذهبهم ، بأن النفس لا تتناهى والعالم لا يتناهى لأمد ، فالنفس منتقلة أبداً ، وليس انتقالها الى نوعها بأولى من انتقالها الى غير نوعها

***

وأنكرت طائفة أخرى ، انتقال الارواح الى غير انواع اجسادها التى فارقتها بعد أن أقرت انتقالها الى انواع اجسادها ، فقالت : " بما انه لا تناهى للعالم ، فوجب ان تتردد النفس فى الأجساد أبداً ، ولكن لا يجوز ان تنتقل الى غير النوع الذي اوجب لها طبعها الاشراف عليه ، وتعلقها به "

(وفى كتابى الملل والنحل لابن حزم والشهرستانى ، فصلان نافعان لمن شاء الرجوع اليهما ، وقد عنى ابن حزم بتفنيد كثير من هذه الآراء ودحضها)

***

شاع فى الهند هذا المذهب كما شاع فيها غيره ، منذ أقدم أزمنة التاريخ ، ثم عرفه العرب فى أواخر القرن الأول ، ودان به الشيعة ، كما دانوا بمذهب الحلول والرجعة وغير ذلك من المذاهب القريبة منهما ، ولم يأت القرن الرابع حتى انتشرت تلك المذاهب ، وذاع أمرها ، وساعد على انتشارها فتح محمود بن سبكتكين بلاد الهند ، الذى كان سببا فى توثق العلاقات بين المسلمين والهنود ، فكثر تبادل الآراء بينهم ، ووفد بعض الهنود الى مدينة السلام ، وانتشرت تجارة الهند بالعراق .

« إعجبي أمسنا : لصرف الليالى

« رأى أبى العلاء فى التناسخ »

فاذا شئت أن تعرف رأى أبى العلاء فى التناسخ ، أمكنك ان تلمحه فيما نقرؤه له فى هذا الفصل ، من السخرية والتبرم

ولا ريب أن ابا العلاء ، درس هذا المذهب دراسة حقه ، فلم يوافق عليه، وأبدى ارتيابه فيه ، ثم شفع هذا الارتياب بالرفض الصريح فى أغلب أشعاره

فقد ذكر التناسخ فى صباه ، على سبيل اللهو والتندر ، وان لم يفته أن يظهر ارتيابه فيه ، فى بيت من قصيدة له ، فى «سقط الزند» كتبها الى ابراهيم بن اسحق مدحا فيه ، وجوابا على قصيدة بعث بها اليه ، والبيت :

فلو صح التناسخ ، كنت « موسى » وكان ابوك « اسحق الذبيحا »

ثم انكره اكثر من مرة انكاراً صريحا فى لزومياته ، فقال:

يقولون : « ان الجسم ينقل روحه الى غيره ، حتى يهذبه النقل »
فلا تقبلن ما يخبرونك ، ضلة ، اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وتهكم بجماعة القائلين بهذا المذهب ، وامعن فى السخرية منهم فقال :

يا أكل التفاح : لا تبعدن ولا يقم يوم ردى ثاكلك
قال النصيرى ـ وما قلته ـ فاسمع ، وشجع يا اخى ناكلك
« قد كنت فى دهرك تفاحة وكان تفاحك ذا آكلك
وحرف هاج لحت فيما مضى وطالما تشكله شاكلك

والبيت الاخير سخرية من مذهب القائلين ـ ومنهم ابن سعيد العجلى ، وهو أحد من ادعى انه المهدى المنتظر ـ «ان الاعضاء على صور حروف الهجاء ، وان الالف منها مثال القدم ، والعين على صورة العين الخ »

وقد سخر من التناسخ وممن يدينون به ، فى موضع آخر ، فقال :

فما بال هذا العصر ، ما فيه آية من المسخ ، ان كانت «يهود» رأت مسخا

وقال بأحكام التناسخ معشر غلوا ، فاجازوا الفسخ فى ذاك والرسخا

فقد قسموا التناسخ الى اربعة اقسام . نسخ ومسخ وفسخ ورسخ ، وقالوا عن الاول انه انتقال الروح من جسم انسانى الى آخر ، أو إلى جسم انسانى أرفع منه : وعن الثانى انه انتقال الروح الى البهائم ، وعن الثالث الى انه انتقالها الى الحشرات ، وعن الرابع انه انتقالها الى النبات أو الجماد

* * *

وانما تحفظ ابو العلاء فى ارتيابه فى التناسخ احياناً ، فاحتاط فى بعض اشعاره ووقف على الحياد فى البعض الاخر ، لارتباط هذه المسألة العويصة بالروح ومآلها ، وقد جهل أبو العلاء كنه الروح ومآلها ، فرجم عنها بالظنون والفروض ، وان جزم بمآل الجسم وعرف غايته وتطوراته . فقال :

أما الجسوم . فللتراب مآلها وعييت بالارواح ، انى تذهب

واذ أيقن أن مآل الجسم الى التراب فقد افنى فى صيرورته ومآله حين وجه خياله الى هذه الناحية ، فابدع فى ذلك ما شاء له الخيال الصافى والعقل الراجح الحصيف فقال :

واذا رجعت اليه صارت اعظمي ترباً تهافت فى طوال الاعصر

وقال : خفف الوطء ، ما اظن اديم ال أرض الا من هذه الاجساد

وقال : ولرب اجساد جديرات البرى بالصون صارت فى طلاء جدار

وقال : لعل مفاصل البناء تضحى طلاء للسقيفة والجدار

وقال : وان جعلت ـ بحمدالله ـ فى خزف يقضى الطهور ، فانى شاكر راضى
جواهر ألفتها قدرة عجب وزايلتها ، فصارت مثل أعراض

وقال : فلا يمس فخارا ـ من الفخر ـ عائدٌ الى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل اناء منه يصنع مرة فيأكل فيه ـ من اراد ـ ويشرب
وينقل من أرض لاخرى . ومادرى . فواها له بعد البلى ـ يتغرب

فازجرى هذه السنانير [١] عنها واتركيها ـ وما تضم الغراره [٢]

وقال آخر منهم :

تبارك الله كاشف المحن فقد أرانا عجائب الزمن
حمار شيبان، شيخ بلدتنا ، صُيِّره جارنا أبو السكن
بدل من مشية بحلته مشيته فى الحزام والرسن [٣] .

الى آخر تلك الأشعار التى لا يتسع المقام لذكرها ، وقد اتجه فكر « عمر الخيام » الى هذه الناحية فابدع فيها وأحسن فى رباعياته ، وتمثل اكوابا تألفت من جسوم آدمية ، تتحادث وتتناقش كما تمثل كوبا فى يد الخزاف يقص عليه تاريخ حياته، ووردة عاطرة كانت غادة فاتنة ماتت فاستحال جمالها الى عطر شذى » وقد امتلات « رباعياته » بهذه الفكرة ممثلة فى صور شتى ، وحسب القارئ ان نحيله اليها ليرى بنفسه ذلك . فقد كادت هذه الفكرة تصبح محور فلسفة الخيام فى كتابه ،

***

على أن أبا العلاء لم يرفض التناسخ جملة واحدة ، ولم يجزم ببطلانه جزم المتيقن الواثق فى كل مرة ، بل تردد فيه احيانا فكاد يقبله ، فاذا رأيته يقول !

تقادم شخص مضى فاحدث منه البدل
وما صح الا امرؤ تصرف ، ثم انجدل

رأيته يقول فى مكان آخر :

وتقدم الارض نفوس أتت مخلوقة من أنفس ثاوية

أو يقول : والجسم كالثوب ـ على روحه ينزع ـ اذ يخلق أو يتسخ

(١) القطط (٢) الجولق ، ومعنى البيت : « فابعدى عنها القطط حتى لا تؤذيها ، ودعيها تأكل من الغرارة ماتشاء (٣) يقول: «اذ روح جارنا تقمصت فى حمار شيخ بلدتنا فاصبح ذلك الجار يمشى فى الحزام والرسن ـ بعد ان كان يختال فى حلته! »

ويصور لهم الرأي الفاسد أباجير[1] ومشبهات ، فيسلكون في الترهات

مذهب التناسخ في الهند

وحكى عن بعض ملوك الهند ، وكان شابا حسنا ، أنه جدر ، فنظر إلى وجهه فى المرآة وقد تغير ، فاحرق نفسه ، وقال . « اريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هذه »

* * *

وحدثني قوم من الفقهاء ، ما هم في الحكاية بكاذبين ، ولا فى أسباب التحمل جاذبين . أنهم كانوا فى بلاد محمود ، وكان معه جماعة من الهند ، قد وثق بصفائهم ، يفيض عليهم الاعطية لوفائهم ، ويكونون أقرب الجند اليه اذا حل أو ارتحل ، وإن رجلا منهم سافر في جيش جهزه ، فجاء خبره أنه قد هلك ، فجمعت امرأته لها حطباً كثيراً ، وأوقدت ناراً عظيمة ، واقتحمتها ، والناس ينظرون ، وكان ذلك الخبر باطلا ، فلما قدم الزوج ، أوقد له ناراً عظيمة ليحرق نفسه ، حتى يلحق بصاحبته ، فاجتمع خلق كثير للنظر اليه ، وأن أصحابه من الهند كانوا يجيئون اليه فيوصونه بأشياء الى أمواتهم[2] هذا الى أبيه ، وهذا الى أخيه ، وجاءه انسان منهم بوردة

---

(١) أعاجيب (جمع « بجر ») قال الشاعر :

فقلت لها : « بجرا » فقالت مجيبتى : « أتعجب من هذا ـ ولى زوج اخر »

(٢) اشار أبو العلاء الى ذلك فى لزومياته فقال

تقول الهند : « آدم كان قنا لنا ، فسرى اليه مخبوه »

أولئك يحرقون الميت نسكا ويشعره لباقا ملهبوه

ونذكر بهذه المناسبة ، قوله فى تحبيذ ما يفعله الهند من احراق موتاهم .

وقال ,, أعط هذه فلانا ،، يعنى ميتاً له ، وقذف نفسه في النار

وحدث من شاهد احراقهم نفوسهم ، أنهم اذا لدغتهم النار ، أرادوا الخروج ، فيدفعهم من حضر اليها بالعصي والخشب ، فلا إله إلا الله ، لقد جئتم شيئا إدا .

فاعجب لتحريق اهل الهند ميتهم وذاك أروح من طول التباريح
ان حرقوه فما يخشون من ضبع تسرى اليه ولا خفى وتطريح
والنار اطيب من كافور ميتنا غباً ، واذهب للنكراء والريح

والخفى نبش الميت ، وقوله :

حرق الهند من يموت فمازا روه فى روحة ولا تفكير
واستراحوا من ضغطة القبر ميتا وسؤال لمنكر ونكير

وقوله :

اذا حرق الهندى بالنار نفسه فلم يبق نحض للتراب ولا عظم
فهل هو خاش من نكير ومنكر وضغطة قبر ـ لا يقوم لها نظم

بل لقد وصل اكباره واعجابه بذلك الى حد ان فضله على الجهاد ، فقال :

يحرق نفسه الهندى خوفا ويقصر ـ دون ـ فعل ـ الجهاد
وما فعلته عباد النصارى ولا شرعية صبئوا وهادوا
يقرب نفسه للنار عمدا وذلك منه دين واجتهاد

وهنا يحن أبو العلاء الى الموت حنينا ـ كما هى عادته الغالبة عليه . فيقول .

وموت المرء نوم طال حدا عليه وكل عيشته سهاد

وهو اسلوب آخر من فكرته التى اودعها فى داليته الخالدة فى قوله

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسـ ـم فيها والعيش مثل الساد

(ارجع الى ص ١٣ — ١٩)

ابن هانىء الأندلسى

وفى الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده ، يتوصل به الى الدنيا الفانية [1] ، وهى أغدر من الوَرْهاء الزانية ، وكان لهم فى المغرب رجل

---

(١) ردد ابو العلاء هذا المعنى بصور شتى فى كثير من أشعاره ، وأنحى على تلك الطائفة التى اتخذت الدين وسيلة للكسب والنفع ، وقد أتينا ببضع أمثلة من ذلك فى ص « ٢٥ » من هذا الجزء وفى (ص « ٢٦ » منه) واليك نخبة من أبدع ما نختاره له فى ذلك :

بخيفة الله تعبدتنا ... وأنت عين الظالم اللاهى
تأمرنا بالزهد فى هذه الد ... نيا وما همك الا هى
تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى ... ولكن لكم فيها التكاثر والكبر
وليس حبر بمبدع فى محابته ... ان سام نفعاً بأخبار تقولها
وانما رام نسوانا نزوجها ... - بما افتراه - واموالا تمولها
لا يخدعنك داع قام فى ملأ ... بخطبة زان معناها وطولها
فما العظات، وإن راعت، سوى حيل ... من ذى مقال على ناس تحولها

رويدك قد غررت - وأنت حر - ... بصاحب حيلة يعط النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ... ويشربها - على عمد - مساء
يقول : « لقد غدوت بلا كساء » ... وفى لذاتها رهن الكساء
طلب الخسائس وارتقى فى منبر ... يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة ... أمسى يمثل فى النفوس ذهولها
وكم من فقيه حابط فى ضلالة ... وحجته فيها الكتاب المنزل
وقارئكم يرجو بتطريبه الغنى ... فاقض - كما غنى ليكسب - زلزل

«وزلزل» هذا موسيقى يضرب به المثل فى اتقان العود

يعرف بابن هانئ وكان من شعرائهم المجيدين ، فكان يغلو في مدح «المعز» غلوا عظيما ، حتى قال فيه ـ وقد نزل بموضع يقال له رقادة ـ :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالى وكل شيء سواه ريح

عودة الى الحلاج

وأدل رتب الحلاج أن يكون شعوذيا لا ثاقب الفهم ، على أن الصوفية تعظمه منهم طائفة . ما هي لأمره شايفه

ابن ابى عون

واما ابن أبي عون ، فانه أخذ في لون بعد لون ، وقد تجد الرجل حاذقا في الصناعة ، بايغا في النظر والحجة ، فاذا رجع الى الديانة التي كانه غير مقتاد ، وانما يتبع ما يعتاد ، والتأله موجود في الغرائز . ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه من الأكابر . فيلبث معه ، والذين يسكنون في العوامع ، والمتعبدون في الجوامع . يأخذون ما هم عليه . كتنقل الخبر عن المخبر لا يميزون المصدق من المكذب . فلو أن بعضهم ألفى أسرة من المجوس لخرج مجوسيا [1] ، واذا جعل المعقول هاديا ، نفع بربه صاديا . ولكن أين

---

(١) من أبدع ما نختاره لابى العلاء . في هذا المعنى قوله في لزومياته

وينشأ ناشيء الفتيان مما على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجا ، ولكن يعلمه التدين أقربوه
وطفل الفارسي ، له ولاة بأفعال التحنس دربوه

من يصبر على أحكام العقل [1] ؟ هيهات ! عدم ذلك فى من تطلع عليه

(١) لو شئنا الاستشهاد بكل ما كتبه ابو العلاء فى النعي على التقليد، والحث على تمجيد العقل ، والاعتزاز به ، والدعوة الى تحكيمه فى كل شيء ، لملأنا صحفاً عديدة ، لا يسمح لنا بها هذا الكتاب الصغير ، فلنجتزئ من ذلك بالقليل عن الكثير ، واليك ما نختاره له :

اللب قطب ، والامور له رحى فيه تدبر كلها وتدار

العقل يوضح للنسـ ـك منهجا فاحذ حذوه

وليس يظلم قلب وفيه للب جذوه

كذب الناس لا امام سوى العقـ ـل مشيرا فى صبحه والمساء

فاذا ما أطعته جلب الرحـ ـمة عند المسير والارساء

صدقت يا عقل، فليبعد اخو سفه صاغ الاحاديث افكا أو تأولها

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

نكذب العقل فى تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق

وينفر عقلى مغضبا ان تركته سدى ، واتبعت الشافعى ومالكا

والعقل يعجب والشرائع كلها خبر يقلد لم يقسه قائس

. . . . . .

واذا الرئاسة لم تعن بسياسة عقلية ، حطىء الصواب السائس

قالوا ، فمانوا ، فلما أن حدوتهم الى القياس . ابانوا العجز واعترفوا

واذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه

لا يدينون بالعقول ، ولكن بأباطيل زخرف كذبوه

وجاءتنا شرائع كل قوم على آثار شيء رتبوه

الشمس ، ومن ضمنه فى الرمم رمس، إلاأن يشذ رجل في الامم ، يُخص

وغـير بعضهم أقوال بعض وأبطلت النهى ما أوجبوه
فاحذر ولا تدع الامور مضاعة وانظـر بقلب مفكـر متبصر
تفكر فقد حـار هذا الدليل وما يكشف النهج غير الفكـر
الفكر حبل متى يمسك على طرف منه ، ينط بالثريا ذلك الطرف
فكروا فى الامور يكشف لـكم بعـ ض الذى تجهلون بالتفكير
فكرى انت ربمـا هدى الانـ سان للمشكـلات بالتفكير

اذا كان التقى بلها وعيا فأعيار المذلة أتقياء
وما تريك مرائى العين صادقـة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر
وجـدت أباك مفتريا حـديثا فانت على مقص الشيخ تفرى
عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليداً كما وجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يبالون من غى لمن سجـدوا
فى كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك : « ربى واحد أحد »
جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأنا ولـكن فيهـا ضعف اسناد
فشاور العقل ، واترك غيره هدرا فالعقل خـير مشير ضمه النـادى

اذا رجع الحصيف الى حجـاه تهاون بالمـذاهب وازدراها
نخـذ منهـا بمـا أداه لب ولا يغمسك جهل فى صراها
وهت أديانهم من كل وجه فهل عقل يشد بهـا عراها
هل صح قول من الحاكى فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار ؟
أما العقول فآلت انه كذب والعقل غرس ـ له بالصدق اثمـار

من فضل بعـضهم

ربما اقينا من نظر في كتب الحكماء وتبع بعض آثار القدماء ، فألفيناه يستحسن قبيح الأمور ، ان قدر على فظيع ارتكبه ، وان عرف واجبا نكبه ، كأن العالم سعوا له فى إفقاد ، فهو يعتقد شر اعتقاد ، وان أودع وديعة خان ، وإن سئل عن شهادة مان ، وان وصف لعاليل صفة ، فما يحفل أقتله أم ضاعف عليه الأثقال ، بل غرضه فيما يكتسب ، وهو الى الحكمة منتسب . ورب زارٍ بالجهالة على أهل ملة ، وعلته الباطنة أدهى علة

وإن البشر لكما جاء فى الكتاب العزيز « كل حزب بما لديهم فرحون [1] » ويحضر المجالس اناس طاغون كأنهم للرشد باغون ، واولئك ـ علم الله ـ أصحاب البدع والمكر

كم متظاهر باعتزال ، يزعم أن ربه على الذرة يخلد فى النار [2] ، بله الدرهم وبله الدينار . وما ينفك يحتقب من المآثم عظائم ، وينهمك على العهار والفسق ، قد صير الجدل مصيدة ، ينظم به من الغى قصيدة [3] .

* * *

وحدثت عن إمام لهم ، يوقر ويتبع . أنه كان اذا جلس فى الشرب ،

---

(١) وفى هذا المعنى يقول ابو العلاء : « وعند كل فريق أنهم ثقفوا » (٣) ذكر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته فقال :

« جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا أن الصغائر تجنى الخلد فى النار

وقال :

لقد أفلحوا ان كان لم يجر عندهم من الوزر إلا تركهم للمآزر :

(٣) ارجع الى ص «٦٢» من هذا الجزء

ودارت عليهم المسكرة ، وجاءه القدح ، شربه . فاستوفاه ، وأشهد من حضره على التوبة .

عبد الله بن ميمون القداح

والشيعة يزعمون أن عبدالله بن ميمون القداح ، وهو من «باهلة» كان من علية أصحاب «جعفر بن محمد» وروى عنه شيئا كثيرا ، ثم ارتد بعد ذلك ، فحدثني بعض شيوخهم أنهم يروون عنه . ويقولون « حدثنا عبد الله ابن ميمون القداح ، قبل أن يرتد » ويروون له :

هات اسقني الخمرة يا سنبر ... فليس عندى أنني أنشر
أما ترى الشيعة فى فتنة ... يغرها من دينها « جعفر »
قد كنت مغرورا به برهة ... ثم بدا لى خبر بستر

ومما ينسب اليه :

مشيت الى جعفر حقبة ... فألفيته خادعا يخلب
يجر العلاء إلى نفسه ... وكل إلى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقا ... لما ظل مقتبلكم يسحب
ولا غض منكم قتيل ، ولا ... سما « عمر فوقكم يخطب

والحلولية قريبة من مذهب التناسخ . وحدثت عن رجل من رؤساء المنجمين [1] من أهل « حران » . أقام فى بلدنا زمانا ، فخرج مرة مع قوم

---

(١) رأى أبى العلاء فى المنجمين

لأبى العلاء فى المنجمين والعرافين أسوء رأى فهو يحتقرهم ويتنقصهم فى كل مناسبة تعن له . وقد بلغ من سخطه عليهم أن تمنى لو كان له من الأيد والسلطان ما يمكنه من

يتنزهون ، فمر والثور يكرب ، فقال لأصحابه: «لاشك فى أن هذا الثور

استئصال شأفتهم ، فقال

لو كان لى امر يطاوع لم يشن ظهر الطريق ـ يد الحياة ـ منجم
يغدو بزخرفة يحاول مكسبا فيدير اسطرلابه ويرجم
وقفت به الورهاء ـ وهى كأنها عند الوقوف ـ على عرين تهجم
سألته عن زوج لها متغير ، فاهتاج يكتب بالرقان (١) ويعجم
ويقول: «ماسمك واسم أمك ، اننى بالظن عما فى الغيوب مترجم»
يولى بأن الجن تطرق بيته وله يدين فصيحها والاعجم

الى آخر تلك القصيدة الجميلة التى احيل القارئ اليها فى « الجزء الثانى من اللزوميات ص ٢٣٣ » وأحب ان لاتفوته

وله فى المنجمين والعرافين أشعار كثيرة ، نختار منها النخبة التالية :

سألت منجمها عن الطفل الذى فى المهد : « كم هو عائش من دهره ؟ »
فأجابها : « مائة » ليأخذ درهما وأتى الحمام وليدها فى شهره

كأن منجم الاقوام أعمى لديه الصحف يقرؤها بامس

قطع الطريق بمهمه ونظيره فى المصر فعل منجم ومعزم

شكا الاذى . فسهرت الليل ، وابتكرت به الفتاة الى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضية عنه النذور لعل الله يبقيه
وأنت أرشد منها حين تحمله الى الطبيب يداويه ويسقيه

ارجع الى (ج ١) ص « ١٩١ »

لقد بكرت فى خفها وازارها لتسأل بالامر الضرير المنجما
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من اهل الحجا فيرجما
يقول : « غدا أو بعده وقع دية يكون غياثا أن تجود وتسجما »

(١) ارعفران

رجل كان يعرف بخلف ، بحران » وجعل يصيح به : « يا خلف » فيتفق أن يخور ذلك الثور ، فيقول لاصحابه : « ألا ترون صحة ما خبرتكم به ؟ »

*
* *

وحكى لى عن رجل آخر ممن يقول بالتناسخ أنه قال : رأيت فى النوم أبى وهو يقول : « أبنى إن روحي قد نقلت الى جمل أعور فى قطار فلان، وإنى قد اشتهيت بطيخة » فأخذت بطيخة ، وسألت عن ذلك القطار ، فوجدت فيه جملا أعور ، فدنوت منه بالبطيخة ، فأخذها أخذ مريد

ويوهم جهال المحلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذى فوق صدره لجاء بمين أو أرَم وجمجما
كأن سحابا عممهم بضلالة فليس إلى يوم القيامة منجما
اذا قال أهل اللب « حان انسفاره » تداركه غيم سواه فأنجما
فان كنت قد وفقت، فانج بوحدة وخل البرايا من فصيح واعجما
ولا تك ـ فيما يكره القوم ـ ساعيا ولا مسرجافي نصر غيرك ملجما

وانظر الى قوله فى السخط على المنجمات فى قصيدة « المرأة » التى ذكرناها فى الجزء الاول فى ص « ٢٩٥ » :

وأبعدهن عن ربات مكر سواحر يفتدين معرمات
يقلن نهيج الغياب ، حتى يجيئوا بالركاب مرممات
ونعطف هاجر الخلان، كيما يزول عن السجايا المسئمات
وجمع طوائف العمار ، سهل علينا بالجوالب موذمات
زعمن بأن فى مغنى فقير كنوزا للملوك مصممات
فلا يدخلن دارك باختيار فتبد الفيتهن مدممات
وان خالسن غرتك ارتقابا فحق أن يرحن مشممات

مُشْتَه ، أفلا يرى مولاى الشيخ إلى ما رمى به هذا البشر من سوء التمييز !

ابن الراوندى (١)

وأما ابن الراوندى، فلم يكن الى المصاحة بمهدى ، وأما تاجه فلا يصالح

---

(١) ابن الراوندى

اسمه احمد بن يحى بن اسحق الراوندى ، كنيته أبو الحسين، وهو ينسب الى «راوند» احدى قرى اصبهان ، مات فى سن الاربعين فى سنة ٢٤٥ هـ . ، وكان أبوه يهوديا فاسلم ، فكان اليهود يقولون للمسلمين : « ليفسدن عليكم هذا كتابكم ، كما أفسد أبوه التوراة علينا »

وكان من متكلمى المعتزلة، وانفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه فى كتبهم؛ قالوا : « ولم يكن فى زمانه أحذق منه بالكلام ، ولا أعرف بدقيقه وجليله » وكان يلازم أهل الالحاد ، فاذا عوتب فى ذلك ، ادعى أنه يريد معرفة مذاهبهم ، ثم صار بعد ملحدا زنديقاً

وأوجز ما نعته به ، أنه رجل لايستقر على مبدأ ، وليس للمبادئ قيمة عنده ، فقد كان مسلماً ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يصنف « كتاب البصيرة » لليهود ، رداً على الاسلام ، نظير أربعمائة درهم دفعوها له ، فلما قبض المال ، رام نقضه ، فلما أعطوه مائة درهم أخرى عدل عن ذلك ، وكان من متكلمى المعتزلة ، فلم يمنعه ذلك من أن يؤلف كتابه الذى سماه « فضيحة المعتزلة » وقد ألف كتباً أخرى متناقضة ولكن أكثرها كان الحاديا شديد الجرأة ، وقد نيفت كتبه على المائة (ذكر ابن القارح أهمها وأشنعها فى رسالته) وكان له ذوق خاص فى تسمية كتبه ، فقد أطلق اسم « الزمردة » على كتابه الذى دلل فيه على فساد الرسالة والرسل ، وازدرى فيه بالنبوات ، وعلل هذه التسمية بأن من خاصية الزمرد ، أن الحية ـ اذا نظرت اليه ـ ذابت وسالت عيناها ، كما يحدث لاخصامه حين يقرأون كتابه ،

أن يكون نعلا ، وهل تاجه [1] إلا كما قالت الكاهنة : « أف وتف » ما تاجه بتاج ملك ، ولكن دُعِيَ بالمهلك . ولا اتخذ من الذهب ، وسوف يصور من اللهب

وأما « الدامغ [2] » فما إخاله دمغ إلا من ألفه ، بأس من نسب إلى « راوند » إنما هتك قميصه ، وأبان للناظر خميصه

القرآن الكريم

وأجمع ملحد ومهتد ، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد - صلى الله

ومما زعمه فيه قوله : " انا نجد فى كلام « اكثم بن صيفى » شيئًا أحسن من « انا أعطيناك الكوثر » وان الانبياء كانوا يستعبدون الناس بالطلاسم الخ "

وقد ذكر فى كتبه ، الاخرى آراء لا تقل عن هذه جرأة وشناعة ، على الانبياء والدين ، فقد طعن على النبى (ص .) فى كتابه (المريد) وطعن على القرآن ، وعاب ، نظمه فى كتابه (الدامغ) ومما وردفيه قوله : " ان الله - سبحانه وتعالى - ليس عنده من الدواء الا القتل . فعل العدو الحنق الغضوب ، فما حاجته الى كتاب ورسول ... وقال فى وصف الجنة « فيها انهار من لبن لم يتغير طعمه » وهو الحليب ، ولا يكاد يشتهيه الا الجائع . وذكر العسل ، ولا يطلب صرفا ، والزنجبيل ، وليس من لذيذ الا شربة ، والسندس يفترش ولا يلبس ، وكذلك الاستبرق ، وهو الغليظ من الديباج ، ومن تخايل انه فى الجنة يلبس هذا الغليظ ، ويشرب الحليب والزنجبيل ، صار كعروس الاكراد والنبط : "

وسيمر بك طرف من أخباره فى فصل آخر من هذا الكتاب ، وفى رسالة ابن القارح ، فلنكتف بهذا القدر ، على ايجازه الآن

(١) يعنى كتاب « التاج » الذى ألفه ابن الراوندى يحتج فيه لقدم العالم .

(٢) هو اسم الكتاب الذى ألفه ، وطعن فيه على نظم القرآن

عليه وسلم ـ كتاب بهر بالإعجاز ولقى عدوّه بالإرْجاز ، ما حذى على مثال ولا أشبه غريب الامثال ، ما هو بالقصيد الموزون ولا الرجز ، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ، وجاء كالشمس ، لوفهمه الهضب لتصدع وإن الآية منه ـ أو بعض الآية ـ لتعترض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ فى جنح غسق ، والزهرة البادية فى جدوب! فتبارك الله أحسن الخالقين !

* * *

وأما « القضيب [١] » فمن عمله أخسر صفقة من « قضيب [٢] » ، وخير له من إنشائه ، لو ركب « قضيبا [٣] » ـ عند عشائه [٤] ـ فقذفت به على قتاد [٥] ونزعت المفاصل كنزع الأوتاد :

إن الطرماح يهجونى لأشتمه هيهات! هيهات! عيلت ـ دونه ـ القضبْ

* * *

وأما « الفريد [٦] » فأفرده من كل خليل ، وألبسه ـ فى الأبد ـ بُرْدَ الذليل ، ومن انفرد بعزه لوقارته ، فان « فريد » ذلك الجاحد ينفرد لحقارته ، كأنه الأجرب ـ واذا جذلت الغانية بفريد النظام ، فهو من

---

(١) هو اسم الكتاب الذى الفه فى اثبات أن الله محدث وأنه كان غير عالم ، حتى خلق لنفسه علما . (٢) هو تمار بالبحرين يضرب به المثل ، وحكايته أنه اشترى « قوصرة تمر » وكان فيها بدرة ، فلحقه صاحبها واستردها واستخرج البدرة منها ، فانتحر قضيب لهفة عليها . (٣) ناقة لم تُرض (٤) عند سدول الظلام ـ أى ليلا (٥) شجر صلب له شوك كالابر (٦) هو اسم الكتاب الذى ألفه فى الطعن على النبى (ص)

قلادة مآثم عظام. وأما « المرجان » فاذا قيل إنه صغار اللؤلؤ فمعاذ الله أن يكون « مرجانه [١] » صغار حصى، بل أخس من أن يذكر

ابن الرومى [٢]

وأما « ابن الرومى » فهو أحد من يقال : « إن أدبه كان أكثر من

---

(١) « المرجان » هو اسم الكتاب الذى ألفه فى احتلاف أهل الاسلام

(٢) ترجمة ابن الرومى ـ ٢٢١ ـ ٢٨٣ هـ

اسمه على بن العباس بن جريح (أوجور جيس) مولى عبيد الله بن عيسى ابن جعفر ، وكنيته أبو الحسن ، ويعرف بابن الرومى (نسبة الى أصله)

كانت ولادته بعد طلوع فجر يوم الاربعاء لليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ فى الموضع المعروف « بالعقبة ودرب الختلية » فى دار بازاء قصر عيسى بن جعفر ـ ووفاته يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ٢٨٣ فدفنوه فى مقبرة البستان ـ وكانت ولادته وموته فى بغداد .

وثم يكون « ابن الرومى » قد اظلته تسع خلافات . وهى : ٩٩ خلافات « المعتصم [١] » و « الواثق [٢] » و « المتوكل [٣] » و « المنتصر [٤] » و « المستعين [٥] » و « المعتز [٦] » و « المهتدى [٧] » و « المعتمد [٨] » و « المعتضد [٩] » ،، وكان شعره غير مرتب ـ رواه « المتنبى » عنه ، ثم جمعه « أبو بكر الصولى » ورتبه على الحروف، وجمعه « أبو الطيب » وراق بن عبدوس ، وزاد فى جميع النسخ نحو ألف بيت

« سبب موته »

وصل « ابن الرومي » فى الهجو والتصرف بمعانيه وأساليبه ، والافحاش فى ذلك الى حد خافه معه معاصروه ، فلم يكد يسلم أحد من الذعر منه حتى الوزير

---

(١) « ٢١٨ — ٢٢٧ هـ » (٢) « ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ » (٣) « ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ »
(٤) « ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ » (٥) « ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ » (٦) « ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ »
(٧) « ٢٥٥ — ٢٥٦ هـ » (٨) « ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ » (٩) « ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ »

عقله » وكان يتعاطى علم الفلسفة

الشرس المستبد « أبو الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب » وزير الامام « المعتضد » مع ما اشتهر به هذا الوزير من الاستبداد والجرأة على سفك الدماء :

اشتهر ابن الرومى بالجرأة على هجاء الأمراء ـ بلا هوادة ولا رفق ـ واشتهر الوزير « القاسم » بالميل الى الانتقام وعدم التردد فى قتل من يناوئه أو يناصبه العداء ، وكان يخشى فلتات لسان ابن الرومى ويعلم أنه لن يسلم من هجائه أو سلاطته يوماً ما ، فلما هجاه « ابن الرومى » استشاط غضبا ، وفكر فى قتله انتقاما منه فدس اليه « ابن فراس » ـ وهو واحد ممن أفحش « ابن الرومى » فى هجائهم ـ فأطعمه « خشكنانه » مسمومة ـ وهو فى مجلس « القاسم » . فلما أكلها «ابن الرومى » أحس بالسم ، وأدرك المكيدة ، فقام ، فقال له الوزير : « الى أين تذهب ؟ » فأجابه : « الى الموضع الذى بعثتنى اليه ! » فقال له : «سلم على والدى» فقال : « ما طريقي على النار » وخرج من مجلسه وأتى منزله ،وأقام أياما ـ ومات

« دقة ابن الرومى واسترساله فى المعانى »

« يغوص على المعانى الدقيقة فيستخرجها من مكامنها و يبرزها فى أحسن صورة : ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ، ولا يبقى ميه بقية » « ابن خلكان »

قال أحد كتاب الانجليز : « ليست الصعوبة التى تعترض الكاتب او الشاعر هى فى أن يكتب أو ينظم فى موضوع ما ، ولكنها فى أن يقول كل ما يعنيه بالضبط فى هذا الموضوع : »

وأبدع الشاعر العربى فى صوغ هذا المعنى فقال :

وفضلنى فى القول والشعر أننى أقول على علم . وأعلم ما أعنى

***

هذا فى اعتقادنا هو أكبر فارق جوهرى بين الكاتب المجيد او الشاعر الفحل المطبوع ـ وبقية الكتاب أو الشعراء الكثيرين ؛ وهذا الفارق هو أول ما نبحث

« مطابقة مع أبى بكر السراج »

واستعار من « أبى بكر السراج » كتابا ، فتقاضاه به « أبو بكر »

عنه حين نشرع فى تعرف شاعر أو كاتب قديم أو حديث ، وهذا الفارق هو أول ميزة تبدهك من شعر ابن الرومى الحافل بالميزات الكثيرة

***

الدقة التامة فى أداء المعنى الذى قام بنفسه ، واستقصاؤه وتحديد ما يعنيه بالضبط والغوص على أخفى خفاياه والنمشي معه الى أبعد مداه وسبر أقصى أغواره واظهار كل ناحية من مناحيه المختلفة فى كلام واضح جلى ، والتوفيق فى الاهتداء الى كل ذلك والوصول اليه بلا كلفة ولا تعمّل ، فهو فطن ـ دقيق فى فطنته ـ الى كل ماتتطلبه صوره الشعرية من الالوان والاصباغ بحكم ظلالها وأضواءها ويلائم بين ألوانها واصباغها ، حتى اذا انتهى منها وجدت ما قام بذهنه من المعانى ماثلا أمامك فى صورة ناطقة مكتملة الحياة ، مشرقة بها فى كل جزء من أجزائها

***

ذلك هو اول ما يسترعى انتباهك حين تقرأ شعر ابن الرومى ، وهو من الصفات التى لازمته فصارت له كالطبع ، واتسم بها تفكيره فأصبح نثره (على ندرة على وصلنا منه) مشتركا مع شعره فى هذه الميزة الباهرة كما ترى ذلك فى القطعة التالية :

« ترفع عن ظلمى ـ ان كنت بريئا ، وتفضل بالعفو ـ ان كنت مسيئا ، فو الله انى لأطلب العفو من ذنب لم أجنه ، والتمس الاقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا وأزداد تذللا ، وانا اعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول افسادها ، واسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق . والسلام »

فانظر مليا ، هل ترى فرقا بين شعره ونثره فى طريقة الأداء ونوع التفكير ؟

فقال له « ابن الرومى » : « لو كان « المشترى » حدثا ، لكان عجولا »

مذهبه

والبغداديون يدّعون أنه « متشيع » ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية (١)

وهل تتردد لحظة واحدة فى الحكم على هذا الكلام بانه شعر لاينقصه الا الوزن والقافية ؟

هذه فى نظرنا هى أكبر ميزات ابن الرومى واجدرها بالذكر ، فلنكتف بها فى هذه الالمامة الآن، تاركين الكلام على بقية النقط الاخرى مثل تأثر «المتنبى» بشعره ، وفساد عصره واثر ذلك فى نفسه ، ووجوه الشبه والاختلاف بين تفكيره وتفكير «المعرى» والعنت الذى لقيه من معاصريه وأثر ذلك فى شعره واقذاعه فى الهجاء ورأيه فى الجبر والاختيار ، وعثور جده وشراهته وتهمه فى الأكل، واطالته القصائد مع المحافظة على الاجادة والأمن من السقط والتكرير — فى اكثر الأحيان — وشيوع الخاطر فى قصيده الخ الخ — الى رسالة خاصة نعدها عن ابن الرومى ونرجو ان نوفق فى اظهارها قريبا

(١) هى قصيدته الخالدة التى رثى بها « أبا الحسين يحيى بن عمر بن حسين ابن زيد بن على » وأبدع فيها ماشاء له ابداعه وافتنانه وعبقريته الفذة ، التى يراها القارئ ممثلة فى كل بيت من أبياتها ، والقصيدة هى :

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى ، مستقيم وأعوج
ألا أيهذا الناس طال ضريركم ... بآل رسول الله، فاخشوا ، أو ارتجوا
أكل أوان للنبى محمد ... قتيل زكى — بالدماء مضرج
تبيعون فيه الدين شر أئمة ... فلله دين الله ، قد كاد يمرج!
لقد ألحجوكم فى حبائل فتنة ، ... ولملحجوكم فى الحبائل ألحج

***

. . . . . .

بنى المصطفى ! كم يأكل الناس شلوكم ؟ لبلوا كم — عما قليل — مُفرَّج
أما فيهم راع لحق نبيه ؟ ولا خائف من ربه يتحرّج
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم كأن كتاب الله فيهم ممجمَج
ألا خاب من أنساه منكم نصيبه متاع من الدنيا قليل وزبرِج

***

أبعد المكنى بالحسين شهيدكم تضيء مصابيح السماء فتُسرج
لنا وعلينا — لا عليه ولا له — تسحسح اسراب الدموع وتنسج
وكيف نبكى فائزاً عند ربه له فى جنان الخلد عيش مخرفج (١)
وقد نال فى الدنيا سناء وصيتة وقام مقاما لم يقمه مزلّج
فان لايكن حيا لدينا ، فانه لدى الله حى ، فى الجنان مزوج
وكنا نرجيه لكشف عماية بأمثاله أمثالها تتبلج
فساهمنا ذو العرش فى ابن نبيه ففاز به ؛ والله أعلى وأفلج
مضى ، ومضى الفرّاط من أهل بيته يؤم بهم ورد المنية منهج
فأصبحت ، لاهم أبسؤونى بذكره (٢) كما قال قبلى فى البسوء مؤرّج (٣)
ولا هو لسانى أساى عليهم بلى : هاجه . والشجو للشجو أهيج
أبيت — اذا نام الخلى — كأنما تبطن أجفانى سَيال وعوسج

***

أيحيى العلى : لهفى لذكراك لهفة يباشر مكواها الفؤاد فينضج
أحين تراءتك العيون جلاءها وأقذاءها ، أضحت مراثيك تنسج :
بنفسى — وان فات الفداء بك الردى — محاسنك اللائى تمج فتنهج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح فى أثوابها تتبرج ؟
سلام وريحان وروح ورحمة عليك ، وممدود من الظل سَجسج

(١) واسع (٢) اسوى بذكره (٣) مغر

. . . . . .

ولا برح القاع الذى أنت جاره ... يرف عليه الاقحوان المفلج
ويا أسفى ألا ترد تحية ... سوى أرج من طيب رمسك يأرج
ألا انما ناح الحمائم بعدما ... ثويت، وكانت ـ قبل ذلك ـ تهزج !

***

أذم اليك العين أن دموعها ... تداعى بنار، الحزن ـ حين توهج
وأحمدها ـ لو كفكفت من غروبها ... عليك، وخلت لاعج الحزن يلعج
وليس البكا أن تسفح العين، إنما ... أحر البكا أين البكاء المولج
أتمنعنى عينى عليك بدمعة ... وأنت لأذيال الروامس مدرج !
فانى ـ الى أن يدفن القلب داءه ـ ... ليقتلنى الداء الدفين، لأحوج
عفاء على دار ظعنت لغيرها ... فليس بها للصالحين معرج

***

ألا أيها المستبشرون بيومه ... أظلت عليكم غمة لاتفرج
أكلكم أمسى ـ اطمأن مهاده ... بأن رسول الله فى القبر مزعج !
فلا تشمتوا وليخسأ المرء منكم ... بوجه ـ كأن اللون منه اليرندج
فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم ... ـ غداة التقى الجمعان ـ والخيل تمعج
لأعطى يد العانى، أو ارتد هاربا ... كما ارتد بالقاع الظليم المهيّج
ولكنه ما زال يغشى بنحره ... شبا الحرب حتى قال ذو الجهل: «أهوج»
وحاش له من تلكم، غير أنه ... أبى خطة الامر الذى هو أسمج
وأين به عن ذاك؟ لا أين ـ انه ... اليه بعرقيه الزكيين محرَج
كأنى به ـ كالليث يحمى عرينه ... وأشباله ـ لايزدهيه المهجهج
كذأب «على» فى المواطن قبله ... أبى حسن، والغصن من حيث يخرج
كأنى أراه ـ والرماح تنوشه ... شوارع كالاشطان تدلى وتخلج
كأنى أراه إذ هوى عن جواده ... وعفر بالترب الجبين المشجج

. . . . . .

خب به جسما الى الارض ـ اذ هوى ـ وحب بها روحا ـ الى الله تعرُج
أأرديتم « يحيى » ولم يطو أيطل طرادا ، ولم يدبر من الخيل منسج
تأتت لكم فيه منى السوء هينة ؛ وذاك لكم بالغى أغرى وأهيج
تهدّون فى طغيانكم وضلالكم ويستدرج المغرور منكم فيدرج
أجنوا بنى العباس : من شنآنكم وأوكوا على ما فى العياب، وأشرجوا
وخلوا ولاة السوء منكم وغيرهم فأحرِ بهم أن يغرقوا حيث لججوا
نظارِ لكم أن يرجع الحق راجع الى أهله يوما ، فتشجوا كما شُجوا
على حين لا عذرى لمعتذريكم ولا لكم من حجة الله مخرج
فلا تلقحوا الآن الضغائن بينكم وبينهم ، ان اللواقح تنتج
غررتم ، لئن صدقتم أن حالة تدوم لكم ، والدهر لو بان أخرج
لعل لهم فى منطوى الغيب ثائرا سيسمو لكم ، والصبح فى الليل مولج
بمجر تضيق الارض من زفراته له زجل(١) ينفى الوحوش وهزمج(٢)
اذا شيم بالابصار أبرق بيضه بوارق لا يستطيعهن المحمج
توامضه شمس الضحى ، فكأنما يرى البحر فى أعراضه يتموج
له وقدة بين السماء وبيضه ، تلم بها الطير العوافى فتهرج
اذا كرّ فى أعراضه الطرف أعرضت حَراح تحار العين فيها فتحرج
يؤيده ركنان ثبتان ، رَجلة وخيل ـ كارسال الجراد ـ وأوضح
عليها رجال كالليوث بسالة بأمثالها ينمى الأبىّ فيمنح
تدانوا ، فما للمقع فيهم خصاصة تنفسه عن خيلهم ـ حين تربح
فلو حصبتهم بانفصاء سحابة لظل عليهم حصبها يتدحرج
كأن الزجاج الهذميات فيهم فتيل بأطراف الرديني مسرج
يود الذى لاقوه أن سلاحه هنالك خلخال عليه ودُملج

(١) جلبة (٢) اصوات مختلفه

. . . . . .

فيدرك ثأر الله أنصار دينه ، ولله أوس آخرون وخزرج
ويقضى أمام الحق فيكم قضاءه تماماً ، وما كل الحوامل تخدج
وتظعن ـ خوف السبي ـ بعد اقامة ظعائن ، لم يضرب عليهن هودج
وقد كان فى « يحيى » مذمّر خطة وناتجها ، لو كان للأمر مَنتج
هنالكم يشفى تبيّغ جهلكم اذا ظلت الاعناق بالسيف تودج
محضتكم نصحى ، وانى بعدها لأعنق فيما ساءكم وأهملج

***

مه ! لاتعادوا غرة البغى بينكم كما يتعادى شعلة النار عَرفج
أفى الحق أن يمسوا خماصاً ، وأنتم يكاد اخوكم بطنة يتبعج
تمشون مختالين فى حجراتكم ثقال الخطى ـ أكفالكم تترجرج
وليدهم بادى الضوى ، ووليدكم من الريف ريان العظام خدلجّ
تذودونهم عن حوضهم بسيوفكم ويشرع فيه أرتبيل وأبلج
فقد ألجمتهم خيفة القتل عنكم وبالقوم حاج فى الحيازم حوّج

***

بنفسى الألى كظتهم حسراتكم فقد علزوا ـ قبل المهات ـ وحشرحوا
ولم تقنعوا ـ حتى استثارت قبورهم كلابكم منها بهيم ودَيْرَج
وغيرتموهم بالسواد ؛ ولم يزل من العرب الامحاض أخضر أدعج
ولكنكم زرق ، يزين وجوهكم بنى الروم : ألوان من الروم نعّج

***

لئن لم تكن بالهاشميين عاهة لما شكلكم ـ تالله ـ الا المعهلج
بآية أن لا يبرح المرء منكم يُكَتْ على حر الجبين فيعفج
يبيت ـ اذا الصهباء روت مشاشه ـ يساوره عِلج من الروم أعلج

وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء ، ومن أولع بالطيرة ، وإنما

فيطعنه فى « سبة السوء » طعنة يقوم لها من تحته وهو أفحج (١)
لذاك بنى العباس ؟ يصبر مثلكم ، ويصبر للموت الكمى المدجج
فهل عاهة الا كهذى ، وانكم لأكذب مسؤول عن الحق يلهج
فلا تجلسوا وسط المجالس حسرا ولا تركبوا إلا ركائب نحدح

***

أبى الله الا أن يطيبوا وتخبثوا وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
وان كنتم منهم وكان أبوكم أباهم ، فان الصفو بالرنق يمزج

***

لعمرى لقد أغرى القلوب « ابن طاهر » ببغضائكم ما دامت الريح تنأج
سعى لكم مسعاة سوء ذميمة سعى مثلها مستكره الرجل أعرج
فلن تعدموا — ماحنت النيب — فتنة تحش كما حش الحريق المؤجج
وقد بدأت — لو تزجرون بريحها — بوائجها من كل أوب تبوّج

***

بنى مصعب : ما للمى وأهله عدو سواكم — أفصحوا أوفلجلجوا
دماء بنى عباسكم وعليهم لكم كدماء الترك والروم تهرج
يلى سفكها العوران والعرج منكم ، وغوغاؤكم — جهلا بذلك — تبهج
وما بكم أن تنصروا أولياءكم ولكن هنات فى القلوب تنجنج
ولو أمكنتكم فى الفريقين فرصة ، لقد بينت أشياء تلوى وتجنج
إذن لاستقدتم منهما وترفارس ، وان وليا كم فالوشائج أوشج
أبى أن تحبوهم — يد الدهر — ذكركم ليالى لا ينفك منكم متوج

***

وإنى على الاسلام منكم لخائف بوائق شتى ، بابها الآن مرتج

---

(١) الا ترى الى ابن الرومى لا يحجم عن الافحاش حتى فى مقام الرثاء !!!

هي شرٌّ متعجَّل ، وللأنفس أجل مؤجَّل (١) ، وكل ذلك حذر من.

وفى الحزم أن يستدرج الناس أمركم وحبلهم مستحكم العقد مدمج

***

نظارِ فإن الله طالب وتره بنى مصعب ! لن يسبق الله مدلج
لعل قلوبا قد أطلتم غليلها ستظفر منكم بالشفاء ، فتثلج

(١) الطيرة والتشاؤم

أبو العلاء متشائم شديد التشاؤم ، بل هو من أشد من عرفناهم تشاؤماً ؛ ولكنه ـ مع تشاؤمه الذى لا يقف عند حد ـ ليس من جماعة المتطيرين ، بل هو أبعد من عرفناهم عن التطير

وانما نعنى بالتشاؤم ذلك المذهب الذى يسميه الافرنج (Pessimisme) ونريد أن نسميه بالعربية سخطا . ونسمى أصحابه ساخطين ، وهو مذهب جماعة المتبرمين بالعالم ، الذين لا يرون فيه الا شرا مستطيراً ، لا يستطيعون دفعه ، ولا أمل لهم فى ازالته أو تحسينه ، ولا ينظرون اليه ، الا بمنظار شديد السواد . وعلى العكس من ذلك مذهب الرضى ويسميه الافرنج (Optimisme) وهو مذهب من يحسنون الظن بالأيام ، وينظرون الى العالم بمنظار رائق ناصع البياض ، فيرون كل ما فيه يدعو الى الغبطة ، ويرونه سائراً فى طريق التقدم والكمال ، وفى هذا مجلبة رضاهم وارتياحهم ، وقد أشبع ماكس نورداو ، جماعة الساخطين ، سخرية وتعنيفا ، ورماهم بنقص فى عقولهم ، فى مقالته التى كتبها عن السخط والرضى (Pessimisme & Optimisme) فى كتابه الفلسفى الذى سماه (الغرائب Paradoxes) وهى مقالة ، غاية فى الامتاع واللذة ، نحب ان لا تفوت القارئ ، وقد لخصتها مجلة البيان فى سنتها الرابعة فى عددها الثانى والثالث ، تلخيصا لا يخلو من الفائدة والنفع ، لمن لا تتاح له قراءتها كاملة فى الكتب الافرنجية ، وفى كتاب (الفصول) للأستاذ العقاد فصل ممتع ـ على ايجازه ـ فى (ص ٥ و ٦) عن التشاؤم ، وفيه رد مقنع ، على من يعيبون على الساخطين سخطهم ونقمتهم على الحياة

الموت الذى هو رِبق فى أعناق الحيوان ـ حُكْم لقاؤه فى كل أوان !

أما الطيرة (Manvais Augure) ، ونقضيها الفأل ـ أو التيمن (Bon Augure) ، فمذهب آخر يختلف فى نظرنا عن مذهب السخط والرضى كل الاختلاف ، فقد يكون الانسان ساخطا أو راضيا ولكنه لا يتطير ولا يتفاءل ، وعلى العكس من من ذلك ، قد يكون من المتطيرين والمتفائلين ، ولكنه فى الوقت نفسه ساخط على الحياة أو راض عنها .

***

وانما الطيرة مذهب أساسه ربط الحوادث بغير أسبابها الحقيقية ، وتعليل النفس بما لا يفيد ، وترقب المناسبات والمصادفات . لاستنتاج شىء وهمى لا أساس له من الصحة ، ولا قيمة له ـ عند العقلاء ـ وانما يدعو اليها ، فى نظرنا ، عدم اطمئنان القلب ، وخفة العقل ، وربما لو رجع الانسان الى نفسه يسائلها فى اى ساعاتها تميل الى التعلل باسناد هذه الخرافات . لرأى ان ذلك كثيرا ما يحدث فى أوقات الهلع والذعر من جراء مصاب فادح مذهل ، تملك على الانسان قلبه ، وأطار لبه ، وحرمه طمأنينته ، فجعله كالغريق يتلمس أنفه الأسباب وأقلها غناء ، ليمنقذ نفسه من الهلاك ، فأما فى ساعات اطمئنانه فقلما يأبه لذلك . اللهم الا ان كان من ذلك النوع الذى أصبح له المطير ديدنا وطبعا ، وهذا غير السخط الذى أساسه سوء الظن وشدة الحذر ، والنقمة على الحياة ، والمطير اليها من جانبها الأسود :

***

انظر الى تطير الامين ـ مثلا ـ حين حاصره «طاهر» ولم نكن سمعنا بتطيره من قبل ـ قال « ابراهيم بن المهدى » وكان حينئذ مع الامين :

« خرج الامين ذات ليلة يريد ان يتفرج من الضيق الذى هو فيه ، فصار الى قصر له بناحية «الخلد» ثم ارسل الى فحضرت عنده ، فقال : «ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر فى السماء وضوءه فى الماء على شاطئ «دجله» فهل لك فى الشرب ؟» فقلت : «شأنك» فشرب رطلا وسقانى آخر ، ثم غمزته ما كنت أعلم أنه يحبه ، فقال لى : «ما تقول فيمن يضرب عليك » فقلت : «ما أحوجنى اليه »

فدعا بجارية متقدمة عنده اسمها «ضعف» فتطيرت من اسمها ونحن فى تلك الحال

فقال لها : « غنى » فغنت بشعر الجعدى :

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأيسر جرما منك ضرج بالدم

فاشتد ذلك عليه وتطير منه ، وقال «غنى غير ذلك » فغنت :

أبكى فراقكم عينى فأرقها ان التفرق للأحباب بكاء

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا ـ وريب الدهر عدّاء

فقال لها : «لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غير هذا » فقالت « ما تغنيت الا ما ظننت أنك تحبه » ثم غنت آخر :

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك

ما اختلف الليل والنهار، وما دارت نجوم السماء فى الفلك

الا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه الى ملك

وملك ذى العرش دائم ابدا ليس بفان ولا بمشترك

***

فقال لها «قومى غضب الله عليك ولعنك» وكان له قدح من بلور حسن الصنعة، وكان موضوعا بين يديه ـ فعثرت الجارية به فكسرته ، فقال : « ويحك يا إبراهيم أما ترى ماجاءت هذه الجارية ثم ما كان من كسر القدح ، والله ما اظن أمرى الا قد قرب »فقلت : « بديم الله ملكك ويعز سلطانك ويكبت عدوك » فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتا : « قضى الامر الذى فيه تستفتيان »

فقال يا ابراهيم أما سمعت ما سمعت . قلت ما سمعت شيئا ،وكنت قد سمعت ، قال تسمع حسا ، فدنوت من الشط فلم أر شيئا ـ ثم عاودنا الحديث، فعاد الصوت بمثله ، فقام من مجلسه مغتما الى مجلسه بالمدينة

قال : « فما مضى الا ليلة او ليلتان حتى قتل »

فانظر الى هذه الحكاية المحزنة وتأمل قليلا ، ألست ترى أن ضعف نفسيهما وحده هو السبب الأكبر فى كل هذه الاستنتاجات وتمثل كل ماحدث فى تلك الليلة المروعة قد حدث فى ليلة أنس وطرب بل فى ليلة عادية ـ ان شئت ـ أكانا يهتمان به كل هذا الاهتمام ؟

. . . . . .

وهذا الروع الذى أحسه ابراهيم المهدى ـ حين سمع اسم الجارية « ضعف » هل كان يحس مثله ـ اذا تبدل الموقف وكان انتصارا وفوزا ـ أو لم تكن هذه الجارية متقدمة عند الامين ؟ فكيف لم يتطير باسمها من قبل هذه المرة ؟

وهل تحسبها غنت الا ما حسبت أن مولاها يحبه ـ وكم غنته ـ هى أو غيرها ـ مثل هذه الابيات فطرب وانتخى . ومن يدرى فربما كان الأمين يميل الى هذا النوع من الشعر المشجى ، وكان هذا الميل مغريا للجارية على غناء تلك الابيات ! وتمثل الامين عاقب مسيئاً بالقتل ـ على جرم فرط منه ثم ندم شىء من الندم ـ وإنه لكذلك ـ إذ غنته هذه الجارية نفسها هذا البيت بعينه :

كليب لعمرى كان اكثر ناصرا وأيسر حرما منك ضرج بالدم

ألم يكن فيه حينئذ راحة يثلج لها فؤاده . وتمثل الجارية تغنيه هذا البيت قبل ان يقتل ذلك المسىء وهو يفكر فى ذلك ، أكان يتطير منه ـ اذ ذاك ـ وأى أثر يكون له فى نفسه حينئذ من سماعه ، ألا يكون فيه اغراء بقتل ذاك المسىء

* * *

وتمثل البيتين الآخرين قد غنتهما الجارية فى موقف غير هذا ، فى موقف غرام مثلا ، فى ساعة يفكر فيها الامين فى معشوق له ، مات ولم ينعم به طويلا ، فكيف يكون أثرهما فى نفسه . وكيف يتمثل قولها : « إن التفرق للاحباب بكاء ؟ » ولكن تغير الموقف فتغير المعنى

واعكس الآية ، فتمثل الأمين ـ فى مكان المأمون ـ وانه قد أوشك أن ينتصر على أخيه وأنه قد سمع الابيات الاخيرة وهو يحاصر مدينته ، فأى أثر يتركه فى نفسه قولها :

« ما اختلف الليل والنهار وما دارت نجوم السماء فى الفلك
الا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه الى ملك ! »

وهكذا غير الظروف وتمثل آثار تلك الابيات فى نفسيهما تجدها مختلفة يصل احتلافها الى مسافة ما بين الضد والضد احيانا

ثم ماذا فى هذه الجملة التى غمت الامين « قضى الامر الذى فيه تستفتيان » ألم يكن

. . . . . .

فيها متأول حسن ـ لو شاء! ألم يسمعها عقب دعاءله بدوام ملكه وإعزاز سلطانه وكبت عدوه ، فإذا قضى هذا الأمر فقد تم له ما أراد

ولكن اخوان هذه الخليقة ـ كما يقول ابو العلاء ـ لا يحملون الاشياء الواردة على الحقيقة !

ومن أجمل ما رووه عن التطير والتفاؤل قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « ثلاثة لا يسلم منهن أحد ـ الطيرة والظن والحسد ـ »، قيل له : فما المخرج منهن يا رسول الله ؟

قال: « اذا تطيرت فلا ترجع ، واذا ظننت فلا تحقق ، واذا حسدت فلا تبغ »

***

اذا أقررنا ذلك ، سهل علينا أن ندرك ، كيف كان أبو العلاء ساخطا ولم يكن متطيراً .

أما «ابن الرومى» فربما لم يكن شديد السخط على الحياة . ولكنه كان ـ على الرغم من ذلك ـ اماما من أئمة المتطيرين ، وسيمر بك فى هذا الفصل وفى رسالة ابن القارح ما يزيدك اقتناعا بطيرته ، وحسبك أن تعلم أنه كان لا يلبس ثيابه الا بعد أن يتعوذ ، فاذا وصل الى الباب نظر من خلال ثقب المفتاح . فاذا رأى ذلك الاحدب الذى تعود مضايقته ، جالسا ، جبن فلم يخرج ، وخلع ثيابه ثانية ، وقد عرف « ابن الرومى » كيف ينتقم منه ويثأر لنفسه منه ، ببيتيه اللذين وسمه بهما آخر الابد ، وهما قوله :

«قصرت أخادعه ، وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

ولابن الرومى ـ فى تطيره ـ أخبار شتى ، منها أن أبا الحسن الاخفش ، غلام المبرد ، كان كثيراً ما يقرع بابه ، فاذا رد عليه ابن الرومى مستفسراً ، أجابه «مرة ابن حنظلة » فيتطير من ذلك ولا يجسر على الخروج بقية يومه وقد هجاه فى ديوانه مراراً هجاء مؤلما مقذعا .

. . . . . .

ولما كان هذا المقام أضيق من أن يحتمل شيئاً من الاسهاب فى تفصيل هذه النزعات وتحليلها والمقارنة بينها ، فانا نكتفى بهذا القدر على ايجازه — ونشير الى رأى أبى العلاء فى مذهب المتطيرين والمتفائلين ، وتهكمه اللاذع بأصحابه وسخريته الشديدة منهم ، علاوة على ما ترى فى هذا الفصل من حججه الباهرة وبراهينه القوية التى دلل بها على فساد ذلك المذهب ، ثم نتبعها بمختارة تبين لك نزعة ابن الرومى الى التطير ، واليك نخبة من كلام أبى العلاء فى ذلك :

نخبة من شعر أبى العلاء فى الطيرة

تروم قياسا للحوادث ضلة ... وتلك أصول ليس يجمعها الحصر

تعرض للطير السوانح زاجرا ... أمالك من عقل — يكفك — زاجر

أغربانك السحم استقلت مع الضحى ... سوانح ؟ أم مرت حمائمك الورق ؟

لا تفرحن بفال — ان سمعت به — ... ولا تطير . اذا ما ناعب نعبا

فالخطب أفظع من سراء تأملها ... والأمر أيسر من أن تضمر الرعبا

آليت لا يدرى بما هو كائن ... متفائل بالامر أو متطير

كالدار صبحها سوى سكانها ... غثووا بها ، وتحمل المتدير

زجر الغراب تطيراً ، وتقبضه ... ديك لاهل الدار أبيض أفرق

شاهدت قبرة نخفت تطيرا ... ما كل ميت — لا أبا لك — يقبر

لا يتطير بناعب أحد ... فكل ما شاهد الفتى طبره

وما طير اليمين بمبهجاتى ... فأخشى الهم من طير الشمال

وقد سمى المرء « الهزبر » تفاؤلا ... وليس بباق فى الليالى هزبرها

وما أسر لتعشير الغراب أسى ... ولا أبكى خليطا حل نشارا

ولا توهمت أنثى الأنجم امرأة ... ولا ظننت سهيلا كان عشارا

. . . . . .

أى لا أضمر حزناً اذا سمعت الغراب يصيح عشرة أصوات متتابعة ولا أبكى جمعاً ذهب الى ذلك البلد المسمى « نشارا » ولا أتوهم أن الزهرة امرأة ، كما يفعل العرب ، ولا أن سهيلا كان عشارا باليمن

وهل لحق التثريب سكان يثرب من الناس ؟ لا ، بل فى الرجال غباء
وذو نجب ـ ان كان ما قيل صادقا ـ فما فيه الا معشر نجباء

وانظر الى سخريته الدقيقة فى قوله :

رآنى فى الكرى رجل ، كأنى ـ من الذهب ـ اتخذت غشاء رأسى
« قلنسوة ـ خصصت بها ـ نضارا كهرمز ، أو كملك أولى خراس
فقلت ـ معبرا : ـ « ذهب ذهابى وتلك نباهة لى ـ فى اندراسى »
. . . . . .
أقمت ـ وكان بعض الحزم يوما ـ لركب السفن أن تلقى المراسى

نخبة مختارة

من شعر ابن الرومى فى الطيرة والفال

والى القارئ نخبة مختارة من شعر ابن الرومى تبين منزعه واعتقاده فى الطيرة والفأل

لا تهاون بطيرة أيها النظـ ـار ، وأعلم بأنها عنوان
قف ـ اذا طيرة تلقتك وانظر واستمع ـ ثم ـ ما يقول الزمان :
قلما غاب من أمورك عنوا ن مبين وللزمان لسان (١)
. . . . . .
لا تصدق عن النبيين ، إلا بحديث ـ يلوح فيه البيان

(١) ومن قول ابن الرومى : « الفأل لسان الزمان . والطيرة عنوان الحدثان » قال ابن رشيق : « وكان ابن الرومى كثير الطيرة . ربما اقام المدة الطويلة لا يتصرف ـ تطيرا بسوء مايراه ويسمعه ـ حتى ان بعض اخوانه من الامراء اعتقده واعلم بحاله فى الطيرة صنع اليه خادما اسمه اقبال ليتفاءل به . فلما احد اهدى له لركوب . قال للخادم : « انصرف الى مولاك فأنت ناقص ، ومكوس اسمك « لا بقا » وابن الرومى القائل : « الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان . وله فيه احتجاجات وشعر كثير »

. . . . . .

قد أتى عن نبينا حبه الفأ ل ، مضيئاً بذلك البرهان
فدع الهزل والتضاحك بالطيـ رة ، فالنصح مثمن مجّان
أترى من يرى البشير بشيرا يمترى فى النذير ، ياوسنان(١)

***

خبر الله أن مشأمة كا نت لقوم ، وخبر القرن
أفزور الحديث تقبل ، أم ما قاله ذو الجلال والفرقان

وقد تفاءلت له ـ زاجرا كنيته ، لا زاجرا ثعلبا
انى تأملت له كنيـة ـ اذا بدا مقلوبها ـ أعجبا
يصوغها العكس « أبا سابع » وذاك فأل لم يعد معطبا
بل ذاك فأل ضامن سبعة مثل الصقور استشرفت أرنبا
يأتون من صلب فتى ماجد لا كذب الله ولا خيبا
وقد أتاه منهم واحد فليتنظر ستة غيبا
فى مدة تغمرها نعمة يجعلها الله له ترتبا
حتى نراه جالساً بينهم أجل من رضوى ومن كبكبا
كالبدر وافى الارض فى نوره بين نجوم سبعة ، فاحتبى
يعدى على الدهر ـ اذا ما اعتدى ويؤمن الناس ـ اذا استرهبا

تفاءلت والفأل لى معجب فقلت ـ وما أنا بالعابث ـ :
« أبو حسن وأبو مثله كنيا أبى حسن ثالث ! »

---

(١) كان ابن الرومى يحتج للطيرة ويقول : « ان النبى (ص) كان يحب الفال ويكره الطيرة : أفتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطير من ضده » ويقول : ان النبى (ص) مر برجل ـ وهو يرحل ناقة ويقول : « يا ملعونة » فقال : « لا يصحبنا ملعون » وان عليا ـ رضى الله عنه ـ كان لا يغزو غزاة ـ والقمر فى العقرب ! »

. . . . . .

أحذر أهل الارض شؤم ابن طالب ... فما زال مشحوذا على من يصاحب
وقد جربت منه على « آل مخلد » ... تجارب . ليست مثلهن تجارب
أزيرق مشئوم ، أحيمر قاشر ... لأصحابه ، نحس على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخ — الا وفعله ... لفعل شبيه السوء — شبه مقارب
أعوذ بعز الله من أن يضمنى ... وإياه فى الارض البسيطة جانب
شبيه « قدار » بل « قدار » شبيهه ... وان قيل : « كليم » وان قيل : « كاتب »

***

وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب ... لعينيه لون السيف — والسيف قاضب
ويدعى أبوه « طالبا » وكفاكم ... به طيرة — أن المنية طالب
ألا فاهربوا من « طالب » و « ابن طالب » ... فمن طالب مثليهما ، طار هارب !

قل لغراب البين — تبا له — ... اذا تعاطى القول فى مذهب (١)
أو رفع الصوت — بشدوله ... مثل سقيط الدمق الاشهب
« اسكت ، لحاك الله — من قائل ... أجنف عن قصد الهوى أنكب
لا تنطقن الدهر فى محفل ... واغضض على الكثكث والأثلب
أنت غراب — خير أحواله ... ما لزم الصمت — ولم يَنْعب
فاترك نعيبا — شؤمه راجع ... عليك — يحدوك الى معطب
يابين ، أنت البين فى عزة ... بين غراب البين والاخطب (٢)
ينتقل الناس وأحوالهم ... وأنت فى الدنيا من الرتب (٣)
اذا جلا عن منزل أهله ... فأنت فى أوتاده الرسب
أنت أثافيه وآناؤه ... يشعب أهلوه — ولم تشعب

والقصيدة طويلة يمكن الرجوع اليها فى ديوان ابن الرومى « فى ص٤٤٧ ج٣ »

---

(١) من ابدع ما قرأناه فى انصاف الغراب وتبرئته من تهمة التفريق ، قول بعض الشعراء :

والناس يلحون « غرا ... ب البين » لما جهلوا
وهل « غراب البين » الا ناقة . او جمل
وما على ظهر « غرا ... ب البين » تطوى الرحل ! »

(٢) الصرد (٣) جمع راتب وهو الثابت

وكذلك قالت العامة : « الإرجاف أول الكون[١] : »

ويقال : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمثل بهذا البيت ـ ولم يتممه ـ :

تفاءل بما تهوى يكن ، فلقلما يقال لشيء : «كان» إلا تحققا[٢]

ومهما ذهب اليه اللبيب ، فالخير فى هذه الدنيا قليل جداً[٣] والشر يزيد عليه باجزاء ليست بالمحصاة ، وقال علقمة

ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته ، لا بد مشئوم

* * *

وكان «ابن الرومى» معروفا بالتطير ، ومن ذا الذى أجرى على التخيّر ، وقد جاءت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبار كثيرة ، تدل على كراهة الاسم الذى ليس بحسن ، مثل مرة وشهاب !

* * *

---

(١) وقريب من ذلك قول ابن الرومى فى نونيته الجميلة :

واذا ما ظننت شراً فحققه رب شر ـ يقينه مظنونه

وكان « ابن الرومى » يقول : « ان الطيرة موجودة فى الطباع ، فاشئة فيها ، وان بعض الناس — هى فى طباعهم أظهر منها فى بعض ، وان الاكثر فى الناس — اذا لقى ما يكرهه — قال : « على وجه من أصبحت اليوم ! »

(٢) ارجع الى ص «٨٢» من هذا الجزء (٣) وفى ذلك يقول أبو العلاء :

نعم ثم جزء من ألوف كثيرة من الخير ، والاحزاء ـ بعد ـ شرور

على أنه أنكر حتى هذا الجزء القليل جداً من الخير ـ فى مكان آخر فقال :

لا أزعم الخير مازجا كدراً بل مزعمى أن كله كدر

ونحو من حكاية ابن الرومى التى حكاها الناجم [١] ما حكى عن امرأة من العرب أنها قالت للأخرى ،، سماني أبى « غاضية » وانما تلك نار ذات غضى ، وتزوجت من بنى جمرة رجلا كان اسمه « توربا » وانما ذلك تراب ، فشمتت بى الاتراب ، وكان اسم أمه « سَوارة » فلم تزل تساورنى فى الخصام ،،

فقالت الاخرى : « لكن سمانى أبي « صافية » فصفوت ، وزوجنى من بنى سعد بن بكر ، فبكر على السعد ، واسم زوجى « محاسن » ـ جزى الصالحة ـ فقد حاسن وما لاسن ، واسم أبيه وقاف ـ رعاه الله ـ فقد وقف على خيره ، واسم أمه « راضية » رضيت أخلاق ، ولم تجنح الى طلاق ! »

* * *

وإذا كان الرجل خثار ما [٢] لم يزل فى الكثكث [٣] آرما ، ان رأى حمامة فرق من الحمام [٤] كما قال الطائى :

هن الحمام ـ فان كسرت عيافة [٥] من حائهن ـ فانهن حمام

وان آنس نعامة فما يأخذها من النعيم ، ويجعلها بالهلكة مثل الزعيم ! يقول من الفند [٦] : « أولها نعى » وإن نظر الى عصفور ، قال : « عصف مأكول الحوادث بوفور » فهو طول أبده فى عناء

* * *

ولهذه الطوية جعل ابن الرومى « جعفرا » من الجوع والفرار ، ولو هدى

---

(١) هي الحكاية التى رواها عثمان الناجم عن ابن الرومى وذكرها ابن القارح فى رسالته (٢) متطيراً (٣) التراب

(٤) الهلاك (٥) العيافة زجر الطير (٦) الخرف أو العجز

صرفه الى النهر الجرار لأن الجعفر النهر الكثير الماء ، ولكن إخوان هذه الخليقة لا يحملون الاشياء الواردة على الحقيقة (١)

وأراد بعضهم السفر فى أول السنة فقال : « ان سافرت فى المحرم ، كنت جديراً أن أحرم ، وان رحلت فى صفر ، خشيت على يدى ان تصفر » فأخر سفره الى شهر ربيع ، فلما سافر مرض فلم يحظ بطائل ، فقال : « ظننته من ربيع الرياض ، فاذا هو من ربع (٢) الامراض »

* * *

وأما اعداده الماء المثلوج فتعلة ، وما تنقع بالحيل غلة ، وتقريبه الخنجر تحزر من جان ، وكم تنقض الاقضية ما بنى البان ، ورب رجل يحتفر له قبرا بالشام ، ثم يجشمه القدر بعيد الإجشام ، فيموت باليمن أو بالهند ،

---

(١) ومما يروونه عن تطير ابن الرومى ماحكاه عنه « على بن عبدالله بن المسيب قال : دخل علي ، يوم المهرجان ، وقد اهدى الى عدة من جوارى القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء ، وعجوز فى احدى عينيها نكتة فتطير من ذلك ، ولم يظهر الى أمره ؛ وأقام باقى يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى من بعض السطوح فماتت ، وجفاه القاسم الوزير فجعل سبب ذلك المغنيتين ، وكتب الي :

ايها المتحفى بحول وعور ... اين كانت عنك الوجوه الحسان؟
لقد لعمرى ركبت أمرا مهيبا ... ساءنا فيك ايها الخلصان
فتحك المهرجان بالحول والعو ... ر ، ارانا ما اعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحرّ ... ة مصبوغة بها الاكفان
وتجافى مؤمل لى خليل ... لج فيه الجفاء والهجران

الي آخر القصيدة (ارجع الى ص «٨٨» ج «٢»)

(٢) حمى تنوب يوما وتترك يومين ، وذلك أنها تأخذ فى الايام الثلاثة ثمانى عشرة ساعة ـ وهى ربع ساعات تلك الايام الثلاثة ـ فسميت كذلك باعتبار الساعات

وما تدري نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير

وكما أن النفس جهلت مدفن عظامها ، فهى الجاهلة لنظامها ، كم ظان أنه يهلك بسيف فهلك بحجر [١] وموقن أن شجبه يقدر على مهاد ، فألقته الأسل ببعض الوهاد

* * *

والبيتان اللذان رواهما الناجم عن ابن الرومى مقيدان ، وما علمت انه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيدا ، الا فى بيت واحد ، يتداوله رواة اللغة ، والبيت :

« كأن القوم عشوا لحم ضأن فهم نعجون [٢] قد مالت طلاهم »

وهذا البيت مؤسس ، والذى قاله ابن الرومى من غير تأسيس ، وما يدرى الناجم [٣] ـ ولعله بالفكر راجم ـ أفى الجنة حصل ذلك الشيخ أم فى السعير !

ابو تمام [٤]

وأما «أبو تمام» فما أمسك من الدين بزمام ، فان قذف في النار «حبيب» [٥] فما تغنى المدح ولا التشبيب !

---

(١) وهذا قريب من قوله :

بينا امرؤ يتوقى الذئب عن غرض أتاه ليث ـ على العلات ـ يفترس

(٢) مفردها « نعج » وهو السمين ، أو الذى أكل لحم الضأن حتى ثقل على قلبه (٣) يعنى أبا عثمان الناجم

(٤) ارجع الى ترجمته فى ص « ١٨٣ » ج « ١ » (١) هو أبو تمام

مناهة القصائد [1]

ولو أن القصائد لها علم وتأسف ؛ لأقامت عليه المدودتان اللتان فى أول ديوانه مأتما ، فناحتا عليه كابنتى لبيد ، وقالتا ما زعمه « الكلابى » فى قوله :

" وقولا: «هو الميت الذى لا حريمه أضاع، ولا خان الصديق ولا غدر»
الى الحول ، ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر "

وكأنى بهما ـ لو قضي ذلك ـ لاجتمعت اليهما المدودات ، كما تجتمع نساء من كل أوب ، ولو فعلن ذلك لبارتهن «البائيات» بمأتم أعظم رنينا ، واذا كان مأتم المدودات فى مائة ممن يسعدهن ويظاهر ، وجب أن يكون مأتم البائيات فى آلاف ، لان الباء طريق ركوب ، والمد فى القصائد سبيل منكوب ، وما نظمه على « التاء» فانه لا يعجز عن الإتيان ، وتجىء التائيتان فى حالك اللون ـ وان التاء لقليلة فى شعر العرب ـ الا أنهما تستعينان كلمة كثير :

« حبال السلامة اضحت رثاثا فسقيا لها ـ جددا أو رماثا»

وبأراجيز رؤبة [2] وما كان نحوها من القوافى المتكافة ، والأشعار المتعسفة ، ولهما ـ فيما نظم « ابن دريد » ـ اعوان

فأما الداليات والرائيات وما بني على الحروف الذلل ، كاللام والعين واللام

---

(١) تمثل أبو العلاء قصائد أبى تمام ذوات حية تندب صاحبها كما تمثل من قبل فى (ج ١ ص «١٢٤») أبيات لبيد الثلاثة قصورا فى الجنة

(٢) ارجع الى ترجمته فى ج ١ ص «٢٢٧»

وما جرى مجراهن،فلو اجتمع كل حيز منهن،لضاق عنهن الصدر والابراد، وزدن على ماذكر انه اجتمع فى جنازة «احمد بن حنبل» من النساء والرجال[1]

ويقال انه لم يجتمع فى الجاهلية ولا الاسلام جمع اكثر مما اجتمع فى موت احمد ، حرز الرجال بالف الف ، والنساء بستمائة الف ، والله العالم بيقين الاشياء !

وان كان «حبيب» ضيع صلواته ، فانه لضال ، لا يبلغ فيه كيد العداة ما بلغ من اهمال غداة ، واني لأضن بتلك الأوصال ، أن يظل جسدها وهو بالموقدة صال،لأنه صاحب طريقة مبتدعة.ومعان كاللؤلؤ يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار ، فليته كالجعدى[2] أو ليته لحق يزيد بن مهلهل فقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم - وطرح عنه ثوب الغبي!

المازيار

وأما « المازيار » فخلال بالسفه سيار ، وحسبه ما يتجرع من الحميم ،

---

(١) احمد بن حنبل
توفى ٢٤١ هـ

نشأته ببغداد اشتهر بحفظه وروايته للحديث وكان من أصحاب الشافعى ، صنف كتابه «المسند» وجمع فيه من الأحاديث مالم يتفق لغيره ، وكان ورعا حسن الوجه يخضب بالحناء خضبا خفيفا

وحدثت فى زمنه المسألة المشهورة وهى القول بخلق القرآن فدعى الى الموافقة عليها فلم يجب،فضرب وحبس

ورووا أنه لما مات حضر جنازته ثمانمائة الف رجل وستون الف امرأة

(٢) ارجع الى ترجمته فى ج (١) ص « ٧٩ »

ويحتمل من المقال الذميم ، وقد خلّد له فى الكتب ، ما يوجب لعنه الى يوم الدين

ابو مسلم الخراسانى

والعجب لأبي مسلم ، حطب لنار أكلته ، وقتل فى طاعة ولاة قتلته ، وليس بأول من دأب لسواه ، وأغواه الطمع ـ فيمن أغواه ـ وانما سهر لأم دفر [١] ، وتبع سرابا فى قفر ، فوجد ذنبه غير المغتفر عند صاحب الدولة « أبى جعفر [٢] »

*
* *

وكل ساع للفانية لا بد له من الندم ، فذمنا لها يحسب من الضلال ـ كما تمني القنع أخو الاقلال ، وهذه زيادة فى النصب ، وفاز بالسبق حائز القصب . يذمها على غير جناية ـ ولم تخص أحدا بعناية ـ بل أبناؤها فى المحن سواء لا تساعفهم الأهواء !

أعباء الفقير وأشجانه الفنى

فرب حامل حزمة عضيد [٣] ، يعجز ثمنها عن القوت ، ويكابد شظف

---

(١) الدنيا ـ وأبو العلاء يكنيها بهذه الكنية ، ومعناها « ام نتن » لنقمته عليها فهو لا يكاد يذكر الدنيا الا كناها بذلك .

(٢) انظر الى قول أبى العلاء فى ذلك ! فى لزومياته :

لو بعث المنصور ، نادى : « أيا مدينة التسليم ، لا تسلمى »
« قد سكن القفر « بنو هاشم » وانتقل الملك الى الديلم »
لو كنت أدرى أن عقباهم كذاك ، لم اقتل أبا مسلم »

(٣) الطريقة من النخل ـ أو النخلة التى لها جزع يتناول منه المتناول

عيش ممقوت ، يلج سُلاءً فى قدمه، ويخضبه الشائك بدمه ؛ وهو أقل أشجانا من الواثب على السرير. ينعم برشأٍ غرير يجمع له الذهب من غير حل، باعنات الامم ، وإذا ملأ بطنه من طعام[1] وسبح فى بحر من الترف ، فتلك النعم ولذاته تحدث لها أذاته ، يختلجه القدر على غفول ـ وغاية السفر الى قفول .

***

وما يدرى العاقل ـ إذا افتكر ـ أى الشخصين أفضل ؟ أريبٌ عُقِد عليه إكليل ، أم أرقش ظله فى المنكّ ظليل ، كلاهما بالغ آرابا ، وأحدهما يأكل ترابا ، والآخر يُعلَل بالراح ، ويُجتهد له فى الافراح

***

وما علمنا أن النسك موقيا ، ولا فى الأسباب الرافعة مُرقيا ـ والعالم بقدر عاملون ـ أخطأهم ما هم آملون ـ وما آمن أن تكون الآخرة بإرزاق[2]

---

(١) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

ساس الأنام شياطين مسلطة ... فى كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ... إن بات يشرب خمرا ـ وهو مبطان

(٢) الجد

ذكر أبو العلاء هذا المعنى على لسان أوس وطرفة فى (ص ٢٠٦ و٢٠٤ ج ١) وذكره فى مكان آخر فى لزومياته فقال :

والبخت فى الاولى أنال العلا ... وليس فى آخرة بخت
كذاك قالوا ، وأحاديثهم ... يبين فيها الجزل والشخت

وكرره فى قوله :

أأخشى عذاب الله ، والله عادل ... وقد عشت عيش المستضام المعذب
نعم ! ، انها الارزاق ، والمرء جاهل ... يهذب من دنياه ما لم يهذب

ولأبى العلاء أشعار أخرى كثيرة فى الجد ، نجتزىء منها بقوله :

على أن السر مغيب ، وكلنا - فى الملتمس - مخيّب ، والجاهل - وفوق

والسعد يدرك أقواما فيرفعهم وقد ينال الى أن يعبد الحجرا
وشرفت « ذات انواط » قبائلها ولم تباين - على علاتها - الشجرا
سيطلبنى رزق الذى لو طلبته لما زاد ، والدنيا حظوظ واقبال
لا تطلبن بآلة لك رتبة قلم الاديب ، بغير حظ ، مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما هذا له رمح ، وهذا اعزل
اذا صدق الجد افترى العم للفتى مكارم لا تحصى - وان كذب الخال

العم أى الجماعة ولا تكرى أى لاتنفد والخال المخيلة

موجز رأى الشعراء فى الجد

ونتهز هذه المناسبة فنذكر نخبة من آراء الشعراء فى الجد ، ويمكن القول بان آراءهم جميعاً ، تكاد تجمع على أنه حليف الغباء ، قال المتنبى :

هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يصير اليوم للبوم سيدا
وما الجمع بين الماء والنار فى يد بأصعب من أن أجمع الجد والفهما

وقال أبو تمام :

ينال الفتى من دهره ، وهو جاهل ويكدى الفتى من دهره - وهو عالم
ولو كانت الارزاق تأتى على الحجا اذن هلكت من جهلهن البهائم

وقال الضالى :

اذا جمعت بين امرئين صناعة فأحببت أن تدرى الذى هو أحذق
فلا تتفقد منهما غير ما جرت به لهما الارزاق حين تفرق
فحيث يكون الجهل فالرزق واسع وحيث يكون العلم فالرزق ضيق

وقال ابن وهبون:

وحيث ترى زند النجابة واريا فثم ترى زند السعادة كابيا

وقال ابن الخياط :

وما زال شؤم الحظ من كل طالب كفيلا ببعد المطلب المتدانى
وقد يحرم الجلد الحريص مرامه ويعطى مناه العاجز المتوانى

وقال المروزى الضرير

تنافى العقل والمال فما بينهما شكل
فعقل حيث لا مال ومال حيث لاعقل

وقال القاضى الفاضل

وزيادتى فى الحذق فهى زيادة فى نقص رزقى

وقال ابن سناء الملك

هو الجد خذه ان اردت مسلماً ولا تطلب التعليل فالأمر مبهم

ومما نختاره من شعر ابن الرومى فى « الجد » قوله :

عزت مطالب دنيا كل ذى أدب وهان مطلب دنيا الأحمق الخرق
وقدر الله فيها أن يذللها فهان مطلبها للجاهل الحمق
فليس ينفك ذو علم وتجربة من مأكل جشب ، أو مشرب رنق
وذو الجهالة منها فى بلهنية من مسمع حسن ، أو منظر أنق
تبارك العدل فيها ـ حين يقسمها بين البرية قسما غير متفق !

وقوله :

لاتعجبن لمرزوق أخى هوج حظا تخطى أصيل الرأى طرافا
فخالق الناس أعراء بلا وبر كاسى البهائم أوباراً وأصوافا
مازلت أعرف أهل العجز فى دعة لايكلفون ، وأهل الكيس كلافا
أما ترى هذه الانعام ـ قد كفيت فما تساوم بالاخفاف خفافا !

وقوله :

دنيا علا شأن الوضيع بها وهوى الرفيع ـ يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سلا ، ويطفو فوقه جفيفه

علي بن أبي طالب (١)

أما الذين يدعون في «علي» ـ عليه السلام ـ ما يدعون فتلك، ضلالة

وقوله :

رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذى شيم شريفه
كمثل البحر يغرق فيه حى ولا ينفك يطفو فيه جيفه
أو الميزان يحفظ كل واف ويرفع كل ذى زنة خفيفه

ونختم هذا المختار بتلك القصة الجميلة ، التي يحكيها لنا أحد الشعراء عن نفسه وهي:

ولما لمست الرزق فانجذ حبله ولم يصف لى من بحره العذب مشرب
خطبت الى الاعدام احدى بناته فزوجنيها الفقر ـ اذ جئت أخطب
فأولدتها الحزن الشقى ، فما له على الارض غيرى والد ، حين ينسب
فلو تهت فى البيداء ـ والليل مسبل على جناحيه ـ لما لاح كوكب
ولو خفت شراً فاستترت بظلة لأقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
ولو جاد انسان على بدرهم لرحت ـ الى رحلى وفى الكف عقرب
ولو يمطر الناس الدنانير ، لم يكن بشىء سوى الحصباء رأسى يحصب
وان يقترف ذنباً ببرقة مذنب فان برأسى ذلك الذنب يعصب
وان أر خيرا فى المنام ، فنازح وان أر شراً فهو منى مقرب
أمامى من الحرمان جيش عرمرم ومنه ورائى جحفل حين أركب

وسيمر بك قول ابن الراوندى فى الجد فى ص «١٠٤» من هذا الجزء

(١) للشيعة آراء مضحكة فى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ودعاوى لا تقف عند حد ، وقد ادعى قوم " أنه لم يقتل ، وانما الذى قتله «ابن ملجم» هو شيطان تصور للناس فى صورته ، أما على فقد صعد الى السماء ، وسينزل الى الدنيا وينتقم من أعدائه "، وهى دعوى تشبه ما ادعوه فى عيسى .

وادعى قوم ان الله أرسل جبريل الى على ، فذهب الى محمد خطأ ـ لشدة الشبه

قديمة ، وديمة من الغواية تتصل بها ديمة ، وقد روي أنه حرّق « عبد الله

بين النبي والامام على ، وهذه الفرقة تقول « العنوا صاحب الريش » اى جبريل

وادعى آخرون ان الله خلق محمداً ثم فوض اليه تدبير العالم وتدبيره، فهو الذي خلق العالم دون الله، ثم فوض محمد تدبير العالم الى على بن ابى طالب ، فهو المدبر الثالث

وزعم غيرهم ان عليا هو الله ، وشتموا محمدا ، وزعمو ان عليا بعثه ليثنى عنه فادعى الأمر لنفسه

ويدعى فيه قوم آخرون أن الرعد والبرق صوته ، ومن سمع منهم صوت الرعد قال : « عليك السلام يا أمير المؤمنين » وفى هذه الطائفة يقول ابو اسحق ابن سويد العامرى :

برئت من الخوارج لست منهم من الحجاج منهم وابن باب
ومن قوم ـ اذا ذكروا عليا ـ يردون السلام على السحاب

ولا يزال كثير من العامة يعتقد الى اليوم ان عليا راكب ناقة يطير بها فوق السحاب ، ومما نذكره بهذه المناسبة ـ على سبيل التندر والفكاهة ـ أن أحد أشياخنا المعممين ، المشتغلين بنظم الكلام . أراد ان يبتكر . ليقنع الناس بأنه غير عاكف على أساليب التفكير القديمة ، ويدفع عن نفسه معرة الجمود والجهل بحقيقة الشعر الحى ، الذى يحتاجه هذا العصر المملوء بالحياة والتفكير ، فحسب أن كل ما يتطلبه ذلك التطور الفكري العظيم ـ من الشاعر ـ هو ان يستبدل وصف النوق والجياد بوصف قطر البخار والطيارات ، فورط نفسه فى الاخذ بتلك الخرافة ، ودعا الله ان يهبه طيارة يسمو بها الى السحاب ، حتى اذا بلغه حظى بلقيا على بن أبى طالب ، فقال :

« فهب لى ذات اجنحة ، لعلى بها القى على السحب الاماما »

فلم يزدنا اقتناعا بجموده ، ولكنه وفق الى اثبات فنده وخرفه بهذا البيت الرائع !

***

وقد نسبو الى « على بن ابى طالب » علم الجفر ، وهو ما يطلقونه على العلم الاجمالى بلوح القضاء والقدر ، المحتوى على ما كان وما يكون كلياً وجزئيا ، وتدعى طائفة أنه

ابن سبأ » لما جاهر بذلك النبأ ! ـ واعتقاد « الكيسانيه » فى « محمد بن الحنيفية » عجيب ، لا يصدق بمثله نجيب !

وضع الحروف الهجائية فى جلد الجفر ، وأنه يمكن استخراج ـ ما يأتى به الغيب ـ منها بطريقة خاصة ، ويدعون ان هذا علم انفرد به آل البيت ومن ينتمى اليهم ، وأنهم يتوارثونه ، وادعى آخرون أن فهم اسرار هذا الجفر قاصر على المهدى المنتظر ، وأنه ـ دون غيره ـ يستطيع أن يفقه حقيقة ما فى هذا الكتاب الذى سموه بهذا الاسم لأن عليا كتبه حروفا متفرقة فى ورق مصبوغ من جلد البعير ، وقد اشتهر بين الناس ، لاحتوائه ما حدث للاولين والآخرين ، وفيه يقول ابو العلاء :

يقولون : « مسك الجفر » أودع حكمة اذا كتبت اطراسها ملأت جفرا (١) »

ولا يزال بعض العامة يعنى بهذه الخرافات وأشباهها ويأخذها بلا تدبر ولا روية : ونحو من هذه الخرافة ما يروونه عن الخضر ، وعن المسيح الدجال ، وغير ذلك من الترهات ، وقد وقف أبو العلاء قسما كبيرا من رسالة الغفران واللزوميات ، لمحاربة اشباه هـذه البدع ، والتشنيع على من يقولون بها ، وحسبنا ان نستدل بقوله منددا بتلك الخرافة التى يشيعونها عن الخضر :

يقول الغواة : « الخضر حى » عليهم عفاء ، نعم ليل من الفتن اخضرا
ولو صدقوا ما انفك فى شر حالة يعانى بها الاسفار ، أشعث مغبرا
جنى قائل بالمين ، يطلب ثروة ويعذر فيه من تكسب مضطرا

وقوله منددا بالمهدى المنتظر :

مجوسية وحنيفية ونصرانه ويهودية
تراقب مهديها أن يقو م فتلفى الى الحق مهدية

وقد ندد بظهوره فى مكان آخر فى (ص ٤٣) من هذا الجزء ، فليرجع اليها من شاء

---

(١) جلد الماعز

دعوى الربوبية

وقد بلغني أن رجلا بالبصرة يعرف « بشاباس » تزعم جماعة كثيرة أنه رب العزة ، وتجبى اليه الاموال الجمة ، ويحمل الى السلطان منها قسما وافراً ، ليكون ـ بما طلب ـ ظافراً ، وهو ساقط ، وحدثت عن امرأة بالكوفة يدعى لها مثل ذلك

رجعة الى ابن الراوندى

وقد سمعت من يخبر أن لابن الراوندى معاشر تذكر أن اللاهوت سكنه ويحترصون له فضائل ، يشهد الخالق وأهل المعقول ، ان كذبها غير مصقول ، وهو ـ في هذا ـ أحد الكفرة ، وقد أنشد له منشد :

قسمت بين الورى حظوظهم ... قسمة سكران بيّن الغلط

لو قسم الرزق هكذا رجل ... قلناله : « قد جننت فاستعط[1] »

ولو تمثل هذان البيتان ، كانا ـ في الإصر ـ يطولان أرمى مصر [2]

أبو جوف

وقد ظهر فى الضيعة المعروفة بالنيرب ، رجل يعرف بأبى جوف ،

---

(١) أى ادخل السعوط فى أنفك لتفيق ، والسعوط هو ما يدخل الانف من مسحوق دقيق التبغ ، ولابن الراوندى فى هذا المعنى ، بيتان آخران ، أقل شناعة من هذين البيتين ، وهما قوله

كم عاقل عاقل ، أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل ، تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الاوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

(٢) اى هرمى مصر

كان يدعى النبوة ، ويخبر بأخبار مضحكة ، وكان له قطن فى بيت ، فقال إن قطنى لايحترق ، وأمر ابنه أن يدني سراجا اليه ، فأخذ في القطن ، وصرخت النساء ، واجتمعت الجيرة .

* * *

وحدثنى من شاهده : أنه كان يكثر الضحك من غير موجب ؛ ولا عند حادث معجب ، فقيل له : « لم تضحك ؟ » فقال كلاما معناه : « ان الانسان ليفرح بهين قليل ، فكيف من وصل الى العطاء الجليل ! »

وكان بيِّن الجنون ، ليس خبله بالمكنون ، فاتبعه الأغبياء ، وكذب ماتقوله الانبياء ، حتى قتله والى حلب

عودة الى على بن أبى طالب

وبعض الشيعة يحدث أن «سليمان الفارسى» كان فى نفر جاءوا يطلبون على بن أبى طالب - سلام الله عليه - فلم يجدوه فى منزله ، فبينما هم كذلك ، جاءت بارقة تتبعها راعدة ، واذا على، «قد نزل على اجار البيت» فى يده سيف مخضوب بالدم ، فقال : « وقع شجار بين فئتين من الملائكة ، فصعدت لأصلح بينهما ! »

أفلا يرى هذه الامة كيف افتنت فى الضلالة ! كافتنان الربيع فى إخراج الكلأ ! وللكذب سوق ليست كالصدق !

* * *

وأما الذى ذكره من بلوغ السن ، فان الله سبحانه ـ خلق مقرا وشهداً ، ورغبة فى العاجلة وزهداً ، واذا اللبيب أنعم النظر لم ير الحياة الا تجذبه الى الضير ، صبح يتبسم وإمساء ، كأنهما سيدا ضراء ، والعمر ثلة ، وهما على السارح يغيران ، فيفنيان السائمة (١)

الزواج

وقد تحدث بعض طلاب الأدب ، أنه ذكر التزويج ـ يريد الخدمة فسرني ذلك ، لأنه دل على اقامة بالوطن ، وفى قربه الفرحة ، اذ كان الشجرة الوارف ظلالها فى الهواجر ، الطيب ثمرها للذائق والارج نسيمها للناشق وهو يعرف حكاية الخليل عن العرب « اذا بلغ الرجل الستين فاياه وايا الشواب ، ولكن النصف (٢) »

---

(١) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

هل الناس الا نظير السوام وآجالهم أسد تفترس

(٢) كرر أبو العلاء هذه النصيحة أكثر من مرة فى لزومياته ، فمن ذلك قوله:

اذا ما ابن ستين ضم الكعاب اليه فقد حلت البهله
هو الشيخ ، لم يرضه أهله ولم يرض فى فعله أهله
فلا يتزوج أخو الاربعين الا مجربة كهله
رأى الشيب فى عارضيه المسـ ـن ، فنعم القرين له الشهله

وقوله: اذا أنت زوجت العجوز ، على الصبا فأيامها صن عليك وصنبر

وقوله : كأنك ـ بعد خمسين استقلت لمولدك ـ البناء ، دنا ليهوى
وانك ـ ان تزوج بنت عشر ـ لأخيب صفقة من شيخ مهو

وحكاية « شيخ مهو » مشهورة ، لا نحب أن نذكرها هنا ، فليرجع اليها من شاء ، فى (ص ٣٥٨ جزء ٢) من اللزوميات

ولو نشط لهذه المأربة، لتنافست فيه العجز والمكتهلات، وهل هو إلا كما قال الأول:

«ياعز! هل لك فى شيخ فتى أبداً وقد يكون شباب غير فتيان»

فليس بأول من تزوج - على السن - عجوزاً كما قال:

«اذا ما أعرض الفتيات عنى فمن لى أن تساعفنى عجوز
كأن مجامع اللحيين منها - اذا حسرت عن العرنين - كوز»

ويروى للحارث بن حلزة، ولم أجده فى ديوانه:

«وقالوا ما نكحت؟ فقلت خيراً عجوزاً من عرينة ذات مال
نكحت كبيرة وغرمت مالا كذاك البيع مرتخص وغال[1]

وأعوذ بالله مما قاله الآخر

عجوز لو ان الماء يسقى بكفها لما تركتنا بالمياه نجوز

وما زالت العرب تحمد الحيزبون والشهلة. ولا تكره - مع الشرخ - الكهلة:

زواج النبى بخديجة

وقد تزوج النبى - صلى الله عليه وسلم - خديجة بنت خويلد، وهو شاب، وهي طاعنة فى السن، وقالت له أم سلمة ابنة أبى أمية: «يارسول الله اني امرأة قد كبرت وما أطيق الغيرة» فقال: أما قولك قد كبرت،

---

(١) نذكر بهذه المناسبة قول بعض الشعراء:

لاتنكحن عجوزا، ان دعيت لها وان حبيت على تنكيحها الذهبا
فان أتوك وقالوا إنها نصف فان اطيب نصفيها الذى ذهبا

فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فانى سوف أدعو الله أن يزيلها عنك

حاجة الشيخ الى الزواج

ولا أشك أنه قد استخدم فى مصر أصناف جوار ، ولولا أن أخا الكبرة يفتقر الى معين ، لكانت الحزامة أن يقتنع بورد المعين ، فهو يعرف قول القائل :

«ما العيش الا القفل والمفتاح وغرفة تخرقها الرياح »
« لا صخب فيها ولا صياح »

الخدم

وحدثني « ابن القنسرى » المقرئ — : « أنه سمعه يسأل عن غلام للخدمة ، وربما كان استخدام الأحرار يمنع من القرار ، فقد قال أبو عبادة :

أنا من « ياسر ويسر ونجح » لست من « عامر » ولا « عمار »
ما بأرض العراق ياقوم حر يفتديني من خدمة الأحرار ؟

وأن يخدم نفسه الوحيد ، خير من أن يلج بيته العبيد ، فطالما أحوجوا المالك الى ضرب .

« لؤم الخدم [1] »

ورب نازل من أهل الأدب فى خان — يخدمه صبى — هو من الرق حر — وفي خدمته السرق والضر ، اذا أرسله بالدراهم ليأتيه بالبطيخة — حين

---

(١) قال ابو العلاء

ومن عناء الليالى الى خادم ضغن ان يؤمر الامر يفعل غير ما أمرا

يكثر البطيخ ـ سرق فى السبيل القطع ، وانتهى فى الخيانة وتنطع ، ثم وقف بالبائع فغبنه ، فأخذ صغيرة من البطيخ ، ثم انصرف بها لاعباً ، فلم يزل يتلقف بها فى الطريق حتى كسرها ، فاختلط حبها بالحصباء .

ويجوز أن يحملها ـ فى حال السلامة ـ ويمضي ليسبح مع الفتيان ـ فاذا نزل فى الماء اختطفها بعض العَرِمة من الصبيان ، فأكلها ـ وهو يراه ـ لا يحفل بأديمها ـ إذ فراه

وقد يرسله بالغضارة [١] يلتمس لبنا ، فيقابل ـ من سوء الرأى غبنا ـ فاذا حصل فيها الهدبد [٢] ، فاذا هو على الصحراء متبلد ، وصارت الفخارة خزفا لا يُراد .

* * *

وأما أهل بلدى ـ حرسهم الله ـ فإذا كان الحظ قد أعطانى حسن ظن الغرباء ، فلا يمتنع أن يعطينى تلك المنزلة من الرهط القرباء ، ولكنهم معى كطلاب الخطبة من الأخرس

التوبة

وأما اشفاق الشيخ ، فتلك سجية الأنيس . لا يختص بها أخو الجبن عن الشجاع ، ومن القسوط تعرض بالقنوط « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »

* * *

كم من أديب شرب وطرب ثم تاب ، فقد يضل الدليل فى ضوء القمر ،

---

(١) القصعة (٢) اللبن

ثم يهديه الله ، وكم استنقذ من اللج غريق فسلم

الفضيل بن عياض

وقد كان الفضيل بن عياض ، يسيم فى أوبل رياض ، ثم حسب في الزهاد ، وجعل من أهل الاجتهاد ، ورب خليع وهو فتى ، تصدر لما كبر وأفتى ، ومغن بطنبور أو عود ، قدر له تولى السعود ، فرقى منبراً للعظات

عمر بن عبد العزيز

ولعله قد نظر فى طبقات المغنين ، فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس ، هكذا ذكر «ابن خرداذَبة » فإن يك كاذبا فعليه كذبه

ابو حذيفه وحماد عجرد

والحكاية معروفة ، أن أبا حذيفة[1] كان يشارب حماد عجرد وينادمه ، فنسك أبو حذيفه ، وأقام حماد فى الغى ، فبلغه أن أبا حذيفه يذمه ويعيبه ، فكتب اليه حماد :

ان كان نسكك لا يتم ... بغير شتمى وانتقاصى
فاقعد وقم بى كيف شئـ ... ـت مع الاداني والأقاصى
فلطالما زكيتنى ... وأنا المقيم على المعاصى
أيام تعطيني وتأ ... خذ فى أباريق الرصاص

---

(١) هو واصل بن عطاء ، تلميذ الحسن البصرى ، وصاحب مذهب الواصلية ، ورئيس تلك الطائفة المعروفة المنسوبة اليه ، وكان فى زمن عبدالملك وهشام ابن عبد الملك ، ويمكن الرجوع الى مذهبه فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى

عمر بن الخطاب

أليس الصحابة ـ عليهم رضوان الله ـ كلهم كان على ضلال ، ثم تداركه المقتدر ذو الجلال ؟ ؟

وفى بعض الروايات ، أن عمر بن الخطاب خرج من بيته يريد مجمعاً كانوا يجتمعون فيه للقمار ، فلم يجد فيه أحدا ، فقال لأذهبن الى الخمار لعلى أجد عنده خمراً ، فلم يجد عنده شيئاً ، فقال لأذهبن ولأسلمن ، والتوفيق يجىء من الله سبحانه !

عودة الى النبى

وفيما خوطب به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ووجدك ضالا فهدى»

وذكر أبو معشر المدنى ، فى كتاب «المبعث» حديثاً معناه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذبح ذبيحة للأصنام ، فأخذ شيئا منها ، فطبخ له ، وحمله زيد بن حارثه ، ومضيا ليأكلاه فى بعض الشعاب ، فلقيهما « زيد ابن عمرو بن نفيل » وكان من المتألهين فى الجاهلية ، فدعاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليأكل من الطعام ، فسأله عنه ، فقال : « هو شىء ذبحناه لآلهتنا » فقال زيد بن عمرو : « انى لا آكل من شىء ذبح للاصنام ، وانى على دين ابراهيم ـ صلى الله عليه وسلم » فأمر النبى «زيد بن حارثة» بالقاء مامعه

تميم بن أوس الدارى

وفى حديث آخر ـ وقد سمعته باسناد ـ أن تميم بن أوس الداري [1]

---

(١) نسبة الى « الدار » وهى قبيلة من « لخم »

كان يهدى الى النبي ، فى كل سنة ، راوية من خمر ، فجاء في بعض السنين ، وقد حرمت الخمر ، فأراقها

احمد بن حنبل والخمر (١)

وقد ذكر عند ثعلب ، أحمد بن حنبل ، ان كان شرب النبيذ قط ، والنبيذ ـ عند الفقهاء ـ غير الخمر ، فقال ثعلب : « أنا سقيته بيدى »

الخمر

وإنما لذة الشرب فيما يعرض لهم من السكر ، ولولا ذلك ، لكان غيرها من الأشربة أعذب وأدفأ (٢) ، وان كان الشيخ قد شرب ، فله

---

(١) ارجع الى ص « ٩٦ » من هذا الجزء

(٢) رأى أبى العلاء فى الخمر

يعد أبو العلاء الخمر من اللذائذ ويعرف لها مزاياها ، ولا يترى فيما تحدثه فى نفس شاربها من نشوة الفرح والطرب ، ويعلم أن ذلك هو السر فى تهافت الناس على شربها ـ على اختلاف العصور والأمكنة

فهو من أعرف الناس بمزايا الخمر ، وان كان لم يذق لها طعما ، فقد قرأ جل ما كتبه عنها شعراء العربية ـ جاهليين وإسلاميين وعباسيين ـ ودرسه ، كما درس غيره ـ فأصبح من أعلم الناس بها ـ وليس ذلك مستغرباً ، فقد أتى أبو العلاء فى أشعاره بكثير من التشبيهات الرائعة التى تعتمد على البصر ـ قبل غيره ـ وحسبك ما أتى به من الاوصاف الكثيرة الدقيقة ، فى وصف الدروع وغيرها. ونكتفى من ذلك كله ببيته المشهور ، الذى وصف به سهيلا فقال :

« وسهيل كوجنة الحب فى اللو ن وقلب المحب فى الخفقان »

ولم يقصر « بشار » فى كثير من تشبيهاته عن شأو المبصرين ، واجادة الاوصاف

أسوة بشيخ الازد « محمد بن الحسن » اذ قال :

التى كان من حقهم أن ينفردوا بها دون سواهم ، وآية ذلك ، بيته الرائع المشهور :

« كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ـ ليل تهاوى كواكبه »

***

اذن فقد كان أبو العلاء يعرف الخمر ويدرك مزاياها تماماً ، نعم ، وقد تمنى شربها فى كثير من أشعاره ، وود لو أنها أصبحت طلقة محللة ، ولكن لم يفته أن يعقب ـ فى كل موضع تمناها فيه تقريبا ـ بالسبب الرئيسى الذى يدفعه الى العزوف عنها ، والاحجام عن شربها ، وهو « ازراؤها باللب » وقد عرفت أن ابا العلاء كان يعتز بالعقل كل الاعتزاز ويجله ، ويفتن فى تقديسه انظر إلى (ص٥٢و٥٣و٥٤) حتى تضاءل أمامه كل اعتبار قيس اليه ، وقد اظهرنا أن من أكبر الاسباب التى أزعجته من لقاء الموت ـ رغم حنينه الدائم اليه ـ هو خوفه أن يسلبه الردى ذلك العقل الذى يحرص عليه ويضن به . (انظر إلى ص ١٦)

ولهذا السبب نفسه ، ارتاع من الكبر فقال :

وما أتوقى والخطوب كثيرة من الدهر الا أن يحل بى الهتر

ويمكننا أن نتخذ البيت التالى مفتاح فلسفته فى الخمر ، وهو :

ولولا أنها باللب تزرى لكنت أخا الندامة والنديم

***

والخمر ـ بعد ذلك ـ قد حرمها الاسلام ، ولو حلل شربها ـ لما شربها أبو العلاء

أيأتى نبى يجعل الخمر طلقه فتحمل ثقلا من همومى وأوزارى

وهيهات ! ـ لو حلت ـ لما كنت شاربا مخففة فى الحلم كفة ميزانى

وليس ذلك ببدع على من حرم على نفسه أكل اللحم مع اباحة الشرع ذلك .

فهو اذا كان قد دفعته الشفقة على الحيوان فقد دفعه الاشفاق على عقله ـ أن يحرم على نفسه الخمر ـ ولو حللها دينه ـ وهو لم يحللها بعد !

ومن ثم تدرك السر فى رغبته عنها ، بالرغم من تمنيه إياها احيانا ، فقد تمناها فى

بل رب ليل جمعت قطريه لى بنت ثمانين ـ عروس تجتلى !

لاميته التى قالها ـ وهو بالعراق وأظهر فيها حنينه ووجده الشديد الى لمده «المعرة»، فقال :

«تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلنى كيف اطمأنت بى الحال
فأذهل أنى بالعراق ، على شفا رزى الامانى لا أنيس ولا مال
مقل من الاهلين يسر وأسرة كفى حزنا بين مشت واقلال !»

على أنها أمنية اليائس الذى يفضل الموت على الحياة !

واليك نخبة مختارة مما قاله فى الخمر ، نستدل بها على ما ذهبنا اليه :

لو كانت الخمر حلا ، ما سمحت بها لنفسى الدهر لا سراً ولا علنا

ويهجر طيب الراح خوفا من السكر

هى الراح أهلا لطول الهجاء وان خصها معشر بالمدح
فلا تعجبنك عروس المدام ولا يطربنك مغنى صدح
ومن يفتقد لبه ساعة فقدمات فيها بخطب فدح

وقد شرح فى الأبيات التالية ، ما ينجم عن الذهول ، الذى تحدثه الخمر فى نفوس شاربيها فقال :

البابلية باب كل بلية فتوقين هجوم ذاك الباب
جرت ملاحاة الصديق وهجره ، وأذى النديم ، وفرقة الاحباب
هتكت حجاب المحصنات ، وجشمت مهن العميد تهضم الأرباب
وتوهم الشيب المدالف ، أنهم لبسوا ـ على كبر ـ برود شباب
واذا تأملت الحوادث ، ألفيت صهب الدنان أعادى الالباب

***

وجماع القول أن أبا العلاء أكثر من ذكر الخمر والتشنيع عليها ، فى اشعاره ، وكما تستطيع ان تفرد لبعض الشعراء ـ كأبى نواس مثلا ـ ديوانا فى مدح الخمر ، تستطيع أنت تفرد لأبى العلاء كذلك ، ديواناً فى ذمها

ثم قال فى آخر القصيدة (١)

فان أمت فقد تناهت لذتى وكل شىء بلغ الحد انتهى

وما أختار له أن يأخذ بقول الحكمي :

قالوا «كبرت» فقلت «ما كبرت يدى عن أن تسير الى فمى بالكاس(٢) »

***

وقد آن لمولاى الشيخ أن يزهد في شيمة حميد الأعجى ، قائل هذه الأبيات :

« شربت المدام فلم أقلع وعوتبت فيها ، فلم أرجع

« حميد » الذى أمج داره أخو الخمر ، ذو الشيبة الأصلع

علاه المشيب على حبها وكان كريما فلم ينزع »

وقال آخر :

---

(١) يعنى مقصورة « ابن دريد » المشهورة التى أولها :

ياظبية أشبه شىء بالمها ترعي الخزامى بين أشجار النقا

وقد مر بعض ابياتها فى (ج « ١ » ص « ٥٧ و٥٨ و٥٩ »)

(٢) هذا البيت من سينية أبى نواس الجميلة التى يقول فيها :

كيف النزوع عن الصبا والكاس قس ذا لنا ، ياعاذلى بقياس !

واذا عددت سنى « كم هى ؟ » لم أجد للشيب عذرا فى النزول براسى

قالوا : « كبرت » فقلت : « ما كبرت يدى عن أن تحث الى فمى بالكاس ! »

صفراء ، زان رواءها مخبورها فلها المهذب من ثناء الحاسى

وكأن شاربها ـ لفرط شعاعها بالليل ـ يكرع فى سنا مقباس

فالراح طيبة ، وليس تمامها الا بطيب خلائق الجلاس!

تعاتبني فى الراح أم كبيرة ... وما قولها ـ فيما أراه ـ مصيب
تقول : « الا تجفو المدام ، فعندنا ... من الرزق تمر مُكشب وزبيب ؟ »
فقلت: « رويدا ، ما الزبيب مفرحى ... وليس لتمر فى العظام دبيب
فان « حميداً » علها فى شبابه ... ولم يصح منها ـ حين لاح مشيب »

توبة ابن القارح

واذا تسامعت المحافل بتوبته ، اجتمع عليه الشبان المقتبلون، والادباء المكتهلون ، وكل أشيب ، فيقتبسون من آدابه ، ويُصغون المسامع لخطابه، وجلس لهم فى بعض المساجد بحلب ، حرسها الله ، فانهامن بعد« ابى عبدالله ابن خالويه عطلت من الأدب »

حديث طالوت

ذكر من نظر فى كتاب « المبتدا » حديث « طالوت » لما أمر ابنته وهى امرأة «داود » ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تُدْخله عليه ـ وهو نائم ـ ليقتله ، فجعلت له فى فراش « داود » زق خمر ، ودسّته عليه ، وضربه بالسيف ، وسالت الخمر ، فظن أنها الدم ، فأدركه الأسف والندم ، فأومأ بالسيف ليقتل نفسه ـ ومعه ابنتُه ـ فأمسكت يده ، وحدثته ما فعلته ، فشكرها على ذلك !

عودة الى ذكر الحور

واذا صحت الأخبار المنقولة بأن أهل الآخرة يعلمون أخبار أهل العاجلة ، فلعل جواريه المعدات له فى الخلد ، يسألن عن أخباره من يرد

عليهن من الصلحاء ، فيسمعن مرة أنه بالفسطاط ، ومرة أنه بالبصرة ومرة أنه ببغداد ، وخطرة أنه بحلب ، فاذا شاع أمر التوبة ، ومات ناسك من أهل حلب ، أخبرهن بذلك فسررن وابتهجن ، وهنأهن جاراتهن !

* * *

ولا ريب أنه قد سمع حكاية البيتين التاليين ، فى كتب الاعتبار :

أنعم الله بالخيالين عينا ... وبمسراك يا أميم الينا

عجبا : ماجزعت من وحشة اللحـ ... ـد ، ومن ظامة القبور علينا

رجعة الى الخمر

أعوذ بالله من قوم يحثهم المشيب على أن يستكثروا من أم زنبق[1]

قال حاتم :

وقد علم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر

يُفَكُّ به العاني ويؤكل طيبا ... وليست تُعريه القداح ولا اليسر

أ « ماوى » ان يصبح صداى بقفرة ... من الأرض ـ لاماء لدى ولا خمر

ترى أن ما أهلكت لم يك ضرنى ... وأن يدى ـ مما بخلت ـ به صفر

وقال طرفة .

فان كنت لا تسطيع دفع منيتى ... فدعني ابادرها بما ملكت يدى[2]

وقال ابن المعتز :

لا تطل بالكؤوس مطلى وحبى ... ليس يومى يا صاحبى مثل أمسى

---

(١) هى الخمر (٢) ارجع « جـ ١ » ص « ٢٠٢ ـ ٢٠٤ »

لا تسلنى ، وسَل مشيبى عني مذ عرفت الخمسين أنكرت نفسى

فهذا حثته كثرة سنيه على أن يستكثر من السلافة ، وما حفظ حق الخلافة :

وأنا أضن به أن يكون كأبى عثمان المازنى . عوتب فى الشراب فقال: « اذا صار أكبر ذنوبي تركته : »

المعتصم وابراهيم المهدى

وقد روى أن المعتصم دعا ابراهيم كعادته ، فغناه وبكى، فقال له المعتصم «ما يبكيك؟» فقال« كنت عاهدت الله اذا بلغت ستين سنة أن أتوب ، وقد بلغتها » فأعفاه المعتصم من الغناء وحضور الشراب!

الهيام بالخمر

وكان فى بلدنا رجل مغرم بالقهوة [1] فلما كبر رغب فى المطبوخ وكان يحضر مع نداماه ، وعندهم قدح واحد ، فيشرب هو من المطبوخ ويشرب أصحابه من النبيء ، فاذا جاء القدح اليه ليشرب، غسله من أثر الخمر وشرب فيه ، فاذا فرغ المطبوخ ، رجع فشرب من شراب اخوانه

*
* *

وأما مخاطبته غيره ـ وهو يعني نفسه ـ فهو كقولهم فى المثل « إياك أعنى واسمعي يا جاره » ولا عندُد عن الجبلة ، يريد المتنسك ان ينصرف حبه عن العاجلة ، وليس يقدر على ذلك كما لا تقدر الظبية أن تصير لبؤة

---

(١) الخمر

ولا الحصاة أن تتصور لؤلؤة [١]« يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخطئين »

لقد علمت ، وما أنهاك عن خلق ألا يكون امرؤ الا كما خلقا [٢]

***

---

(١) الجبر

كرر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته وهو بلا ريب أول من يدين بالجبر ، ونجتزئ من اشعاره الكثيرة بالابيات التالية ، للاستدلال بها على يقينه الثابت وايمانه الذى لايتزعزع ، بمذهب الجبر واذعانه للقضاء والقدر ، وهى :

وما فسدت اخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
وفى الأصل غش ، والفروع توابع وكيف وفاء النحل ، والأب غادر ؟
اذا اعتلت الافعال جاءت عليلة كحالاتها ، أفعالها والمصادر
فقل للغراب الجون — ان كان سامعا — «أأنت على تغيير لونك قادر ؟ » .

والعقل زين — ولكن فوقه قدر — فماله فى ابتغاء الرزق تقدير
ويجرى قضاء مالكم عنه حاجز فألقوا الى مولاكم بالمقاليد
نهاب أمورا — ثم نركب هولها على عنت — من صاغرين قماء !
ونحاذر الأشياء — بعد يقيننا ألا يرد الكائنات حذار
وجبلة الناس الفساد ، فضل من يسمو بحكمته الى تهذيبها
يتحارب الطبع الذى مزجت به مهج الانام ، وعقلهم فيفله
وقيل نفوس الناس تسطيع فعلها وقال رجال : « بل تبين جبرها »
ولا ألوم غبيا فى غباوته فبالقضاء أتته قلة الفطن
لا تمدحن ولا تذمن امرأ فيها ، فغير مقصر كمقصر

(١) يشبه قول ذى الاصبع العدوانى :

وكثير من الذين يتلون الآية : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » وهم بها مصدقون ، ومن خشية الهم مشفقون ، يضنون بالقليل التافه ولا يسمحون للسائل [1] فكيف تكون حال من ينكر حديث الجزاء ، ولا يقبل عن الفانية حسن العزاء

أبو طلحة واليهودى

وقد مر حديث « أبى طلحة » أو « أبى قتادة » ومعناه أنه خاصم يهوديا الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان لأبى طاحة حديقة نخل ، وبينه وبين اليهودي خلف فى نخلة واحدة ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لليهودى : أتسمح له بالنخلة حتى أضمن لك نخلة فى الجنة ، ونعتها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنعوت أشجار الجنة ، فقال اليهودى : « لا أبيع عاجلا بآجل » فقال « ابو طلحة » أتضمن لى يا رسول الله كما ضمنت له حتى أعطيه الحديقة ؟ فقال « نعم » فرضى ابو طلحة بذلك وأخذ اليهودى وذهب الى حديقته ؟ فوجد فيها امرأته وأبناءه ، وهم يأكلون من جناها ، وجعل يدخل اصبعه في أفواههم فيخرج ما فيها من تمر فقالت امرأته « لم تفعل هذا بينيك ! » فقال : انى قد بعت الحديقة ، فقالت . « ان كنت بعتها بعاجل فبئس

كل امرئ صائر يوما لشيمته وإن تخلق أخلاقا الى حين

وقريب منه قول الآخر

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها رادع

(١) افتن أبو العلاء فى نظم هذا المعنى فقال :

دنتم بأن سيجازيكم الهكم فما لأفعالكم أفعال اهمال

ما فعلت ! » فقص عليها الخبر ، ففرحت بذلك .

مرض الناسى

ولو قيل لبعض عباد هذا العصر « اعط لبنة ، لتعطى فى الآخرة لبنة من فضة » لما أجاب ـ ولو سئل امة عوراء ـ يعوض منها فى الآخرة بحوراء لما فعل ، على أنه من المصدقين ، فكيف من غذى بالتكذيب وجحد وقوع التعذيب ؟

مينة فاذوه

وأما « فاذوه » فلقى طائر الحين ، متكفيا من بين جناحين ، فلا إله إلا الله ، ما أعد المهراس ليُنضخ به الراس ! ولكن لكل أجل كتاب ! منته نفسه التوبة ، فكانت كصاحبة امرئ القيس ـ لما قال لها :

« منيتنا بغد ، وبعد غد ، حتى بخلت كأسوإ البخل »

أبو الهذيل العلاف

ويحكى عن « أبى الهذيل العلاف » أنه كان يمر فى الاسواق على حمار ويقول « يا قوم ! احذروا توبة غلامى » وكان له غلام يعد نفسه التوبة ، فسقطت عليه آجرة فقتلته

بدء التعارف بين المعرى و ابن القارح

وأول ما سمعت بأخبار الشيخ ، من رجل واسطى ، يتعرض لعلم العروض ، ذكر انه شاهده بنصيبين وفيها رجل يعرف بأبى الحسين البصرى معلما لبعض العلوية ، وكان غلام يختلف اليه يعرف « بابن الدان » وقد

اجتاز الشيخ ببلدنا ـ والواسطى يومئذ فيه ـ وقد شاهدت عند أبى احمد عبد السلام ـ رحمه الله ـ كتبا عليها سماح لرجل من أهل حلب ؛ وما أشك أنه الشيخ ، وهو لا يفتقر الى تعريف بالقريض ، كما قال الطائى

تحميه لألاؤه ـ أو لوذعيته ـ من أن يذال بمن ، أو ممن الرجل

أساتذة ابن القارح

وأما العلماء الذين لقيهم ، فأولئك مصابيح الناجية وكواكب الداجية ، وإن فى النظر اليهم لشرفا ، فكيف بمن اغترف من كل بحر ، وَجَدَ غُرَفاً ، وإنما أقول ذلك على الاقتصار ، ولعله قد نزف بحارهم بالقلم والفهم ، وسهلوا له ما صعب من جبال العربية

حجج ابن القارح

وأما حججه الخمس فهو ـ إن شاء الله ـ يستغني فى الحشر بالأولى منهن ، وينظر فى المتأخرين من أهل العلم ، فلا ريب انه يجد فيهم من لم يحجج ، فيتصدق عليهم بالاربع ، وكأنى به ، وعما عم الحجيج يرفعون التلبية بالعجيج وهو يفكر فى تلبيات العرب ، وانها جاءت على ثلاثة أنواع ، مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور

***

وكأني به لما اعتزم على استلام الركن ، وقد ذكر قول القائل :

ذكرتك والحجيج له عجيج بمكة ، والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن فى بلد حرام به ـ لله أخلصت القلوب!
« أتوب اليك يا رباه ـ مما جنيت ـ فقد تظاهرت الذنوب

فأما من هوى «ليلى» وحبي زيارتها، فإني لا أتوب»

ولعله قد ذكر هذه الابيات في الطواف.

اطوف بالبيت ـ فيمن يطوف ـ وأرفع من مئزري المسبل
وأسجد بالليل حتى الصبا ح ـ واتلو من المحكم المنزل
عسى فارج الكرب عن يوسف يسخر لي ربة المحمل

وذكر عند تفرق الناس هذين البيتين.

ودعى القلب «ياقريب» وجودي لمحب فراقه قد أحما
ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جمالهم فتزما

وكأني به وقد مر بأنطاكية، فذكر قول امرئ القيس.

علون بأنطاكية فوق عقمة كجرمة نخل، أو كجنة يثرب.

أبو الطيب اللغوي

وأما ابو الطيب اللغوي، واسمه «عبدالواحد بن علي» ولا أشك أنه قد ضاع كثير من كتبه وتصنيفاته، لأن الروم قتلوه وأباه، في فتح حلب، وكان «ابن خالويه» يلقبه «دحروجة الجبل» لأنه كان قصيرا، وقد كان «ابو الطيب اللغوي» بينه وبين أبي العباس بن كلاب «المتمرد» مودة ومؤانسة، وله يقول:

يا عبد! [1] إنك عند القلب جنته حبا، وإنك ـ عند الطرف ـ ناظره
أزمعت سيرا، فقل ما أنت قائلة واذكر لراعي الهوى ما أنت ذاكره

---

(١) يريد «يا عبد الواحد»

لا أشتكى سهرا طالت مسافته الله يعلم أنى الليلَ ساهره

وقد كان « أبو الطيب » يتعاطى شيئاً من النظم ، وقد علم الله أنى لا فى العير ، ولا فى النفير ، كلما رغبت في الخمول ، قدر بى غير المأمول . كان حق الشيخ — إذ أقام فى « معرة النعمان » سنة — أن لا يسمع لى بذكر ، ولا أخطر له على فكر ، والآن قد غمر إفضاله ، وأظلنى دوح أدبه ، وهو كريم الطبع — والكريم يخدع ، ومن سمع جاز أن يخال

ابن القارح في مصر

وأما ما ذكره من ميله فى مصر الى بعض اللذات فهو يعرف الحديث «أريحوا القلوب تع الذكر : وقال أحيحة بن الجلاح»

صحوت عن الصبا ، واللهو غول ونفس المرء — آونة — ملول

وقد عاشر ملوكا ووزراء ، وقد سمع انباء النعمان الاكبر ، اذ فارق ملكه وتعوض من الحرير المسوح ، وإياه عني العبادي [1] فى قوله :

وتذكر رب الخورنق اذ فكـــر يوما ، وللهدى تفكير
سره ملكه وكثرة ما يمـ لك ، والبحر معرضا ، والسدير
فارعوى جهله فقال « وما غبـ طة حى الى الممات يصير » ؟

الهنود والخمر

والسكر محرم فى كل الملل ، ويقال إن الهند لا يملكون عليهم رجلا يشرب مسكراً ، لانهم يرونه منكراً ، ويقولون : « يجوز أن يحدث فى

(١) ارجع الى (جـ « ١ » ص « ٤٨ و ٤٩ »)

المملكة نبأ والملك سكران » لعنت القهوة !

* * *

وينبغي أن يزهده فى الصهباء أن نداماه الاكرمين أصبحوا فى الاجداث العافية ، كم جلس مع فتيان أتى عليهم الزمن كلّ الاتيان ، فكان كما قال الجعدى :

تذكرت والذكرى تهيج لى الهوى ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
ندامای عنـد المنذر بن محرق فأصبح منهم ظاهر الارض مقفرا

وهو يعرف الابيات التى أولها :

خليلى اهبا ، طالما ماقد رقدتما أجدكما لا تقضيان كراكما

وهل يعجز أن يكون كما قال الآخر :

أما الطلاء فانى لست ذائقها حتى ألاقى بعد الموت جبارا

دنانير ابن القارح

وسرتني فيئة [1] الدنانير اليه ، فتلك أعوان تشبه منها الألوان ، ولها على الناس حقوق ، تبر إن خفيف عقوق ، ـ قال عمرو بن العاص لمعاوية : «رأيت فى النوم أن القيامة قد قامت ، وجيء بك وقد ألجمك العرق» فقال معاوية : « هل رأيت ثم من دنانير مصر شيئا ؟ »

وهذه لاريب من دنانير مصر ، لم تجيء من عند السوق ، ولكن من عند الملوك ولم تكن مهر هلوك . فالحمد لله الذى سلمها الى هذا الوقت ، ولم تكن كذهب صار الى الخمارة مع الموزون ، كما قال :

---

(١) عودة ـ رجعة

وخمارة من بنات المجوس ترى الزق ـ في يدها ـ شائلا
وزنّا لها ذهبا جامدا ، فكالت لنا ذهبا سائلا

أخذت من جوائز كرام صيد، تارة بالخدمة وتارة بالقصيد، ولم تكن فى العبدية مرهنات ، ولا ـ عند الغرض ـ موهنات! وهى ـ عند البله والكيس أجود من الخاتم الذى ذكره « ابن قيس » فقال :

إن ختمت ، جاز طين خاتمها كما تجوز العبدية العتق [١]

بائع كميته

ولو أخذ منها النادم على بيع كميته ، لأسكنت البهجة فى خلده [٢] وبيته ، ولم يأسف أن عوض حمارا من فرس ، ولو جد ـ على الشكوى ـ ذا خرَس ، ولم يقل :

ندمت على بيع «الكميت» وانما حياة الفتى هم له وخسار
ولما أتانى بالدنانير سائمى أصاخت، وهشت ـ للبياع ـ «نوار»
وقلت : أتِم البيع ، واشتر غيره ، فحولك ـ فى المشتا ـ بنون صغار
فأنفقت فيهم ما أخذت ـ ولم يزل لدى ثمراب راهن [٣]، وقُتَار [٤]
إلى ان تداعى الجند ـ بالغزو ـ وانجلت غيوم شتاء ـ سحبهن غزار
وأعوزنى مهرٌ ـ يكون مكانه ـ كأن ليس ـ بين العالمين ـ مهار

---

(١) أراد بالعبدية دنانير نسبها الى « عبد الملك بن مروان » ويقال انه أول من ضرب الدنانير فى الاسلام

(٢) قلبه (٣) معدّ أو حاضر (٤) الدخان من المطبوخ

وسار ـ على الخيل المغذة ـ صاحبي، وسرت ، وتحتى ـ للشقاء ـ حمار !

***

ولله المنة ـ كما نجاها ـ بالقدر ـ من بكور ، ليس من بكره بالمشكور يحمل معه دنانير ، ولا يصحب، من القوم صنابير[١] ، فيقيم بهم فى الدسكر أياما ، أيقاظا ـ فى السكر ـ أو نياما ، فنفنى الذهب ، قال الجعدى : [٢]

ودسكرة ـ صوت أبوابها كصوت الموانح فى الحوأب [٣]
سبقت اليها صياح الديوك وصوت نواقيس ، لم تضرب

وقال آخر

وقبضة من دنانير غدوت بها للدَّسكرى ـ وحولى فتية سمح
ولم يزل ـ ثم ـ يسقينا ويأخذها حتى استقل بما فى الصرة القدح .

* * *

ودنانيره باذن الله مقدسات ، وان كانت زائدة على الثمانين ، فقد أوفت على عدة أصحاب « موسى » الذين جاء فيهم « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » وعلى عدة الاستغفار فى قوله « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وعلى عدة أذرع فى السلسلة فى قوله تعالى : « فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه »

ولو كانت سنو « زهير » مثلها لما وصف نفسه بالسآمة ، ولو أدركه عروة بن حزام وهو يقول :

يكلفني عمى ثمانين ناقة ومالى يا «عفراء» غير ثمان

---

(١) بخلاء (٢) ارجع الى ترجمته فى (ج «١» ص «٧٩و٨٠و٨١») (٣) الدلو

لجاز ان يرق له فيغيثه من هذه الثمانين ببعضها ، أو يسمح له بكلها لأنه كريم طبع ، ولو صارت فى يد عروة هذه الثمانون ، لبلغ بها الأمنية ، لأن الناقة فى ذلك الزمان كانت ربما اشتريت بعشرة دراهم ، وفى بعض أخبار الفرزدق ، أن رجلا من ملوك بنى أمية اعطاه مائة من ابل الصدقة فباعها بألف وخمسمائة درهم بعد ماعُني به وزيد فى الثمن

الجمل فى زمن المنصور

وقد مرت به الحكاية التي يذكرها اصحاب التاريخ « أن الجمل كان يباع فى زمن أبي جعفر المنصور بدرهم ، وانه صادر قوما من اصحابه وكانت لهم نعاج فباعوها ثمانى نعاج بدرهم » هذا ما وجد بخط المرزباني فى تاريخ ابن شجرة

فضل الذهب

وهى أنضر من الثمانين التى ذكرها العلوي البصري فى قوله :

عبرت اليهم فى ثمانين فارسا فأدركت منهم بغيتى ومراديا

لله در الذهب من خليل [1] ، فانه يفيء بظل ظليل ، ماهو كغيره بال

---

(١) من أجل ماقرأناه فى وصف الدينار مدحا وذما ، قول « الحريرى » فى مقامته الثالثة فى مدحه :

أكرم به أصفر ـ راقت صفرته جواب آفاق ـ ترامت سفرته

مأثورة سمعته وشهرته قد أودعت سر الغنى اسرته

وقارنت ـ نجح المساعى ـ خطرته وحببت ـ الى الأنام ـ غرته

كأنما ـ من القلوب نقرته به يصول من حوته صرته

وان تفانت ـ أو توانت ـ عترته !

والدر اذا كسر ذهبت قيمته ، ورب ذهب فى سوار ، جعل فى خلخال ثم نقل الى جام أو كاس ، وهو بحسنه ماتغير لبشار النيران

ابنة أخته

وأما ابنة الأخت ، فانها أدلت على الخال ـ إذ كان أحد الوالدين ! ولا تجعلها أختا للهجرس لأنه طالب خاله بثار ، فلم يقبح ما فعل من الآثار

يا حبذا نضاره ، ونضرته وحبذا مغناته ونصرته
كم آمر ـ به استتبت امرته ، ومترف ـ لولاه ـ دامت حسرته
وجيشهم ـ هزمته كرته ومستشيط ، تتلظى جمرته
أسر نجواه ـ فلانت شرته ، وكم أسير أسلمته أسرته
أنقذه ـ حتى صفت مسرته
وحق مولى أبدعته فطرته ـ لولا التقى ـ لقلت : « جلت قدرته »

***

ثم ذمه ـ بعد ذلك ـ فى نفس المقامة فقال :

تبا له ! من خادع مماذق أصفر ـ ذى وجهين ـ كالمنافق
يبدو بوصفين ، لعين الرامق زينة معشوق ، ولون عاشق
لولاه ـ لم تقطع يمين سارق ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشمأز من بخيل طارق ولا شكا الممطول مطل العائق
ولا استعيذ من حسود راشق وشر مافيه من الخلائق
أن ليس يغنى عنك فى المضايق ، الا اذا فر فرار الآبق

* * *

واها لمن يقذفه من حالق ، ومن ـ اذا ناجاه نجوى الوامق ـ
قال له ـ قول المحب الصادق ـ : « لا رأى فى وصلك لى ، ففارق ! »

« قاتل خاله »

ولكن تشبه أن تكون أختا لابن مُضَرِّس — حين فاتتها الأُخوّة من الهجرس!

وهو المعروف بالخثّوت ، واسمه « توبة » وكان له أخ يقال له : « طارق » فقتله رهط خاله ، فرأى أن يقتل خاله ، وقال :

بكت جزعا أمى «رُميلة» أن رأت ... دما — من أخيها — فى المهند باديا
فقلت لها : « لا تجزعى ، إن طارقا ... حميمى ، الذى كان الخليل المصافيا»
«وما كنت — لو أعطيت ألفى نجيبة ... وأولادها — لغوا تساق — وراعيا»
«لأرضى بوتر منهم — دون أن أرى ... دما من «بنى عوف» على السيف جاريا»
«وما كان فى «عوف» دم لو أصبته ... ليوفينى — من طارق — غير خاليا!»

أدب الخؤولة

ويجوز أن يكون قد وَشح الى هذه المرأة شيء من أدب الخؤولة فليتق معرة بيانها ، أكثر من اتقائه خُلسة بنانها

فهو يعلم أن الشعر ورثه « زهير بن أبي سلمى » من خاله « بشامه ابن الغدير » ولم يكن فى « مُزينة » شعر يذكر ، وحضره « زهير » عند الوفاة ، فأراد أن يعطيه شيئا من ماله ، فقال « بشامة » « أما يكفيك أنى ورثتك غرائب القصيد ؟ »

غريزة المرأة

وربما كان في نساء « حلب » شواعر ، فلا يأمن من أن تكون هذه منهن ، فطالما كن أجود غرائز من رجالهن !

وحدث رجل ضرير ، من أهل « آمد » يحفظ القرآن ، ويأنس بأشياء من العلم ، أنه كان ـ وهو شاب ـ له امرأة مقيّنة (تزين النساء فى الأعراس) ـ وكان ينجم على الطريق ، وكانت له قرعة فيها ـ أشعار ـ كنحو ما يكون فى القرع ـ وكان يعتمد حفظ تلك الأشعار ويدرسها فى بيته ـ ولا غريزة له فى معرفة الأوزان ، فيكسر البيت ، فتقول له امرأته الماشطة « ويلى ! ما هذا جيد ! » ـ فيلاجّها ـ ويزعم أنها مخطئة .

فاذا أصبح مضى فسأل من يعرف ذلك فأخبره بأن الصواب معها ، وعرفه كيف يجب أن يكون ، فإذا لقنه عنه ، عاد فى الليلة الثانية فذكره ـ وقد أصلح ـ فتقول الماشطة : « هذه الساعة جيد »

وكان لى كرى من أهل البادية يعرف بعلوان ، وله امرأة ، تزعم أنها من « طى » ، فكان لا يعرف موزون الأبيات من غيره ، وكانت المرأة تحس بذلك ، وكانت تتأسف على طفل مات لها ، يقال له : « لاحب » وكانت تنشد هذا البيت :

« إذا كنت من جرا رجيبك موجعا فلا بد ـ يوما ـ من فراق حبيب

فقالت يوما . « اذا كنت من جرا رجيب موجعا » فعلمت أن الوزن مختل ، فقالت . إذا كنت من جرا رجيب ـ موجعا ، فحركت التنوين ، وأنكرت تحريكه بالطبع ، فقالت : « اذا كنت من جرا رجيبك موجعا » فأضافته الى الكاف ، فاستقام الوزن واللفظ !

وفى الكتاب العزيز : « يأيها الذين آمنوا إن من ازواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ، فان الله غفور رحيم »

أبو بكر الشبلى

وأما أبو بكر الشبلى ـ رحمه الله ـ فلا ريب انه من أهل الفضل، وأرجو أن يكون سالما من مذهب الحلولية ، وأنشدنى له منشد :

« باح مجنون عامر بهواه وكتمت الهوى ففزت بوجدى
وإذا كان فى القيامة نودى أين أهل الهوى؟ تقدمت وحدى »

فان صح أن هذين البيتين له فلا يمتنع أن يعترض عليه قائل فيقول: « ان ادعاءه الانفراد من العالم ، لايسلمه اليه البشر ، ان كان هواه للمخلوقين أو الخالق فله فى الامم نظراء كثير »

ختام الرسالة

وانا اعتذر إلى مولاى الشيخ الجليل ، من تأخير الاجابة ، فان عوائق الزمن منعت من إملاء السوداء ، وانا مستطيع بغيرى ، فاذا غاب الكاتب فلا إملاء ، ولاينكر الاطالة على ، فان الخالص من النضار ، طالما اشترى باضعافه فى الزنة من اللجين ، فكيف اذا كان الثمن من النُّفَيات[١] ، اللائى يوجدن فى الطرق مرميات ؟

وعلى حضرته الجليلة سلام ، يتبع قرومَه[٢] افالهُ[٣] ، وتلحق بعُوذه[٤] أطفاله

﴿ تمت رسالة الغفران وانتهى الجزء الثانى ﴾

---

(١) جمع نفية وهى ما تنفيه الحوافر من حصى وغيرها ، ومعناها هنا الاشياء الحقيرة التافهة (٢) جمع قرم وهو البعير أو الفحل (٣) جمع افيل وهو صغير الابل (٤) جمع عائذ وهي الناقة الحديثة العهد بالنتاج

تحت الطبع

بقلم

كامل كيلاني

بالأوقاف

(١)

عبقرية ابن الرومي

ألم فيه المؤلف بعصر ابن الرومي وأثره فيه، وتكلم عن طبيعته وتأثر المتنبي بشعره، ورأي المعري فيهما، ووجوه الشبه والاختلاف بين تفكيرهم جميعاً، والفنت الذي لقيه «ابن الرومي» من معاصريه، وأثر ذلك في شعره، واقذاعه في الهجاء، ورأيه في الجبر والاختيار، وعثور جده، وشراهته، ونهمه في الأكل، واطالته القصائد مع المحافظة على الاجادة ودقة الاداء وروعة الاسلوب والأمن من السقط والتكرار في اكثر الاحيان؛ وشيوع الخاطر في قصيده الخ الخ

(٢)

أساليب الشهرة

(٣)

نماذج مختارة

من الشعر السخيف

نظرات
فى تاريخ الأدب الأندلسى
مجموعة محاضرات
ألقاها فى الجامعة المصرية
كامل كيلانى
بالأوقاف

تناول فيها الكلام على أهم النقط الرئيسية التى أثرت فى الأدب الاندلسى ، واتى بنبذة من تاريخ الاندلس ، ونشأة ملوكها ، واثرهم فى البلاغة ، وخطر الدين عندهم ، وشغفهم بالموسيقى ، واثر ذلك فى انشاء الموشحات ، وتأثرهم بالمشارقة الخ مع مناقشة طائفة من آراء المستشرقين « نيكلسون » و « دوزى » ومقارنتها بآراء أشهر مؤرخى العرب ، قالت احدى كبريات الصحف العربية بمناسبة ظهوره من مقال: « ..... حسب المؤلف انه شد عن الطريقة العتيقة فى كتابة تاريخ الادب ، وحسبه انه طرق موضوعا فذا مستطرفا ، لم يسبقه اليه كاتب من المحدثين اللهم الا ان يكون من المستشرقين ! »

« لمحاضرات الأستاذ « كامل افندى كيلانى » قيمتها الأدبية كمرجع لاغنى عنه ، وكنور انسكب على هذا الباب من الادب العربى ، وكقطعة تحليلية تشعرك حين تقرؤها - بأنك قبالة عمل نتيجة لمجهود عنيف .... »

الى أن قالت : « ومهما يكن من اختلاف الآراء فى هذا الكتاب ، فلم ينكر احد أنه مفيد وضرورى للنهضة ، أما انه مفيد ، فللمعلومات النفيسة التى احتواها ، وللطريقة العلمية التى احتذاها . واما أنه ضرورى ، فلأن الجرأة الفكرية والاستقلال فى الرأى والاعتداد بالشخصية - مهما عابها عليه البعض - من أقوى دعائم النهضات »

والكتاب مطبوع على ورق صقيل ، وعدد صفحاته ٣٨٠ من القطع الكبير ويطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على ، وثمنه عشرة قروش ، واجرة البريد ثلاثة قروش

رسالة الغفران

الجزء الثالث

رسالة ابن القارح

رسالة الملائكة

إيجاز وشرح

كامل كيلاني

بالأوقاف

سنة ١٣٤٣ هـ - سنة ١٩٢٥ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة للشارح

(المطبعة التجارية الكبرى بشارع عابدين بحارة فايد رقم ٣ تليفون نمرة ٠٩-٦١)

رسالة ابن القارح

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية

الحمد لله وصلواته على محمد وأبرار عترته وأهليه .

كتابى ـ أطال الله بقاء مولاى الشيخ الجليل « وجعلنى فداءه [١] » ـ على الصحة والحقيقة ، وليس على مجاز اللفظ ومجرى الكتابة ، ولا كما قال بعضهم ـ وقد عاد صديقا له ـ : « كيف تجدك ، جعلنى الله فداك؟ » وهو يقصد تحببا ، ويريد تملقا ، ويظن انه قد أسدى جميلا ، يشكره صاحبه ان نهض واستقل ، ويكافئه عليه إن افاق وأبل

حنين صادق

ويعلم الله الكريم ـ تقدست أسماؤه ـ أنى لو حننت اليه ، حنين الواله الى بكرها [٢] ، أو الحمامة الى الفها [٣] ، أو الغزالة الى خشفها ، لكان ذلك مما تغيره الليالى والأيام ، لكنه حنين الظمآن الى الماء ، والخائف الى الأمن ، والغريق الى النجاة ، والقلق الى السكون ـ بل حنين نفسه الى الحمد والمجد

فضل ابى العلاء

فان وهب الله لى ملا من العمر ، يؤنسنى برؤيته ، ويعلقنى بحبل مودته ، صرت كسارى الليل ، ألقى عصاه ، وأحمد مسراه ، وعسى الله أن يمن بذلك ، وأنا

---

(١) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٣ »)

(٢) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٥ ») (٣) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٥ »)

أسأل الله ـ على التداني والبعاد ـ إمتاعه بالفضل الذي استعلى على عاتقه وغاربه ، فمن مر على بحره الهياج ، ونظر في لالاء بدره الوهاج ، خليق أن يكمو قلبه ، الا أن يلقى اليه بالمقاليد ، أو يستوهبه إقليدا من الأقاليد ، فيكون منسوبا اليه ، ومحسوبا عليه ، واحد اصحابه وحزبه ، وهيهات ، ليس التكحل في العينين كالكحل ، وأخلاق النفس تلزمها لزوم الالوان للابدان ، لا يقدر الابيض على السواد ، ولا الاسود على البياض ، ولا الشجاع على الجبن ، ولا الجبان على الشجاعة ، قال أبو بكر العزرمي :

يفر جبان القوم عن ام رأسه ويحمي شجاع القوم من لا يواسه
ويرزق معروف الجواد ، عدوه ويحرم معروف البخيل ، أقاربه
ومن لا يكف الجهل عمن بوده فسوف يكف الجهل عمن يوائمه

ومن أين للضباب صوب السحاب ، وللغراب هدى العقاب ، وكيف ، وقد أصبح ذكره في مواسم الذكر آذانا ، وعلى معالم الشكر لسانا (١) ، فمن دافع العيان ، وكابره واستبد بالافك ، كان كمن صالب بوقاحته الحجر ، وحاسن بقباحته القمر ، وهذى وهذر ، وكان :

« كناطح صخرة ، يوما ، ليوهنها فلم يضرها ، واوهى قرنه الوعل (٢) »

ورود حلب

وردت حلب ـ حماها الله تعالى وحرسها ـ بعد ان رميت بآبدة الآباد ، فلما دخلتها وبعد لم تستقر بي الدار ، وقد نكرتها لفقدان معرفة وجار ، وانشدتها باكيا:

اذا زرت ارضا ـ بعد طول اجتنابها ـ ففدت حبيبا ، والبلاد كما هيا

---

(١) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٦٠ »)

(٢) هذا البيت اشهر من ان يشار اليه لكثرة الاستشهاد به ، وهو من معلقة « الاعشى » الرائعة ، وقبله قوله :

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ـ ما أطت الابل ؟

ابو القطران و وحشية [١]

كان أبو القطران يهوى ابنة عمه بنجد ، واسمها «وحشية» فاهتداها رجل شامى الى بلده ، فغمه بعدها ، وساءه فراقها ، فقال من قصيدة :

اذا تركت وحشية النجد ، لم يكن لعينيك ـ مما تبكيان ـ طبيب
رأى نظرة منها ، فلم يملك البكا ، معاوز يربو تحتهن كثيب
وكانت رياح الشام تكره مرة ، فقد جعلت تلك الرياح تطيب !

فضلت من الرباح ، على الرياح ، كما حصل لأبى القطران من وحشية

« ذكرى أبى العلاء »

ثم . . . . وثم . . . . . وثم . . . . . .

ثم اجرى ذكره ، من غير سبب جره ، وغير مقتض اقتضاه فقال : [٢]

« الشيخ بالنحو اعلم من سيبويه ، وباللغة والعروض من الخليل »

« رسالة ابى الفرج الزهرجى [٣] »

كان أبو الفرج الزهرجى كاتب حضرة « نصر الدولة » كتب رسالة اليه ، استودعنيها وسألنى ايصالها الى جليل حضرته ، فسرق عدىلى رحلا ، الرسالة فيه ، فكتبت هذه الرسالة اشكو اموري ، وما لقيت فى سفرى من أقيوام ، يدعون العلم والادب ـ والادب أدب النفس ، لا أدب الدرس ـ وهم اصفار منهما جميعاً ، ولهم تصحيفات [٤] ، كنت اذا رددتها عليهم ، نسبوا التصحيف الى ، وصاروا الباعلى .

الزهرجى و ابن القارح

لقيت ابا الفرج الزهرجى بآمد ـ ومعه خزانة كتبه ، فعرضها على ، فقلت :

---

(١) هو ابو القطران المرار بن سعيد الفقعسى . و «وحشية» هى حبيبته التى تغانى فى حبها . ارجع الى (ج «٢» ص «١١») (٢) ارجع الى ج «٢» ص «١٩» (٣) ارجع الى ج «٢» ص «٢٠») (٤) ارجع الى ج «٢» ص «٢٣»

« كتبك هذه يهودية ، قد برئت من الشريعة الحنيفية ! »

فأظهر من ذلك اعظاما وانكارا ، فقلت له : « أنت على المجرب ، ومثلى لا يهرف بما لا يعرف ! »

فقرأ ـ هو وولده ، وقال : « صغر الخبر الخبر » وكتب الى رسالة يقرظنى فيها ، بطبع له كريم ، وخلق غير ذميم

المتنبى (١)

قال المتنبى : « أذم الى هذا الزمان أهيله » صغرهم تصغير تحقير ، وهو سائغ فى مجاز الشعر ، وقائله غير ممنوع من النظم والنثر ، ولكنه وضع فى غير موضعه وخاطب به غير مستحقه ، ومايستحق زمان ساعده بلقاء سيف الدولة ، ان يطلق على أهله الذم ، وكيف وهو القائل يخاطبه :

« أسير الى أقطاعه فى ثيابه على طرفه من داره بحسامه »

وقد كان من حقه ان يجعلهم فى خفارته ، اذ كانوا منسوبين اليه ، ومحسوبين عليه :

« الزمان (٢) »

ولا يجب أن يشكو عاقلا ناطقا الى غير عاقل ولا ناطق ، إذ « الزمان حركات الفلك » الا ان يكون ممن يعتقد أن الأفلاك تعقل وتفهم وتدرى بواقع افعالها ، بقصود وارادات ، ويحمله هذا الاعتقاد على ان يقرب لها القرابين ، ويدخن الدخن ، فيكون مناقضا لقوله :

فتبا لدين عبيد النجوم ومن يدعى أنها تعقل

أو يكون كما قال الله تعالى ـ فى كتابه الكريم : « مذبذبين بين ذلك ، لا الى

---

(١) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٢٤ ») والى كتاب مطالعات فى الكتب والحياة للاستاذ العقاد من (ص ١١٨ـ١٢٣) (٢) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٣٢ »)

هؤلاء ، ولا الى هؤلاء » ويوشك ان تكون هذه صفته

رواية القطربلى [١] وابن أبى الازهر [٢]

حكى القطربلى وابن أبى الازهر فى تاريخ اجتما على تصنيفه ، ـ واهل بغداد وأهل مصر يزعمون أنه لم يصنف فى معناه مثله لصغرحجمه وكبر علمه ـ أن المتنبى أخرج ببغداد من الحبس الى مجلس أبى الحسن «على بن عيسى» الوزير ـ رحمه الله ـ فقال له : « انت احمد المتنبى ؟ » فقال : « انا أحمد المتنبى » وكشف عن بطنه ، فاراه سلعة فيه ، وقال . « هذا طابع نبوتى ، وعلامة رسالتى » فامر بقلع جمشكه وصفعه به خمسين ، واعاده الى محبسه

ويقول لسيف الدولة :

« ونغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والمنن »

كذب والله . لقد كان يتحرش بالمكارم ويتحكك بها : ـ وهذا غير قادح فى طلاوة شعره ، ورونق ديباجته !

الزنادقة والملحدون [٣]

ولكنى أغتاظ على الزنادقة والملحدين . الذين يتلاعبون بالدين ، ويرومون ادخال الشبه والشكوك على المسلمين ، ويستعذبون القدح فى نبوة النبيين ، ويتطرفون ويبتدئون ـ اعجابا بذلك المذهب : « تيه مغن ، وظرف زنديق [٤] »

بشار بن برد [٥]

وقتل المهدى بشارا على الزندقة ، ولما شهر بها وخاف ، دافع عن نفسه بقوله :

« يا « ابن نهما » رأسى على ثقيل واحتمال الرأسين عبء ثقيل

---

(١) « القطربلى » نسبة الى قطربل البلد المشهور بحدود حمره (٢) ارجع الى (ج «٢» ص « ٢٥ ») (٣) ارجع الى (ج «٢» ص « ٣٤ » (٤) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٣٨ » (٥) ارجع الى (ج « ١ » ص « ١٧٧ » وج « ٢ » ص « ٣٥ »)

فادع غيرى الى عبادة ربيـــن ، فانى بواحد مشغول »

صالح بن عبدالقدوسى (١)

وأحضر «صالح بن عبدالقدوس» وأحضر النطع والسياف ، فقال : « علام تقتلنى ؟ » قال : « على قولك :

« رب سر كتمته ، فكأنى أخرس ، أو ثنى لسانى عقل
ولوَ انى أظهرت للناس دينى لم يكن لى فى غير حبسى ـ أكل »

ياعدى الله وعدى نفسه !

« الستر دون الفاحشات ، ولا يلقاك ـ دون الخير ـ من ستر ! »

فقال : « قد كنت زنديقا ، وقد تبت عن الزندقة ! » قال : « كيف؟ وأنت القائل :

« والشيخ لا يترك عاداته حتى يوارى فى ثرى رمسه
اذا ارعوى عاد الى غيه كذى الصنى عاد الى نكسه »

وأخذ غفلته السياف ، فاذا رأسه يتدهدأ (٢) على النطع (٣)

القصار الأعور

وظهر فى أيامه ـ خلف بخارى وراء النهر ـ رجل قصار أعور ، عمل له وجهاً من ذهب ، وخوطب برب العزة ، وعمل لهم قمراً فوق جبل ، ارتفاعه فراسخ ، فأنفذ المهدى اليه ، فأحيط به وبقلعته ، فحرق كل شىء فيها ، وجمع كل من فى البلد ، وسقاهم شرابا مسموماً ، فماتوا بأجمعهم ، وشرب فلحق بهم ، وعجل الله بروحه إلى النار !

الصناديقي (٤)

والصناديقى فى اليمن ، خوطب بالربوبية ، وكوتب بها ، فكانت له دار افاحة ،

---

(١) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٣٨ ») (٢) يتدحرج (٣) بساط من الأدم
(٤) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٣٩ »)

يجمع اليها نساء البلدة كلها ، ويدخل الرجال عليهن ليلا !

قال من يوثق بخبره : « دخلت اليها لأنظر ، فسمعت امرأة تقول : « يابنى » فقال : « يا أمه ، نريد أن نمضى أمر ولى الله فينا ! » وكان يقول : « اذا فعلتم هذا لم يتميز مال من مال ، ولا ولد من ولد ، فتكونون كنفس واحدة (١) » فغزاه « الحسنى » من صنعاء ، فهزمه ، وتحصن منه فى حصن هناك ، فأنفذ اليه «الحسنى » طبيباً بمبضع مسموم ، فقصده به ، فقتله

الوليد بن يزيد (٢)

والوليد بن يزيد ، أقام فى الملك سنة وشهرين وأياماً ، وهو القائل :

«اذا متيا«أم الحنيكل »فانكحى ، ولا تأملى بعد الفراق تلاقيا

فان الذى حدثته من لقائنا أحاديث طسم تترك العقل واهياً

فرمى المصحف بالنشاب ، وخرقه وقال :

« اذا ما جئت ربك يوم حشر فقل: « يارب خرقنى الوليد(٣) ! »

وأنفذ الى مكة بناء مجوسيا ، ليبنى له على الكعبة مشربة ، فمات قبل تمام ذلك ، فكان الحجاج يقولون : « لبيك اللهم لبيك ، يا قاتل الوليد بن يزيد »

واحضر بنايجة من ذهب ـ وفيها جوهرة جليلة القدر ـ صورة رجل ، فسجد له وقبله ، وقال : « اسجد له يا علج ! » قلت : « ومن هذا ؟ » قال : « هذا مانى (٤) ، شأنه كان عظيما ، اضمحل أمره لطول المدة » فقلت : « لايجوز السجود

---

(١) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٤٠ ») (٢) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٤٤ »)

(٣) يروى له قبل هذا البيت قوله :

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

وكان قد فتح المصحف ذات يوم ليتفاءل به فوجد فيه : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » فاحتدم غضبه ، ومزقه وقال هذين البيتين . وفى رواية اخرى : « فقل : يارب مزقنى الوليد ! »

(٤) «مانى» هو زعيم المذهب المانوى ومؤسسه ، ظهر فى ايام سابور بن ازدشير وقتله بهرام ابن هرمز بن سابور سنة ٢٧٧ م. وهو يزعم أن العالم مصنوع من اصلين قديمين . هما النور والظلمة وأنهما أزليان سرمديان . وانه ما من شىء الا وهو من اصل قديم ، وأن الخير كله من النور ، والشر كله من الظلمة ، وقد اشار المتنبى الى ذلك فى قوله يمدح كافور الاخشيدى :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر ان المانوية تكذب

وفاك ردى الاعداء ـ تسرى اليهم ـ وزارك فيه ذو الدلال المحجب

الا لله » فقال : « قم عنا »

* * *

وكان يشرب على سطح ـ وبين يديه باطية كبيرة بلور ، وفيها أقداح ـ فقال لندمائه : « أين القمر الليلة ؟ » فقال بعضهم : « فى الباطية » فقال : « صدقت ، أتيت على ما فى نفسى ، والله لاشربن الهفتجة (١) » وكان بموضع حول دمشق يقال له « البحر » فقال :

« تلعّب بالنبوة هاشمي بلا وحى أتاه ولا كتاب »

فقتل بها ، ورأيت رأسه فى الباطية التى أراد أن يهفتج بها

أبو عيسى بن الرشيد (٢)

وأبو عيسى بن الرشيد ، القائل :

دهانى شهر الصوم ، لا كان من شهر ولا صمت شهرا بعده آخر الدهر
ولو كان يعدينى الامام بقدرة على الشهر ، لاستعديت دهرى على الشهر

عرض له فى وقته صرع ، فمات ، ولم يدرك شهراً غيره ، والحمد لله!

الجنابى (٣)

والجنابى ، قتل بمكة الوفا ، واستملك من النساء والغلمان ، من ضاق بهم الفضاء كثرة ، وأخذ حجر الملتزم ، وظن أنها مغناطيس القلوب ، وأخذ الميزاب ، قال : « وسمعت قائلا يقول لغلام دحسان (٤) طوال ، يرفل فى برديه ، وهو فوق الكعبة : « يا رخمة ! أقلعه وأسرع » (يعنى ميزاب الكعبة) ـ فعلمت أن أصحاب الحديث صحّفوه ، فقالوا : « يقلعه غلام اسمه « رحمة » » ، كما صحفوا على

---

(١) شرب الخمر سبعة اسابيع متتالية
(٢) ارجع الى (حـ « ٢ » ص « ٤٥ ») (٣) ارجع الى (جـ « ٢ » ص « ٤٦ »)
(٤) شديد السمرة سمين غليظ

«علىّ» ـ رضى الله عنه ـ قوله : « تهلك البصرة بالريح » فهلكت بالزنج (١) !

(١) هلاك البصرة بالزنج

فى سنة سبع وخمسين ومائتين اكتسح الزنج مدينة « البصرة » عنوة وأتوا فيها من صنوف القسوة والبربرية مايفوق الوصف شناعة ووحشية !

كان أول من واقع أهل البصرة « على بن ابان » فى جماعة من الزنج والاعراب، وكان بهـا يومئذ « بغراج » فى جماعة من الجند ، فأقام يقاتلهم يومين ، ومال الناس نحوه ؛ وأقبل يحيى بمن معه ، قاصدا نحو الجسر

دخل على بن ابان المهلّبى (لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال) وقت صلاة الجمعة ، قال محمد بن سمعان : « فانى يومئذ (يوم الجمعة) لفى المسجد الجامع . إذ ارتفعت نيران ثلاث من ثلاثة أوجه ، زهران والمربد وبنى حمان ، فى وقت واحد ، كأن موقديها كانوا على ميعاد ، وجل الخطب . وأيقن أهل البصرة بالهلاك، وسعى من كان فى المسجد الجامع الى منازلهم ، ومضيت مبادرا الى منزلى (وهو يومئذ فى سكة المربد) فلقينى منهزمو اهل البصرة راجعين نحو المسجد الجامع وفى آخرهم القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشمى ـ وهو على بغلة متقلد سيفه ، يصيح بالناس ـ : « ويحكم ! أتسلمون بلدكم وحرمكم ؟ هذا عدوكم قد دخل البلد ! » فلم يلووا عليه ، ولم يسمعوا منه ، فمضى وانكشفت سكة المربد ، فصار بين المنهزمين والزنج فيها فضاء يسافر فيه البصر ، وقد أقام « ابن ابان » يقتل ويحرق يوم الجمعه وليلة السبت ويوم السبت

وغادى « يحيى » البصرة فى يوم الاحد ـ مبيما الجسر بمن معه ـ فتلقاه « بغراج » و « بريه » فى جمع ، فردوه ، فرجع يومه ذلك ، ثم غاداهم اليوم الآخر ، فدخل وقد تفرق الجند وهرب « بريه » وانحاز « بغراج » بمن معه ، فلم يكن فى وجهه أحد يدافعه

ولقيه ابراهيم بن يحيى المهلبى ؛ فاستأمنه لأهل البصرة فأمنهم ، فنادى منادى ابراهيم : « من أراد الامان فليحضر دار ابراهيم » فحضر أهل البصرة قاطبة، حتى ملئوا الرحاب ، وهم مطمئنون لما اعطوه من الامان !

* * *

وقال فى خطبته ـ يخاطب الزنج ـ :

قال الحسن بن عثمان المهلبى ـ وكان من أصحاب « يحيى بن محمد » ـ محدثا محمد بن سمعان ـ:

« أمرنى يحيى فى تلك الغداة بالمسير الى مقبرة بنى يشكر ، وحمل ما كان هناك من التنانير ، فسرت اليها ، فحملت نيفا وعشرين تنورا على رءوس الرجال ، حتى أتيت بها دار ابراهيم بن يحيى ـ والناس يظنون انها تعد لاتخاذ طعام لهم ـ وهم من الجوع وشدة الحصار والجهد على امر عظيم ، وكثر الجمع بباب ابراهيم بن يحيى ، وجعلوا ينوبون ويزدادون حتى اصبحوا ، وارتفعت الشمس

قال ابن سمعان « وانا يومئذ قد انتقلت من سكة المربد من منزلى الى جد أمى هشام (المعروف بالداف) ـ فانى لهناك اذ اتى المخبرون بخبر الواقعة بحضرة دار ابراهيم ابن يحيى ، فذكروا ان يحيى بن محمد البحرانى امر الزنج فاحاطوا بذلك الجمع ، ثم قال: « من كان من آل المهلب فليدخل دار ابراهيم بن يحيى » فدخلت جماعة قليلة ، واغلقوا الباب دونهم ـ ثم قيل: « دونكم الناس فاقتلوهم ولا تبقوا منهم واحداً »

فخرج اليهم محمد بن عبدالله المعروف بأبى الليث الاصبهانى فقال للزنج : « كيلوا » وهى العلامة التى كانوا يعرفونها فيمن يؤمرون بقتله ، فأخذ الناس السيف

قال الحسن بن عثمان « فانى لأسمع تشهدهم وضجيجهم وهم يقتلون ، ولقد ارتفعت أصواتهم بالتشهد حتى سمعت بالطفاوة ، وهم على بعد من الموضع الذى كانوا به »

وهكذا انتهز « يحيى » هذه الفرصة فغدر بمن أمنهم ، وأمر بأخذ السكك والطروق والدروب لئلا يتفرقوا ، وهكذا قتل كل من شهد ذلك الموقف الا الشاذ !

قال الحسن بن عثمان : « ولما أتى على الجمع الذى ذكرناه أقبل الزنج على قتل

« انكم قدأعتم بقبح منظر ، فاشفعوه بقبح مخبر ، اجعلوا كل عامر قفرا ، وكل بيت قبرا »

من أصابوا »

« ودخل «على بن أبان» يومئذ فأحرق المسجد الجامع ، وراح الى الكلأ فأحرقه من الجبل الى الجسر ، والنار فى كل ذلك تأخذ فى كل شىء مرت به ، من انسان وبهيمة وأثاث ومتاع .

ثم ألحوا بالغدو والرواح على من وجدوا ، يسوقونهم الى « يحيى بن محمد » فمن كان ذا مال قرره حتى يستخرج ماله ويقتله ، ومن كان مملقا قتله ، وبقوا كذلك عدة أيام ، ثم أمر يحيى أن ينادى بالامان ليظهروا ، فلم يظهر أحد .

ولما انتهى الامر الى « الخبيث » — صاحب الزنج — صرف على بن ابان عنها وأقر « يحيى » عليها ، لموافقته هواه فى كثرة القتل ، وصرف عليا لابقائه على أهلها ، فهرب الناس على وجوههم ، وصرف الخبيث جيشه عن البصرة (١) »

***

وقد أظهر « ابن الرومى » شناعة « الزنج » ووحشيتهم فى ميميته الفذة التى وصف فيها دخولهم « البصرة » وما أتوه فيها من الهول ، وهى قصيدة رائعة فياضة بالشاعرية العالية نختار منها قوله :

بينما أهلها بأحسن حال ... اذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليـ ... ـل ، اذا راح مدلهم الظلام
أى هول رأوا بهم ! أى هول ... حق منه يشيب رأس الغلام
اذ رموهم بنارهم من يمين ... وشمال وخلفهم وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصوا من طاعم بطعام

الى ان يقول :

عرّجا صاحبى بالبصرة الزهـ ... ـراء ، تعريج مدنف ذى سقام

---

(١) ملخصة عن ابن الاثير والطبرى وابن خلدون

* * *

قال « أبو عبدالله بن رزام » الطائى الكوفى :

« كنت بمكة — وسيف الجنابى — قد أخذ الحاج ، ورأيت رجلا منهم قد قتل جماعة — وهو يقول : ،، يا كلاب ! أليس قال لكم « محمد المكى » : « من دخله[1] كان آمناً » أى أمن هنا ؟ ،، فقلت له : « يافتى العرب ! تؤمننى سيفك أفسر لك هذا ؟ » قال : « نعم » قلت : فيها خمسة أجوبة الأول : « من دخله كان آمناً من عذابى يوم القيامة » والثانى « من الفرض الذى فرضت عليه » والثالث : « خرج مخرج الخبر — وهو يريد الأمر ، كقوله : والمطلقات يتربصن بأنفسهن » والرابع : « لا يقام عليه الحد فيه ، اذا جنى فى الحل » والخامس : « من الله عليهم بقوله : انا جعلنا حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم »

فقال : « صدقت ! هذه اللحية الى توبة ! » فقلت : « نعم » فخلانى وذهب

الحلاج[2]

والحسين بن منصور الحلاج ، من نيسابور ، وقيل من « مرو » يدعى كل علم ، وكان متهوراً جسوراً ، يروم اقلاب الدول ، ويدعى فيه أصحابه الالهية ، ويقول بالحلول ، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب الصوفية للعامة ، وفى تضاعيف

فاسألاها — ولا جواب لديها لسؤال — ومن لها بالكلام !
« أين ضوضاء ذلك الخلق فيها أين أسواقها ذوات الزحام ؟ »

ثم يقول :

رب قوم باتوا بأجمع شمل تركوا شملهم بغير نظام

والقصيدة على هذه الوتيرة من دقة الوصف وروعة الاسلوب ، وهي طويلة يجدها القارىء فى الجزء الثالث من « ديوان ابن الرومى » من (ص ٤١٩ — ٤٢٧) وأحب ألا تفوته

(١) يعنى البيت الحرام (٢) ارجع الى ج « ٢ » ص « ٥٠ »

ذلك ؛ يدعى أن الالهية قد حلت فيه ، وناظره على بن عيسى الوزير ، فوجده صفرا من العلوم ؛ وقال : تعلمك لطهورك وفرضك ، أجدى عليك من رسائل ، أنت لاتدرى ماتقول فيها ، كم تكتب الي الناس : « تبارك ذو النور الشعشعانى الذى يلمع بعد شعشعته » ما احوجك الى أدب !

* * *

حدثنى أبو على الفارسى ، قال : « رأيت الحلاج واقفاً على حلقة أبى بكر الشبلى ، فنفض كمه فى وجهه ، وأنشد :

ياسر سر يدق حتى يجل عن وصف كل حى
وظاهرا باطنا ، تبدى من كل شىء ، لكل شى
ياجملة الكل : لست غيرى فما اعتذارى اذن الى

وهو يعتقد أن العارف ابن الله ، بمنزلة شعاع الشمس ، منها بدا ، واليها يعود ، ومنها يستمد ضوءه ـ أنشدنى « الظاهر » لنفسه :

أرى جيل التصوف شر جيل فقل لهم ـ وأهون بالحلول :
أقال الله ـ حين عشقتموه ـ : « كلوا أكل البهائم وارقصوا لى؟ » :

وحرك يوما يده ، فانتثر مسك ، وحرك مرة اخرى ، فانتثر دراهم ، فقال له بعض من حضر ـ ممن يفهم ـ : « أرنى دراهم معروفة ـ أومن بك ، وخلق معى ، ان اعطيتنى درهما ، عليه اسمك واسم ابيك » فقال : « وكيف هذا ، وهذا لا يصنع ؟ » قال : « من أحضر ما ليس بحاضر ؛ صنع ما ليس بمصنوع ! »

وكان فى كتبه : « انى مغرق قوم نوح ، ومهلك عاد وثمود » فلما شاع أمره وعرف السلطان خبره ـ على صحة ـ وقع بضربه ألف سوط ، وقطع يديه ، ثم أحرقه بالنار ، فى آخر سنة تسع وثلثمائة ، وقال لحامد بن العباس : « أنا اهلكك » فقال حامد : « الآن صح انك تدعى ما قرفت به ! »

ابن ابى العذافر

وابن ابى العذافر [1] ، وصورته صورة الحلاج ، ويدعى عنه قوم أنه اله ،

(١) هو « أبو جعفر محمد بن على الشلمغان » أصله من قرية من قرى واسط تعرف بشلمغان ،

وأن الله حل فى آدم ، ثم فى شيث ، ثم فى واحد واحد من الأنبياء والأوصياء والأئمة ، حتى حل فيه ، وكان قد استغوى جماعة منهم «ابن ابى عون» صاحب كتاب التشبيه ، ومعه ضربت عنقه ، وكانوا يبيحونه حرمهم واولادهم يتحكم فيهم ، وكان يتعاطى « الكيمياء » وله كتب معروفة

ابن الراوندي(١)

وكان احمد بن يحيى الراوندى ، من أهل « مرو الروز » حسن الستر ، جميل المذهب ، ثم انسلخ من ذلك كله ، بأسباب عرضت له ، ولأن علمه كان اكثر من عقله ، وكان مثله كما قال الشاعر :

« ومن يطيق مرداً (٢) عند صبوته ومن يكون لمستور (٣) ـ اذا خلعا (٤) »

مصنفاته

صنّف : (١) كتاب « التاج » يحتج فيه لقدم العالم ، فنقضه ابن الخياط

---

(١) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ٧٠ ـ ٧٣ و ١٠٤ »)

(٢) طويل العزوبة ، وفى رواية اخرى « مذك » اى مسن ـ وهى اجود واليق (٣) عفيف (٤) اصبح خليعا . وهذا البيت من قصيدة جميلة لمحمد بن بشير الانصارى . وقد ذكرها صاحب الأمالى فقال :

قال « عبد الله بن محمد بن بشير » البصرى : « علق أبى جارية لبعض الهاشميين . فبعثت اليه امى تعاتبه . فكتب اليها الابيات التالية :

لا تتبعن لوعة ـ اثرى ـ ولا هلعا ولا تقاسن بعدى ـ الهم والجزعا
بل ائتسى تجدى ـ ان ائتسيت ـ اسا بمثل ما قد جمعت اليوم ـ قد جمعا

***

ما تصنعين بعين عنك طامحة الى سواك . وقلب عنك قد نزعا ؟
ان قلت: « قد كنت فى ود وتكرمة » فقد صدقت ، ولكن ذاك قد منعا
واى شىء من الدنيا سمحت به الا ـ اذا صار فى غاياته ـ انقطعا !

***

لم تبق عينا « حسين » عند لحظهما ـ لغيرها فى فؤادى بعدها طمعا
ومن يطيق مذك ـ عند صبوته ؟ ومن يقوم لمستور ـ اذا خلعا

(٢) الزمرد . يحتج فيه لابطال الرسالة ، نقضه الخياط

(٣) نعت الحكمة ، سفه الله ـ تعالى ـ فى تكليف خلقه أمره ، نقضه الخياط

(٤) الدامغ ، يطعن فيه على نظم القرآن .

(٥) القضيب ، يثبت أن علم الله محدث ، وانه كان غير عالم ، حتى خلق لنفسه علما ، نقضه الخياط

(٦) الفريد ، فى الطعن على النبى ، عليه الصلاة والسلام

(٧) المرجان ، فى اختلاف أهل الاسلام

احتضار ابن الرومى (١)

مثال من طبرته

قال أبو عثمان الناجم : دخلت عليه فى علته التى مات فيها ، وعند رأسه جام ـ فيه ماء مثلوج ، وخنجر مجرد ، لو ضرب به صدر ، خرج من ظهر ـ فقلت : « ماهذا ؟ » قال : « الماء ، أبل به حلقى ، فقلما يموت انسان الا وهو عطشان ، والخنجر ، ان زاد علىّ الألم ، نحرت نفسى » ثم قال : ,, أقص عليك قصتى ، تستدل بها على حقيقة تلقى ! أردت الانتقال من الكرخ الى البصرة ، فشاورت صديقنا أبا الفضل ، وهو مشتق من الافضال ، فقال : اذا جئت القنطرة ، فخذ عن يمينك ، وهو من اليمن ، واذهب الى سكة النعيمة ، وهو مشتق من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافى ، وهو مشتق من العافية ، ـ فخالفته لتعسى ونحسى !

فشاورت صديقنا جعفرا ـ وهو مشتق من الجوع والفرار ـ فقال : « اذا جئت القنطرة ، فخذ على شمالك ، وهو مشتق من الشؤم ، واسكن دار ابن قلابة ، وهى هذه ، لاجرم قد انقلبت بى الدنيا ، ـ وأضر ما علىّ العصافير ، فى هذه السدرة ، تصيح « سيق سيق » فها أنا فى السياق ! ،، ثم أنشدنى :

---

(١) ارجع الى (ج « ٢ » من ص ٧٣ — ٩٤)

« أبا عثمان ! أنت قريع قومك، وجودك للعشيرة دون لومك
تمتع من أخيك، فما أراه يراك، ولا تراه بعد يومك

وألح به البول، فقلت له : « البول ملح بك » فقال :

غداً ينقطع البول ويأتى الويل والعول
الا إن لقـاء اللـــه هول ـ دونه الهول

ومات من الغد، فأرجو أن يكون هـذا القول توبة له مما كان اعتقده من ذبح نفسه !

أبو تمام (١)

قال الحسن بن رجاء الكاتب : جاءنى أبو تمام الى خراسان، فبلغنى أنه لا يصلى، فوكلت به من لازمه أياماً، فلم يره صلى يوماً واحداً، فعاتبته، فقال : « يامولاى ! قطعت الى حضرتك من بغداد، فاحتملت المشقة وبعد الشقة، ولم أره يثقل على، فلو كنت أعلم ان الصلاة تنفعنى، وتركها يضرنى، ما تركتها ! » فأردت قتله، فخشيت أن يحمل على غير هذا

ابو جعفر بن محمد

قد ظهر بالبصرة من يدعى أنه جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ وانه متصل به، وروحه فيه، ومتصلة به، ولو استقصيت القول فى هذا الفن لطال جدا، ولـكن

لا بد للمصـدور أن ينفثا وللذى فى الصدر أن يبعثا

بل لو قلت كل ما أعلمه، أكلت زادى فى محبسى، بل كنت أنشد :

أحمل رأسا قد مللت حمله ألا فتى يحمل عنى ثقله (٢)

---

(١) ارجع الى (جـ «١» ص «١٨٣» ، وجـ «٢» ص «٩٤ـ٩٦»)

(٢) هذا من رجز الشاعرة المبرزة « أم حكيم » وهي من شواعر « الخوارج » وممن يضرب بهن المثـل فى الاقدام والشجاعة، كانت تحمل على الناس وترتجز :

واستريح الى ان أنشد :

ليس يشفى كلوم غيرى كلومى ما به ما به ، وما بى ما بى

شكوى الزمان

ان شكوت العصر واحكامه ، وذممت صروفه وأيامه، شكوت من لا يشكى أبدا ، وذممت من لا يرضى أحدا ، شيمته اصطفاء اللئام ، والتحامل على الكرام ؛ ورفع الوضيع، ووضع الرفيع؛ ظاهره يسر ويونس، وباطنه يسوء ويؤيس، وقعت فيه أنا كالغريق يطلب معلقا والاسير يندب مطلقاً، واستحسن قول على بن العباس ابن جريج الرومى :

ألا ليس شيبك بالمنتزع فهل أنت عن غيه مرتدع ؟
وهل أنت تارك شكوى الزمان اذا شئت تشكو الى مستمع ؟
فشيب أخى الشيب أمنيـة اذا ما تنـاهى اليها هلع (١)

عزوف ابن القارح عن الغوانى

كنت فى حال الحداثة أقرب النـاس الى ، وأعزهم على ، من قال لى : « جعل الله لك أمد الاعمار واطولها » فلما بلغت عشر الثمانين ، جاء الجزع والهلع ، فهم

« أحمل رأسا ، قد مللت حمله وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عنى ثقله ؟ »

وفيها يقول « قطرى بن الفجاءة » ميميته المشهورة

« لعمرى انى فى الحياة لزاهد وفى العيش ـ ما لم ألق أم حكيم !
من الخفرات البيض ـ لم ير مثلها شفاء لذى بث ، ولا لسقيم
لعمرك إنى ـ يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر ـ جد لئيم

الى آخر القصيدة

(١) ومن اجمل ما فى تلك القصيدة قوله :

وطول البقاء حبيب الفتى ولكن بأى مقيت شفع
اذا المرء طالت به مدة علا الشيب مفرقه أو هلع

وقوله :

وشيخوخة المرء أمنية متى ـ ماتناهى اليها ـ هلع

أرتاع ، وهو الذى كنت اتمنى ، ويتمنى لى أهلى من صدوف الغوانى عنى ، فأنا والله عنهن أصدف ، وبهن وأدوائهن أعرف ، اذ لست ممن ينشد تحسرا عليهن قول البحترى :

ان أيامه من البيض بيض ما رأين المفارق السود سودا
بلدة تنبت المعالى ، فما يثـ غر الطفل فيهم أو يسودا (١)

وهذه صفة معرة النعمان ، لاخلت منه ، فقد وجدت أهلها معترفين بعوارفه

قريش والنبى

قالت قريش للنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أتباعك من هؤلاء الموالى ، كبلال وعمار وصهيب ، خير من قصى بن كلاب ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد شمس ؟ » فقال : « نعم ! والله لئن كانوا قليلا ليكثرن ، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفن حتى يصيروا نجوما يهتدى بهم ويقتدى ، فيقال : « هذا قول فلان ، وذكر فلان » فلا تفاخرونى بآبائكم الذين موتوا فى الجاهلية ، فانما يدهده الجعل بمنخره ، خير

---

(١) من قصيدة للبحترى أولها :

انما الغى أن تكون رشيدا فانقصا من ملامة ، أو فزيدا
خلياه وجدة اللهو ـ ما دا م رداء الشباب غضا جديدا ـ
ان أيامه من البيض بيض ما رأين المفارق السود سودا

ومنها :

ان فى السرب ـ لو يساعدنا السر ب ـ شموسا يمشين مشيا وئيدا
يتدافعن بالأكف ويعرضـ ن علينا عوارضا وخدودا

الى أن يقول :

ذات حسن لو استزادت من الحسـ ن اليه ، لما أصابت مزيدا

من آبائكم الذين موتوا فيها ، فاتبعونى ، أجعلكم أنسابا ، والذى نفسى بيده ؛ لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر ! ،،

فقال له عمه أبو طالب : « ابق على وعلى نفسك »

فظن ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه خاذله ومسلمه ، فقال : « يا عم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى شمالى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو اهلك فيه ، ما تركته » ثم استعبر باكيا ، ثم قام ، فلما ولى ، ناداه : « أقبل يا ابن أخى ! » فاقبل ، فقال : « اذهب وقل ما شئت ، فوالله لا أسلمتك لسوء ابدا » فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يذكر ، يوما ، ما لقى من قومه من الجهد والشدة ، قال : « لقد مكثت أياما ، وصاحبى هذا ـ يشير الى أبى بكر ـ بضع عشر ليلة ، ما لنا طعام الا البربر فى شعب الجبال »

صبر الصحابة

عاقبة الصبر

وكان عتبة بن غزوان يقول ـ اذا ذكر البلاء والشدة التى كانوا عليها بمكة ـ: « لقد مكثنا زمانا ، ما لنا طعام الا ورق البشام ، أكلناه حتى تقرحت أشداقنا ولقد وجدت يوما تمرة ، فجعلتها بينى وبين سعد ، وما منا اليوم ، الا وهو أمير على كورة »

وكانوا يقولون ـ فيمن وجد تمرة ، فقسمها بينه وبين صاحبه ـ: « ان أسعد الرجلين من حصلت النواة فى قسمه ، يلوكها طول يومه وليلته ، من عدم القوت » وكذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد رعيت غنيمات أهل مكة لهم بالقراريط »

بدء الدعوة

وابتداء أمره ، أنه وقف على الصفا ، ونادى : « يا صباحاه ! »

فجاءوا يهرعون ، فقالوا : « ما دهمك ؟ ما طرقك ؟ »

قال : « بم تعرفونني ؟ » قالوا : « محمد الأمين »

قال : « أرأيتم ، ان قلت لكم إن خيلا قد طرقتكم في الوادى ، وان عسكرا قد غشيكم من الفج ، أكنتم تصدقونني ؟ » قالوا : « اللهم نعم ! ، ما جربنا عليك كذبا قط ! » قال : « فان الذى أنتم عليه ، ليس لله ، ولا من الله ، ولا يرضاه الله ! قولوا : « لا اله الا الله » واشهدوا انى رسوله ، واتبعونى تطعكم العرب ، وتملكوا العجم ، وان الله قال لي : « استخرجهم كما استخرجوك ، وابعث جيشا أبعث خمسة أمثاله وضمن لى أنه ينصرنى بقوم منكم ، وقال لى: « قاتل بمن أطاعك من عصاك » وضمن لى أنه يغلب سلطانى سلطان كسرى وقيصر »

ثم انه ـ عليه الصلاة والسلام ـ غزا تبوك فى ثلاثين الفا ، وهذا من قبل الله ، الذى يجعل من لا شيء ، كل شيء ، ويجعل كل شيء لا شيء ، يجمد المائعات ، ويميع الجامدات ، يجمد البحر ، ثم يفجر الصخر ، وما مثله فى ذلك الا كمثل من قال « هذه النملة الضعيفة ، تهزم العساكر الكثيرة » وكذا حقيقة أمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى لقد قال عروة بن مسعود الثقفى لقريش ، وكان رسولهم اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحديبية : « لقد وردت على النجاشى ، وكسرى ، وقيصر ، ورأيت جندهم وأتباعهم ، فما رأيت أطوع ولا أوقر ولا أهيب من أصحاب محمد لمحمد هم حوله وكأن الطير على رءوسهم ، فان أشار بأمر ، بادروا اليه وان توضأ ، اقتسموا وضوءه »

وكانوا له بعد موته أطوع منهم فى حياته ، حتى لقد قال بعض أصحابه : « لا تسبوا أصحاب محمد ، فانهم أسلموا من خوف الله ، وأسلم الناس من خوف أسيافهم »

فتأمل كيف استفتح دعوته وهو ضعيف ، وما كان مثله فى ذلك الا مثل من قال : « هذه الهباءة تعظم وتصير جبلا يغطي الارض كلها » ثم أنذر الناس بها فى حال ضعفها :

العبدرى والنبى

وجاء صلى الله عليه وسلم ، يوما ، ليدخل الكعبة ، فدفعه «عثمان بن طلحة العبدرى» فقال : « لا تفعل يا عثمان ، فكأنك بمفتاحها بيدى ، أضعه حيث شئت » فقال : « لقد ذلت يومئذ قريش وقلت » قال : « بل كثرت وعزت »

مساوئ الدنيا

وأنا أستعين بعصمة الله وتوفيقه ،واجعلهما معينتى على دفع شهواتى ، وأشكو اليه عكوفى على الامانى ، وأسأله فهما لمواعظ الدنيا ، فقد عميت ، ولست أجد منى حاجزا لرغبتى فيها ـ، ياأولى الابصار! صفحناعن مساوئ الدنيا اغماضا لعاجل موفق التنغيص ، ترمى اليه يد الزوال ، وتكمن له الآفات !

قال كثير :

« كأنى أناجى صخرة ـ حين أعرضت ـ من الصم ، لو تمشى بها العصم زلت »

وأقول على مذهب « كثير » : « يادنيا ! فى كل لحظة لطرفى منك عبرة ، وفى كل فكرة لى منك حسرة ، يامرنقة الصفا ، ويانا قضة عهد الوفا ! ماوفق ـ لحظة ـ من عرج نحوك ، ولا سعد من آثر المقام على حسن الظن بك !هيهات يامعشر أبناء الدنيا ! لكم فى الظاهر اسم « الغنى » وفى الباطن « أهل التقلل »

كل صفاء الى كدر

كم من يوم لى أغر كثير الأهله ، قد أصحت سماؤه ، وامتد على ظله ، تمدنى ساعاته بالمنى ، ويضحك لى بها عن كل ما أهوى ، حتى اذا اتصل بكل اسبابى وامتزج سروره بفرحى وروحى وأترابى ، نفست على به الدنيا ، فسعت بالتشتيت الى ألفته ، والنقص الى مدته ،فكسفت بهجته كسوفا ،وأرهقت نضرته ، وحشته الفراق ، وقطعتنا فرقا فى الآفاق ـ بعد ان كنا كالأعضاء المؤتلفة ، والاغصان اللدنة المنعطفة !

حسرة وندم

واحسرتى فى يوم يجمع شرتى كفن ولحد :

ضيعت مالا بد منه بالذى لى منه بد

وانشد قول ابن الرومى :

الا ليس شيبك بالمنتزع فهل أنت عن غيه مرتدع (١)

فأقلق وأبكى بكاء غير نافع ، وانشد

لسانى يقول ولا أفعل وقلبى يريد ولا أعمل

وأعرف رشدى، ولا أهتدى وأعلم — لكننى أجهل

الخمر

عرض على بعض الناس كأس خمر ، فامتنعت منها ، وقلت « خلونى والمطبوخ على مذهب الشيخ الأوزاعي »، وقلت لهم : « عرض ابراهيم بن المهدى على محمد ابن خازم الخمرة ، فامتنع ، وانشد :

أبعد شيبى أصبو والشيب للجهل حرب

سن وشيب وجهل أمر لعمرك صعب

يا ابن امام فألا (٢) أيام عودى رطب (٣)

وإذ مشيبى قليل ومنهل الحب عذب

واذ شفاء الغوانى منى حديث وقرب

فالآن — لما رأى بى العذال ماقد أحبوا

وآنس الرشد منى قوم — أعاب وأصبو ؟

آليت أشرب خمرا ما حج لله ركب

---

(١) ارجع الى ص «١٨» من هذا الجزء

(٢) بمعنى « فهلا »

(٣) يقول « أأصبو بعد الشيب ؟ أفا كان يجدر بى ذلك فى وقت صباى ؟ »

توبة

واقبلت على نفسى مخاطبا ، ولها معاتبا ، والخطاب لغيرها ، والمعنى لها ـ:

لقدأمهلكم حتى كانه أهملكم ؛ اما تستحيون من طول مالا تستحون، فكن كالوليدتقلبه يد اللطيف به ، على فراش العطف عليه ، تصرف اليه المنافع بغير طلب منه لصغره وتصرف عنه المضار بغير حذر منه لعجزه ، اما سمعت الرسول ـ عليه الصلاة والسلام اذ يقول فى دعائه « اللهم اكلانى كلاة الوليد الذى لا يدرى مايراد به ، ولا ما تريد » جل من لوالب القلوب والهمم بيده . وعزائم الاحكام والاقسام عنده :

« انسيت ذكر احبة ينسون ذنبك ـ عند ذكرك
وجفوتهم . ولطالما كانوا ـ خلافك ـ طوع أمرك
وصبرت عند فراقهم ، ماكان عذرك عند صبرك ؟

***

تركك من ـ اذا جفوته ، ونسيت ذكره . وتعديت حده . وتركت نهيه ، وضيعت امره ـ ونبت اليه ، وعولت فى تفضله عليه ، وقلت : « يارب ! » قال : « لبيك » (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب .)

اليس يقول لك : « ماغرك بى » فتقول . « حلمك ، والا ـ لو ارسلت على بذة لجمعتنى عليك ـ اذا اردت ان تخمعنى » ـ:

ادنياى من غمر بحر الهوى خذى بيدى ـ قبل ان اغرقا
انا لك عبد . فكونى كمن ـ اذا سره عبده ـ أعتقا

صيغة فاذوه [1]

كان ببغداد رجل كبير الرأس ، فيلى الاذنين ، اسمه « فاذوه » رأسه فى الأزمنة الاربعة مكشوف ، لايتورع عن ركوب مخزية ، يقال له « يافاذوه! ويلك تب الى الله » فيقول : « ياقوم : لم تدخلون بينى وبين مولاى ، وهو الذى يقبل

(١) ارجع الى (ج) « ٢ » ص « ١٢١ »

التوبة عن عباده» فكان فى بعض الشوارع يوما ذاهبا . والشارع قد اتسع أسفله وضاق اعلاه ، والتقت جناحان فيه ، فناولت جارة جارتها مهراسا انسل من يدها على رأس «فاذوه» فهرس رأسه ، وخلط كخلط الهريسة ، وأعجله عن التوبة ، وكان لنا واعظ صالح يقول لنا : « احذروا ميتة فاذوه »

بدء التعارف

بلغنى عن مولاى الشيخ - ادام الله تأييده - أنه قال وقد ذكرت له -: « اعرفه جدا ، هو الذى هجا أبا القاسم على بن الحسين المغربى »

فذلك منه - ادام الله عزه - رائع لى ، خوفا أن يستشر طبعى ، وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر ، وهو بتعريف التنكير انفع لى عنده ، لجلالة قدره ودينه ونسكه ، وأنا أطلعه طلعة :

ترجمة ابن القارح[1]

دراسته وأساتذته

,, كنت أدرس على أبى عبد الله بن خالويه - رحمه الله - واختلف الى دار أبى الحسين المغربى ، ولمامات ابن خالويه ، سافرت الى بغداد ، ونزلت على أبى على الفارسى وكنت اختلف الى علماء بغداد ، الى ابى سعيد السيرافى ، وعلى بن عيسى الرمانى وأبى عبيدة المرزبانى ، وأبى حفص الكتابى ، وكتبت حديث رسول الله (ص) وبلغت نفسى أغراضها جهدى ، والجهد عاذر ،،

سفره الى مصر

مقابلة ابن الحسن المغربى

,, ثم سافرت منها الى مصر ، ولقيت أبا الحسن المغربى ، فألزمنى أن لزمته

(١) ارجع الى (ج « ٢ » ص « ١٢١ » والى ج « ١ » ص « ٢٩ »)

لزوم الظل ؛ وكنت منه مكان المثل ، فى كثرة الانصاف والحنو فقال لى سرا : « انا أخاف همة أبى القاسم أن تنزو به الى ان يوردنا وردا لاصدر عنه» وقال لى يوما : « ما نرضى بالخمول الذى نحن فيه » فقلت : « وأى خمول هنا ؟ تأخذون من مولانا ـ فى كل سنة ـ ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرم » فقال : « اريد أن تصار الى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقانب ، ولا أرضى بأن يجرى علينا كالولدان والنسوان »فأعدت ذلك على أبيه ، فقال : « ما أخوفنى أن يخضب ابو القاسم هذه من هذه » وقبض على لحيته وهامته

وعلم أبو القاسم بذلك فصارت ؛ بينى وبينه وقفة !

وأنفذ الى القائد أبو عبد الله الحسين بن جوهر ، فشرفنى بشريف خدمته ، فرأيت الحاكم كلما قتل رئيساً ؛ أنفذ رأسه اليه ، وقال « هذا عدوى وعدوك يا حسين » فقلت « من يرى يوما ؛ير به ؛ والدهر لايغتر به » وعلمت أنه كذا يفعل به

هجم ابن القارح

فاستأذنته فى الحج ؛ فأذن ، فخرجت فى سنة سبع وتسعين ، وحججت خمسة أعوام

عودته الى مصر ثم هربه

وعدت الى مصر ـ وقد قتله ـ فجاءنى أولاده سراً ، يرومون الرجوع اليهم ، فقلت لهم « خير ما لى ولكم الهرب، ولأبيكم ببغداد خمسمائة الف دينار ، فاهربوا وأهرب » ففعلوا وفعلت

وبلغنى قتلهم بدمشق ، ـ وأنا بطرابلس ـ فدخلت الى أنطاكية ، وخرجت منها الى ملطية ، وبها المايسطرية خولة بنت سعد الدولة ، فأقمت عندها الى أن ورد علىّ كتاب أبى القاسم ، فسرت الى ميافارقين ، فكان يسر حسوا فى ارتغاء قال لى يوما من الايام « ما رأيك ؟ » قلت : « أعرضت حاجة ؟ » قال : « لا ،

أردت أن العنك » قلت : « فالعنى غائباً » قال : « لا ، فى وجهك أشفى » قلت « ولم ؟ » قال : « لمخالفتك اياى فيما تعلم »

* * *

وقلت له ـ ونحن على انس ، بينى وبينه ـ : « لى حرمات ثلاث ، البلدية ، وتربية أبيه لى ؛ وتربيتى لاخوته » قال : « وهذه حرم مهتكة ، البلدية نسب بين الجدران ، وتربية أبى لك ؛ منة لنا عليك ، وتربيتك لاخوتى ؛ بالخلع والدنانير » ـ أردت أن أقول له : « استرحت من حيث تعب الكرام » فخشيت جنون جنونه

* * *

وقال لى ليلة : « أريد أن أجمع أوصاف الشمعة السبعة ، فى بيت واحد ، وليس يسمح ما أرضاه » فقلت : « أنا أفعل من هذه الساعة » فأخذت القلم ، وكتبت بحضرته :

لقد أشبهتنى شمعة فى صبابتى وفى هول ما ألقى وما أتوقع
نحول ـ وحرق فى فناء ـ ووحدة وتسهيد عين واصفرار وأدمع

فقال : « كنت عملت هذا قبل هذا الوقت ؟ » فقلت « تمنعنى سرعة الخاطر وتعطينى علم الغيب ؟ » وكان ابو القاسم ملولا ، لا يمل أن يمل ، ويحقد حقد من لا تلين كبده ، كأنه من كبره قد ركب الفلك ، فلما رأيته سادراً جاريا فى قلة انصافى على غلوائه ، محوت ذكره عن صفحة فؤادى :

فى الناس ان رثت حبالك واصل وفى الارض عن ذات القلى متحول

وأنشدت الرجل أبياتا ، أعتذر بها فى قطعى له :

فلو كان منه الخير ـ اذ كان شره عتيداً ـ لقلنا «إن خيراً مع الشر»
ولو كان ـ اذ لا خير ـ لا شر عنده ، صبرنا ، وقلنا « لا يريش ولا يبرى»
ولكنه شر ، ولا خير عنده وليس على شر ـ اذا دام ـ من صبر

وبغضى له ـ يشهد الله ـ حياً وميتاً ، أوجبه أخذه محاريب الكعبة الذهب والفضة ، وضربها نقوداً ودراهم ، وسماها الكعبية ، وانهب العرب الرملة ، وضرب بغداد ، وكم دم سفك ، وحريم انتهك ، وحرة ارمل ، وصبى ايتم . »

فضل ابي العلاء

وأنا معتذر الى الشيخ الجليل ، وانا فى مكاتبة حضرته بمنظوم ومنثور ، كمن أمد النار بالشرر ، وأهدى الضوء الى القمر ، ولقد سمعت من رسائله عقائل لفظ إن نعتها فقد عبتها ، لو صدرت عن صدر من خزانته وكتبه حوله ، يقلب طرفه فى هذا ، ويرجع الى هذا ، لكان ذلك عجيبا صعبا ، ووالله لقد رأيت علماء منهم «ابن خالويه» اذا قرئت عليهم الكتب ، لا سيما الكبار ، رجعوا الى اصولهم كالمقابلين ، يتحفظون من سهو وتصحيف وغلط ، والعجب النادر ، حفظه ـ أدام الله تأييده ـ لأسماء الرجال ، والمنثور ، كحفظ غيره من الاذكياء المبرزين المنظوم ، وهذا سهل بالقول ، صعب بالفعل ، من سمعه طمع فيه ، ومن رامه امتنعت عليه معانيه ومبانيه

أبو الطيب اللغوى (١)

حدثنى أبو على الصقلى بدمشق قال : « كنت فى مجلس ابن خالويه اذ وردت عليه من سيف الدولة مسائل تتعلق باللغة ، فاضطرب لها ، ودخل خزانته ، وأخرج كتب اللغة ، وفرقها على أصحابه يفتشونها ليجيب عنها

وتركته ، وذهبت الى أبى الطيب اللغوى ـ وهو جالس ، وقد وردت عليه تلك المسائل بعينها ، وبيده قلم الحمرة ـ فأجاب به ، ولم يغيره قدرة على الجواب

وقال ابو الطيب : قرأت على أبى عمر « الفصيح » واصلاح المنطق « حفظا » وقال لى ابو عمر : « كنت اعلق اللغة عن ثعلب على خزف ، وأجلس على دجلة أحفظها وأرمى بها »

(١) ارجع الى « [illegible] » ص « ١٢٣ »

حافظة ابن القارح

وأنا تعبت ، وحفظت نصف عمرى ، ونسيت نصفه ، وذاك انى درست ببغداد ، وخرجت عنها ، وأنا طرى الحفظ ، ومضيت الى مصر ، فأمرجت نفسى فى الاغراض البهيمية ، وأردت ـ بزعمى وخديعة الطبع المليم ـ أن أذيقها حلاوة العيش ، كما صبرت فى طلب العلم والأدب ، ونسيت أن العلم غذاء النفس الشريفة وصيقل الافهام اللطيفة ، وكنت اكتب خمسين ورقة فى اليوم ، وأدرس مائتين فصرت الآن اكتب ورقة واحدة ، وتحكى عيناى حكا مؤلما ، وأدرس خمس أوراق وتكل

أوقات الملل والعزوف عن العلم

ثم دفعت الى أوقات ليس فيها من يرغب فى علم ولا أدب ، بل فى فضة وذهب فلو كنت « اياسا » صرت « باقلا »

وأضع كتابا عن يمينى ، وأطلبه عن شمالى ، وأريد ـ مع ضعفى ـ ارتادلنفسى معاشا ، بظهر غير ظهير ، بل كسيل عقير ، وصلب غير صليب ! ـ ان جلست فهو كالدمل ـ وان مشيت ـ فجملتى دماميل !

ومعى بقية نزرة يسيرة من جملة كثيرة ـ لو وجدت ثقة ـ أعطيته اياها ، ليعود على بما أرفه به جسمى من الحركة ، وقلبى من الشغل ، وأنا اجد من ادفعها اليه وبقى أن يردها الي

فساد الثقة

دفع رجل الى صديق له جارية ، واودعها عنده وذهب فى سفره ، فقال بعد أيام لمن يأنس به وتسكن نفسه اليه : « يا أخى ! ذهبت أمانات الناس ! أودعنى صديق لى جارية ، فى حسابه أنها بكر ، جربتها فاذا هى ثيب

سارقة غالبها

ومن ظريف الاخبار أن بنت أختى سرقت لى ثلاثة وثمانين ديناراً ، فلما هددها

السلطان ، وأخرجت اليه بعضها ، قالت : « والله لو علمت أن الامر يجرى كذا كنت قتلته » فاعجبوا من هريستى وزبونى !

***

ووالله لولا ضعفى وعجزى عن السفر ، لخرجت اليه متشرفا بمجالسته ومحاضرته ، فأما مذاكرته فقد يئست منها ، لما قد استولى على النسيان ، واحتوى على قلبى من الهموم ، والى الله الشكوى لا منه ، وليس بحسن أن أشكو من يرحمنى ، الى من لا يرحمنى !

ابو بكر الشبلي

وكان ابو بكر الشبلى يقول: ,,ليس غير الله غير ، ولا عند غير الله خير ،، وقال يوما : ,, ياجواد ؟ ،، ثم امسك مفكرا ، ورفع رأسه ثم قال :,,ما أو قحنى !أقول لك « ياجواد » وقد قيل فى بعض عبيدك :

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها ، فليتق الله سائله

وقد قيل فى آخر :

تراه ـ اذا ما جئته ـ متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله ،،

ثم قال : « بلى ! أقول ياجواداً فاق كل جواد ، وبجوده جاد من جاد »

ابن السماك والرشيد

ودخل ابن السماك على الرشيد فقال له « عظنى » ـ وفى يد الرشيد كوز ماء ـ فقال : ـ ,,مهلا يا أمير المؤمنين ، ارأيت إن أقدر الله عليك مقدرا ، فقال « لن أمكنك من شربه الا بنصف ملكك » اكنت فاعلا ذلك ،، قال « نعم » قال : « اشرب ـ هنأك الله » فلما شرب ، قال : « ارايت يا امير المؤمنين ، ان لو اسفت نفس هذا المقدار عليك ، فقال : « لن امكنك من اخراج هذا الكوز ، الا بان أستبد بملكك دونك ، اكنت فاعلا ذلك » قال :« نعم » ـ قال : « فاتق الله فى ملك لا يساوى الا بولة ! »

نعم الله وآلاؤه

وكيف أشكو من قاتنى وعالنى - نيفاً وسبعين سنة - كان قميصى ذراعين ، فوكل بى والدين حدبين مشفقين ، يتناهبان فى دقته ورقته وطيبه .

فلما صار اثنى عشر ذراعا ، تولاه هو وطعامى ، فما أجاعنى قط ولا أعرانى ! « والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين »

***

كنت - بتنيس - وبين يدى انسان يقرأ - ويحزن - : « يوفون بالنذر ويخافون (١) » - ويبكى ، فخطر لي خاطر ، فقلت : « أنا بضد هؤلاء القوم - صلوات الله عليهم - أنا لاأنذر ، ولا أفى ، ولا أخاف شقاء ولا عناء ! »

عودة الى ابى بكر الشبلى

وحدثنى من أثق به ، ولا أتهمه - عن أبيه وكان زاهدا ، قال : « كنت مع أبى بكر الشبلى ، ببغداد ، فى الجانب الشرقى بباب الطاق ، فرأينا شاويا ، قد أخرج حملا من التنور ، والي جانبه قد عمل حلاوى فالوذجا ، فوقف ينظر اليهما ، وهو ساه مفكر ، فقلت : « يامولاي ! دعنى آخذ من هذا وهذا ورقاقا وخبزا ، ومنزلى قريب ، تشرفنى بأن تجعل راحتك اليوم عندي،فقال : « ياهذا ، أظننت أنى قد اشتهيتهما ؟ ، وانما فكرى فى ان الحيوان كله ، لايدخل النار الا بعد

---

(١) الآية فى سورة « الدهر » وهى : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام - على حبه - مسكيناً ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءاً ولا شكوراً ، انا نخاف من ربنا يوما عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك ، لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة قدروها تقديرا » الخ

الموت ، ونحن ندخلها أحياء » :

***

يارب عفوك عن ذي شيبة وجل كأنه ـ من حذار النار ـ مجنون !
قد كان ذمم أفعالا مذممة ـ أيام ليس له عقل ولا دين

ختام الرسالة

تمت الرسالة والحمد لله وصلواته على محمد ، وانا اعتذر من خطل فيها أو زلل ، ومن ذا الذى يؤتى الكمال فيكمل ، قال عمر بن الخطاب : « رحم الله امرأ أهدى الى عيوبى » واسأله ـ ادام الله عزه ـ تشريفى بالجواب عنها ، فان هذه الرسالة ـ على مابها ـ قداستحسنت وكتبت عنى ، وسمعت منى ، وشرفتها باسمه وبذكره ، والرسالة التى كتبها الزهرجى الى ، كانت أكبر الاسباب فى دخولى الى حلب ، واذا جاء جواب هذه سيرتها بحلب وغيرها ـ ان شاء الله ـ وبه الثقة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

تمت رسالة ابن القارح

رسالة الملائكة

تمهيد (١)

ليس مولاى الشيخ بأول رائد ظعن فى الارض العارية فوجدها من النبات قفراً ؛ ولا آخر شائم ظن الخير بالسحابة فكانت من قطر صفرا !

جاءتنى منه فوائد كأنها فى الحسن بنات بحر (٢) متمثلا ببيت صخر :

« لعمرى ! لقد نبهت من كان نائما وأسمعت من كانت له أذنان »

ان الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ؛ أولئك ينادون من مكان بعيد !

تبرؤه من مظنة العلم

كنت فى عنفوان الشبيبة أود أننى من اهل العلم ، فسجنتنى عنه سواجن غادرتنى مثل الكرة مع الحاجن (٣) ! فالآن مشيت رُوَيْداً ، وتركت « عمرا » للضارب و « زيْدا (٤) » وما أوثر أن يزاد فى صحيفتى خط فى النحو ، فيخلد آمنا من المحو !

* * *

واذا صدق فجر اللمة (٥) ، فلا عذر لصاحبها فى الكذب ، وكون الحالية

---

(١) كتبها جوابا على مسائل تصريفيه القاها اليه بعض الطلبة ، فأجاب عنها بهذا الاسلوب الفريد ارجع الى (ج « ١ » ص « ٤٢ ـ ٤٤)

(٢) سحائب يجئن قبل الصيف منتصبات رقاقا (٣) الصولجان

(٤) يشير الى قول النحويين « ضرب زيد عمرا » (٥) يعنى الشيب

بلا خرص (١) أجمل بها من التخرص (٢) ، وقيام النادبة بالمنادب أحسن بالرجل من أقوال الكاذب

* * *

وهو يلزمه البحث عن غوامض الأشياء ؛ لانه يعتمد بسؤال رائح وغاد ، وحاضر ـ يرجو الفائدة ـ وباد ، فلا غرو ان كشف عن حقائق التصريف ؛ واحتج للنكرة والتعريف وتكلم فى همز وادغام ، وأزال الشبهة عن صدور الطغام

فأما أنا فخاس البيت(٣) ، ان لم اكن الميت فشبه الميت !

لو أعرضت الاغربة عن النعيب اعراضى عن الأدب والاديب ، لأصبحت لا تحسن نعيبا !

مسائل الصرف

ولما وافى شيخنا « أبو فلان » بتلك المسائل ، ألفيتها ـ فى اللذة ـ كأنها الراح يستفز من سمعها المراح (٤) ، وكانت الصهباء الجرجانية طرق بها عميد كفر (٥) ، بعد ميل الجوزاء وسقوط الغَفْر (٦) ، فلما جلبت الهدى ، ذكرت ما قال الاسدى (٧) :

فقلت «اصطبحها ، أو لغيرى فاهدها فما أنا بعد الشيب ـ ويلك ـ والخمر
تحاللت عنها فى العصور التى مضت فكيف التصابى بعد ما كلأ العمر(٨)

وحق مثلى أن لا يسأل ، فإن سئل ، تعين عليه أن لا يجيب ، فان أجاب ، ففرض على السامع أن لا يسمع منه ، فإن خالف باستماعه ، ففريضة أن لا يكتب ما يقول ، فإن كتب فواجب أن لا ينظر فيه ، فإن نظر ، فقد خبط خبط عشواء

---

(١) القرط ، أو حلقة الذهب والفضة (٢) الكذب (٣) ملازم اللبث فيه . ارجع الى (ج «٢» ص «٨»)

(٤) اشتداد الفرح حتى يجاوز الانسان حده فيتبختر ويختال (٥) سيد القرية (٦) النجم

(٧) يعنى « الاقيشر الاسدى وقد مرت ترجمته فى (ج «١» ص «٤٩») »

(٨) ذاعت شهرة هذه الأبيات حتى لم يكد يخلو من رواياتها متأدب وغالوا فى شأنها حتى فضلوها على كل ماعداها ، وقد اثبتناها فى الجزء الاول من «ص ٤٩ ـ ٥٠» بمناسبة ترجمة « الاقيشر الاسدى » فليرجع اليها القارئ ان شاء

رسالة الملائكة

محاوره مع عزرائيل

وقد بلغت سن الاشياخ ـ وما جاز بيدى نفع من هذا الهذيان ، والظعن من الآخرة قريب !

أفترانى أدافع « ملك الموت » فأقول : « أصل ملك مألك ، وانما أخذ من الألوكة (١) ثم قلب ، ويدلنا على ذلك قولهم فى الجمع « ملائكة » لان الجموع ترد الأشياء الى أصولها »

فيعجبه ما سمعه ، فينظرنى (٢) ساعة لاشتغاله بما قلت ، فإذا هم بالقبض على قلت : وزن ملك هذا معَل ، لان الميم زائدة ، واذا كان الملك من الألوكة ، فهو مقلوب من « ألك » الى « لأك » فوزن الملائكة ـ على هذا القلب ـ « مفاعلة » لانها مقلوبة عن مآلكة

فيقول الملك : « ما هذه الاباطيل ؟ ان كان لك عمل صالح فأنت السعيد ، والا فاخسأ وراءك »

فأقول : « أمهلنى ساعة حتى اخبرك بوزن عزرائيل ، وأقيم الدليل على أن الهمزة فيه زائدة ! »

فيقول الملك : « هيهات ! ليس الأمر الى ، اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »

محاوره مع منكر ونكير

أترانى اذ أرى منكراً ونكيراً ، فأقول : « كيف جاء اسماكما عربيين منصرفين ـ وأسماء الملائكة كلها من الاعجمية ، مثل اسرافيل وجبرائيل وميكائيل ؟ »

فيقولان : « هات حجتك ، وخل الزخرف عنك »

---

(١) الرسالة (٢) يمهلنى أو يؤخرنى

فأقول ـ متقرباً اليهما ـ : « قد كان ينبغي لكما أن تعرفا وزن ميكائيل وجبرائيل على اختلاف اللغات ، اذ كانا أخويكما في عبادة الله ـ عز وجل »

فلا يزيدهما ذلك الا غيظا:

ولو علمت أنهما يرغبان في مثل تلك العلل ، لأعددت لهما شيئاً كثيراً من ذلك ، ولقلت : « ما تريان في وزن « موسى » اسم كليم الله ؛ الذي سألتماه عن دينه وحجته ، فأبان وأوضح ؟ »

فان قالا : ,, «موسى» اسم أعجمي الا أنه يوافق العربية ، على وزن «فُعْلَى» أما «مُفْعل» اذا كان من بنات الواو مثل «أوسيت» و«أوريت» فانك تقول : «موسى» و «مورى»

وان كانت من ذوات الهمز ، فانك تخفف حتى تكون الواو خالية من «مفعل»

واذا قيل : ان «موسى» «فعلى» فان جعل أصله الهمز ، وافق «فعلى» من « مأس بين القوم » اذا أفسد بينهم ، قال الأفوه :

أما ترى رأسي أزرى به «ماس» زمان ، ذي انتكاس «موس»

ويجوز أن يكون «فعلى» من «ماس يميس» فقلبت الياء واواً للضمة كما قالوا : «الكوس» من «الكيس»

* * *

فاذا سمعت ذلك منهما ، قلت: « لله دركما ! لم أكن أحسب أن الملائكة تنطق بمثل هذا الكلام ، وتعرف أحكام العربية ! »

* * *

فان غشي على من الحنقة ، ثم أفقت ـ وقد أشارا الي بالارزبة ـ قلت :

« تثبتا ـ رحمكما الله ـ كيف تصغران « الارزبة » وتجمعانها جمع تكسير ؟ »

فان قالا : «أُرَيْزِبَّة» و «أرازِبّ» ـ بالتشديد ـ

قلت : « هذا وهم ! انما ينبغي أن يقال : « ارَيْزَبَة » و « أرازبْ »

ـ بالتخفيف ـ »

فان قالا : « كيف قالوا : «علانى» فشددوا ، كما قال القريعى :

« وذى نجوات طامح الطرف ، جاذبت حدانى ، فلوّى من علانية يدى »

قلت : « ليس الياء كغيرها من الحروف ، فانها ـ وان لحقها التشديد ، ففيها عنصر من اللين »

فان قالا : « اليس قد زعم صاحبكم « عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه » أن الياء ـ اذا شددت ـ ذهب منها اللين واجاز فى القوافى طياً مع طى ؟ »

قلت : « قد زعم ذلك ، الا ان السماع عن العرب لم يأت فيه نحو ما قال ، الا ان يكون نادراً قليلا !

* * *

فاذا عجبت مما قالاه اظهرا لى تهاونا [١] بما يعلمه بنو آدم ، وقالا : « لو جمع ما علمه أهل الارض ـ على اختلاف اللغات والازمنة ـ مابلغ علم واحد من الملائكة يعدونه فيهم ليس بعالم [٢] »

فأسبح الله وامجده !

***

واقول : « قد صارت لى بكما وسيلة ، فوسعا لى فى الجدث ـ ان شئتما بالثاء ، وان شئتما بالفاء ، فان احداهما تبدل من الاخرى »

فيقولان ـ أو احدهما ـ : « انك لمهدم الحول [٣] ، وانما يوسع لك فى « رَيْنك [٤] » عملك ، فأقول لهما : » ما افصحكما ، لقد كنت سمعت فى الحياة الدنيا ان « الرّيم » القبر ، وسمعت قول الشاعر :

« اذا مت ، فاعتادى القبور ، وسلمى على « الريم » اسقيت السجل الغواديا »

فيقولان : « بؤسا لك ؟ » اى علم فى ولد آدم ؟ انهم للقوم الجاهلون !

---

(١) استخفافا (٢) ارجع الى (ج « ١ » ص « ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٩ »)

(٣) الحذق او القدرة على التصرف (٤) تهرك . ارجع الى (ج « ١ » ص « ١١٠ »)

حواره مع مالك

وهل اتودد الى « مالك » خازن النار ، فأقول .

« اخبرنى ـ رحمك الله ـ ماواحد الزبانية ؟ فان بنى آدم فيه مختلفون ـ يقول بعضهم : « الزبانية لاواحد له من لفظه ، وانما يجرى مجرى السواسية (١) » ومنهم من يقول : « واحد « الزبانية » « زَبنية(٢) »وقال آخرون:«واحدها « زَبْنِى» او« زَبَنِى » فيعبس لما يسمع ويكفهر

***

فأقول : « يامالك ! ماترى فى نون « غسلين » وما حقيقة هذا اللفظ ؟ اهو مصدر كما قال بعض الناس ؟ ام واحد ام جمع اعربت نونه تشبيها بنون «مسكين» كما اثبتوا نون « قلين » و« سنين »فى الاضافة ، وكما قال سحيم :

عرفنا « جعفرا » وبنى ابيه وانكرنا زعانف آخرين
وماذا تبتغي الشعراء منى وقد جاوزت حد الاربعين ؟

فأعرب النون

***

وهل النون فى « جهنم » زائدة ؟

اما « سيبويه » فلم يذكر فى الابنية « فعللا » الا قليلا ، و « جهنم » اسم اعجمي ، ولو حملناه على الاشتقاق لجاز ان يكون من « الجهامة » فى الوجه (٣) اذا جعلنا النون زائدة

وقال « رَكِيَّة (٤)جهنام» اذا كانت بعيدة القعر ، فان كانت « جهنم » عربية فيجوز ان تكون من هذا :

---

(١) القوم المستوين فى الشىء ، كما قيل:
سواسية . سود الوجوه . كأنما بطونهم من كثرة الراد أوطب

(٢) هو متمرد الجن والانس أو الشديد . وقد سمي بذلك بعض الملائكة لدنهم اهل النار اليها (٣) بسور الوجه واكفهراره

(٤) بئر ذات ماء

وزعم قوم : انه يقال : «أحمر جهنام » اذا كان شديد الحمرة ، ولا يمتنع أن يكون اشتقاق« جهنم » منه !

فيقول مالك : « ما أجهلك واقل تمييزك ! ما جلست هنا للتصريف ، وانما جلست لعقاب الكفرة والمشركين والقانطين !

حواره مع السائق والشهيد

وهل أقول للسائق والشهيد اللذين ذكرا فى كتاب الله ـ عز وجل (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) : ـ «ياصاح! أنظرانى»(١)

فيقولان : «تخاطبنا مخاطبة الواحد ـ ونحن اثنان ؟»

فأقول : «الم تعلما ان ذلك جائز من الكلام ؟ وفى الكتاب العزيز : « وقال قرينه هذا مالدى عتيد ، القيا فى جهنم كل كفار عنيد » فوحد القرين ، وثنى فى الامر ، كما قال الشاعر :

« فان تزجرانى يا «ابن عفان» انزجر ـ وان تدعانى ـ أحم عرضا ممنعا

وكما قال امرؤ القيس :

« خليلى ! مرا بى على أم جندب لأقضى حاجات الفؤاد المعذب

الم تر انى ـ كلما جئت طارقا وجدت لها طيبا ـ وان لم تطيب

فهذا كله يدل على ان الخروج من مخاطبة الواحد الى الاثنين ، ومن مخاطبة الاثنين الى الواحد ، شائع عند الفصحاء !

مظاهرة عند رضوان

وهل اجىء فى جماعة من ممارسى الآداب، قصرت اعمالهم عن دخول الجنة ولحقهم عفو الله فزحزحوا عن النار ، فنقف على باب الجنة ، فنقول . «يارضوان !

---

(١) امهلانى

لنا ليك حاجة! » ويقول بعضنا . «يارضو[١]» فيضم الواو

فيقول رضوان : « ما هذه المخاطبة التى ماخاطبنى بها ـ قبلكم ـ أحد ؟ فنقول : « كنا فى الدار الاولى نتكلم بكلام العرب ،وانهم يرخمون الذى فى آخره الف ونون ، فيحذفونها للترخيم ! »

***

فيقول رضوان :«ماحاجتكم ؟» فيقول بعضنا : انا لم نصل الى دخول الجنة لتقصير الاعمال ، وادركنا عفو الله فنجونا من النار ، فبقينا بين الدارين ، ونحن نسألك ان تكون واسطتنا الى اهل الجنة ، فانهم لا يستغنون عن مثلنا

وانه قبيح بالعبد المؤمن أن ينال هذه النعم ، وهو ـ اذا سبح الله ـ لحن ! ولا يحسن بساكن الجنان أن يصيب من ثمارها فى الخلود ـ وهو لا يعرف حقائق تسميتها ! »

كثرى الجنان ـ : ولعل فى الفردوس قوما لايدركون أحرف « الكثرى » كلها أصلية أم بعضها زوائد ، ولو قيل لهم : « ماوزن كثرى ـ على مذهب أهل التصريف ؟ » لم يعرفوا فعله [٢]

اسفرجل ـ . وما يحمل بالرجل من الصالحين ان يصيب من سفرجل الجنة ، وهو لا يعلم كيف تصغيره وجمعه ، وهو لا يشعر إن كان يجوز أن يشتق منه فعل أم لا ؟

اسفرس ـ : وهذا السندس الذى يطأه المؤمنون ويفرشونه، كم فيهم من رجل لا يدرى : أوزنه « فعلل » أم « فيعل » ؟

---

(١) منادى مرخم . قال أبو العلاء فى لزومياته :

« يارضو ! لا أرجو لقاءك . بل احاف لقاء مالك

(٢)«وهذا بناء مستنكر.لم يذكر« سيبويه » له نظيرا . واذا صح قولهم الواحد : « كثراة » فألف « كثرى » ليست للتأنيث. وزعم بعض أهل اللغة أن « الكثرى » تداخل الشيء بعضه فى بعض . فان صح هذا . فنه اشتقاق « الكثرى » . « أبو العلاء »

شجرة طوبى ـ: وشجرة طوبى ، كيف يستظل بها المؤمنون المتقون ويجتنونها آخر الابد ، وهم لا يعرفون : أمن ذوات الواو هى ؟ أم من ذوات الياء؟ ولعلنا لو سألنا من يرى « طوبى » فى كل حين : « لم حذف منها الألف واللام ؟ » لم يجد لذلك جوابا !

الحور ـ : ومن هو مع « الحور العين » خالدا مخلدا ، هل يدرى ما معنى الحور؟

الاستبرق ـ: وكيف يستجيز من فرشه الاستبرق أن يمضى عليه ـ أبداً بعد أبد ـ وهو لا يدرى كيف يجمعه جمع التكسير ؟ وكيف يصغره

بلاد عبقر

وهذا العبقرى الذى عليه اتكأ المؤمنون ـ الى أى شىء نسب ؟ فانا كنا نقول فى الدار الاولى ان « عبقر » بلاد يسكن الجن ، وانهم اذا رأوا شيئا جيدا قالوا : « عبقري » اى كأنه عمل الجن ـ اذ كانت الانس لا تقوى على مثله ؟ ثم كثر ذلك ، حتى قالوا : « سيد عبقرى » و « ظلم عبقرى »

***

وان كان اهل الجنة عارفين لهذه الاشياء ، قد الهمهم الله العلم بما يحتاجون اليه ، فلن يستغنى عن معرفته الولدان المخلدون ، فان ذلك لم يقع لهم ، وانا نرضى بالقليل مما عندهم أجراً على تعليم الولدان .

نعيم أهل الجنة

فيبسم اليهم « رضوان » ويقول : « ان أهل الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكئون » فانصرفوا ـ رحمكم الله ـ فقد أكثرتم الكلام فيما لا منفعة فيه ، وانما كانت هذه الاشياء أباطل زخرفت فى الدار الاولى

حوارهم مع الخليل بن أحمد

فاذا رأوا جده فى ذلك ، قالوا : « رحمك الله ! نحن نسألك أن تعرف بعض علمائنا الذين حصلوا فى الجنة بأنا واقفون على الباب نريد أن نخاطبه فى أمر ! »

فيقول رضوان : « من تؤثرون أن أعلم بمكانكم من أهل العلم الذين غفرلهم ؟»
فيتسارون طلائلا ، ثم يقولون : « عرف بموقفنا هذا الخليل بن أحمد الفرهودى » : فيرسل اليه رضوان بعض أصحابه ، فيقول : « على باب الجنة قوم قد أكثروا القول ، وانهم يريدون أن يخاطبوك »
فيشرف عليهم الخليل فيقول : «انا الذى سألتم عنه، فاذا تريدون؟» فيعرضون عليه مثل ماعرضوا على رضوان .

فصاحة أهل الجنة

فيقول الخليل . « ان الله جلت قدرته جعل من يسكن الجنة ممن يتكلم بكلام العرب ناطقاً بأفصح اللغات، كما نطق بها « يعرب بن قحطان » أو «معد بن عدنان، لايدركهم الزيغ ولا الزلل ، وانما افتقر الناس ـ فى الدار الغرارة ـ الى علم اللغة والنحو ، لان العربية أصابها بعض تغيير ، فأما الا ن ، فقد رفع عن أهل الجنة كل الخطأ والوهم ، فاذهبوا راشدين ـ ان شاء الله ! »
فيذهبون ـ وهم محققون ماطلبوه !

ختام الرسالة

ثم أعود الى ما كنت متكلما فيه ـ قبل ذكر « الملائكة »ـ فأقول : ان سؤال الشيخ مولاى كما قال الاول

« فهذى سيوف ياعدى ومالك كثير ـ ولكن أين بالسيف ضارب؟»

يزعمون أننى من أهل العلم (١) وأنا منه خلو ـ الا ماشاء الله ـ ومنزلتى الى الجهلاء أدنى منها الى الرهط العلماء ، ولن أكون مثل الربد ـ أزعم فى الابل أننى طير ، وفى الطير أننى بعير سائر ـ والتمويه خلق ذميم !
ولكنى ضب ـ لا أحمل ولا اطير ، اذا خلوت تعللت، وان فارقت مأوى ضللت ، وذكر « ابن حبيب » أنه يقال فى المثل . «أحير من ضب » وذلك انه ـ اذا فارق

(١) ارجع الى (ج «٢» ص«٦») و(ج «٣» ص «٣٣»)

بيته فأبعد لم يهتد أن يرجع اليه، وقد علم الله ـ تعالت قدرته ـ أنى لا أبتهج بأن أكون ـ فى الباطن ـ أستحق تثريبا، وادعى فى الظاهر أديبا !

ومثلى مثل « البيعة الذامرة » يدعى طوائف من الشيعة أنها تبرئ من الحمى ـ أو من كذا ـ وانما هى جدر قائمة لا تفرق بين ملطس الهادم والسبعة بيد الحاجر، وليس بدعا من كذب عليه، وادعى ما ليس له عنده ؛ وقد بؤت بتكذيب القالة، واعترفت بالجهالة، واعتذرت بالتقصير :

وقد حرم على الكلام فى هذه الأشياء لأنى طلقتها طلاقا بائنا ـ لا أملك فيه الرجعة ـ وذلك لانى وجدتها فوارك (١) فقابلت فركها بالصلف، ولو أننى كما تظن، لبلغت ما أخبرت، وبرزت للاعين فما استترت، وقد يروى البيت السائر :

« والستر ـ دون الفاحشات ـ ولا يلقاك ـ دون الخير ـ من ستر (٢) »

وانما ينال الرتب من الآداب من يباشرها بنفسه، ويفنى الزمن بدرسه، لا هو العاجز، ولا المحاجز

***

ومثله لا يسأل مثلى للفائدة ؛ بل للامتحان والخبرة، فان سكت جاز أن يسبق الى الظن الحسن أن السكوت ستر يسبل على الجهول، وما أحب أن تفترى على الظنون، كما افترت الالسن فى ذكرها أنى من أهل العلم، وأحلف : لأن أرمى صابة (٣) أو مقرا (٤) أبر لدى من أن أتكلم فى هذه الصناعة كلمة !

وقد تكلفت الاجابة ـ فان أخطأت ـ فبيت الخطأ ومعدنه، وتعرض لما لا أحسنه ـ وإن أصبت ـ فلا أحمد على الاصابة. رب دواء ينفع وصفه ممن ليس بآس، وكلمة حكمة من حليف وسواس !

وهذا آخر ما سمح به القلم، والله الموفق للصواب، واليه المرجع والمآب

تمت رسالة الملائكة

---

(١) جمع فارك . وهى المرأة التى تبغض زوجها (٢) ارجع الى (ج « ٣ » « ص ٧ » (٣) شجرة مرة (٤) صبرا

خاتمة تحليلية

دراسات فى رسالة الغفران

لو أردنا اثبات كل ما كتب عن رسالة الغفران لاحتجنا الى افراد سفر ضخم ، فلنقتصر من ذلك على الفصول الممتعة التالية ، ليستأنس بها القارىء فى دراسة الرسالة، ويقف منها على مدى أثرها فى نفوس المفكرين، ومنزلتها فى تقديرهم ، وما افتتحت من مناحى تفكيرهم وأثارت من أوجه الخلاف بين آرائهم ؛ وثم ينفسح له أفق درسها وتتهيأ له الاحاطة بجوانبها المختلفة ومراميها البعيدة ومزاياها العالية !

الخيال في رسالة الغفران

(١)

ان رسالة الغفران نمط وحدها فى آدابنا العربية ، وأسلوب شائق ونسق طريف فى النقد والرواية ، وفكرة لبقة لا نعلم أن أحداً سبق المعرى اليها (اللهم الا اذا استثنينا محاورات لوسيان فى الاولمب والهاوية) ، وفذلكة جامعة لأشتات من نكات النحو واللغة . ذلك تقدير حق موجز لرسالة الغفران . أما أن ينظر اليها كأنها نفحة من نفحات الوحى الشعرى على مثال ما نعرف من القصائد الكبرى التى يفتن فى تمثيلها الشعراء، والقصص التى يخترعونها اختراعا، أو ينظر اليها كأنها عمل من أعمال توليد الصور والباس المعانى المجردة لباس المدركات المحسوسة فليس ذلك حقاً وليس فى قولنا هذا غبن للمعرى أو بخس لرسالة الغفران . كلا ولا هو مما يغضب المعرى ان يقال هذا القول فى رسالته !

عباس محمود العقاد

(٢)

أعجبت اذن بكتاب العقاد ، على أن شيئا فى الكتاب أعجبنى بنوع خاص وهو هذه الفصول التى كتبها عن ابى العلاء عامة وعن رسالة الغفران خاصة ، لم اكد أرى هذه الفصول التى كتبها عن أبى العلاء عامة، وعن رسالة الغفران خاصة ، لم اكد أرى هذه الفصول حتى حرصت على

قراءتها حرصا شديداً لانى ـ كما تعلم ـ شديد الصلة بأبى العلاء واحب أن ارى آراء الناس فيه وان أتبين مقدار ما بين هذه الاراء وبين آرائى من قرب أو بعد

أول هذه الفصول يتناول حزن ابى العلاء وتشاؤمه . وليس ينكر أحد أن ابا العلاء كان حزينا غاليا فى الحزن ومتشائما مسرفا فى التشاؤم ، والناس جميعا احرار فى ان يحزنوا وان يتشاءموا كأبى العلاء ، او أن يبتهجوا ويبتسموا كاصحاب اللذة ، أو أن يتوسطوا بين الامرين ، الناس احرار ، وهم لم ينتظروا أن نقول لهم هذا ليكونوا احراراً وليذهبوا فى الحياة أحد هذه المذاهب الثلاثة . واذن للعقاد ان يحزن كما يحزن أبو العلاء ، أو أن يبتهج كما يبتهج ابو نواس ، أو ان يتخذ بين الامرين مكانا وسطا ، فالامر فى هذا راجع الى الطبيعة والمزاج قبل ان يرجع الى العقل والتفكير ولكن الذى اخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه فى فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقاً فى رسالة الغفران ، هذا نكر من القول لا أدرى كيف تورط فيه كاتب كالعقاد! نعم ان العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه ، فهو ـ بعد أن أنكر الخيال على أبى العلاء ـ عاد فاثبت له منه حظا قليلا ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئا غيرى ، اما أنا فلن انخدع له ، فهو ينكر على ابى العلاء أن يكون شاعراً عظيم الحظ من الخيال فى رسالة الغفران « سنه سوده ! » كما يقول العامة ، وهل يعلم العقاد ان « دانت » انما صار شاعراً نابغة خالداً على العصور والاجيال واثقا من اعجاب الناس جميعا ، بشىء يشبه من كل وجه رسالة الغفران هذه ؟ استغفر الله ! إن من الاوربيين الان من يزعم أن شاعر فلورنسا قد تأثر بشاعر المعرة قليلا أو كثيراً

وما الخيال ؟ أما اذا كان الخيال ملكة تمكن الكاتب أو الشاعر من ان يخترع شيئا من لاشىء أو يؤلف شيئا من اشياء لائتلاف بينها ، فلم يكن أبو العلاء على حظ من الخيال ، لانه لم يخترع فى رسالة الغفران شيئا من لاشىء ولم يؤلف بين متناقضات . ولكنا نعلم أن علماء النفس لا يسمون هذه الملكة خيالا وانما يسمونها وهما ، وهم ينبئوننا ان الخيال لا يخترع شيئا من لاشىء وانما يستمد صوره ونتائجه من الاشياء الموجودة ، يؤلف بينها تأليفا غريبا يبهر

النفس ويفتنها ، واذا كانوا صادقين — ونحسبهم صادقين — فحظ أبي العلاء من الخيال فى رسالة الغفران لاحد له

ليس لابى العلاء حظ من الخيال: واذن فماذا يلذنا من رسالة الغفران ؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر الجنة والنار وما فيهما ؟ أليس لأن خيال أبى العلاء الخصب القوى قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفا غريبا قيما لذيذاً لم يكن أبو العلاء ملزما ان يخترع الشعراء والعلماء والجنة والنار فـ« دانت » لم يخترع « ڤرجيل » ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الاشخاص الذين لقيهم فيه وانما استمدهم جميعا من الادب القديم أو من الدين المسيحى ، ومع ذلك فهو صاحب خيال ، وخياله هـذا مصدر مجده الخالد . لانقل ان حظ أبى العلاء من الخيال قليل بل قل إن حظه من الخيال عظيم جداً قيم جداً خليق بالخلود لأنه الخيال الخصب المنتج حقا ، هو الخيال لذى تجده عند« دانت » والذى تجده عند« اناتول فرانس »عند« اناتول فرانس» بنوع خاص ، وما اقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبى العلاء، ليس بين الرجلين الا فرق واحد وهو أن تشاؤم الكاتب العربى محزون مظلم ، وتشاؤم الكاتب الفرنسى مبتسم مشرق ، ومن غريب الامر أن من الفرنسيين من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذى يظلم عليه العقاد أبا العلاء ،انخدع بعض النقاد الفرنسيين بكثرة مايروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان وأهل القرون الوسطى فقالوا ان الرجل لاشخصية له وانما هو يجمع آثار غيره لا اكثر ولا أقل . ويكاد العقاد يقول هذا فى رسالة الغفران لأن ابا العلاء ملأها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة وما أخذ عن رجال الدين ، ولـكن غير العقاد خليق بأن يتورط فى مثل هذا الخطأ ، فسر البلاغة — ولقد كدت أقول الاعجاز — أقوى وأظهر فى رسالة الغفران من أن يغفله أديب كالعقاد . أرى أن العقاد قد وفق التوفيق كله الى فهم السخرية العلائية فى رسالة الغفران، ولعلى أول من سبق الى ذكر هذه السخرية ولعلى لقيت فى سبيل هذه السخرية العلائية شيئا من العنت والأذى . ولـكنى كنت احب أن يذهب العقاد فى تحليل هذه السخرية العلائية الى أقصى ما تنتهى اليه حرية البحث ، فلم يكن أبو العلاء ساخرا من الناس فى حياتهم العادية ولا فى اما لهم وأعمالهم وحدها ، وانما رسالة الغفران

مثل قوى شنيع للسخر بما كان للناس من مثل أعلى فى الدين ، فهو لا يسخر من شهواتهم ولذاتهم، وانما يسخر من دينهم ويقينهم . والذى أحب ان يلتفت اليه قارئ رسالة الغفران ليس هو هذه السخرية التفصيليه عند مايعرض ابو العلاء لإيوز الجنة أو بقرها أو عند مايعرض للخصومة بين الشعراء، وانما هى هذه السخرية الجميلة العامة المنكرة التى تمثل ـ الله عز وجل ـ كأنه قد فرغ للذات اهل الجنة و شهواتهم يديرها ويدبرها، لا عمل له الا هذا، ولا تفكير له الا فى هذا

ان الذى يقرأ رسالة الغفران ويفقه مافيها من سخرية لا يستطيع ان يسلم بأن ابا العلاء كان مسلما حقا . وقد أفهم ان يتجنب العقاد مثل هذا البحث لان فيه شيئا من الحرج ، ولكنى احب ان يكون الناس جميعا مثلى يكرهون انصاف الحقائق ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شيء !

انا معجب بما كتب العقاد عن أبى العلاء !

طه حسين

السخر في رسالة الغفران (١)

هذه الملكة تظهر فى نثر المعرى ظهورها فى شعره . وهى اظهر ماتكون فى رسالة الغفران التى نحن بصدد الكلام عليها الآن . ففى هذه الرسالة كان المعرى ساخرا جادا فى السخر ، يخرج التشاؤم مخرج التفاؤل ، ويعرض اليأس فى ثوب الأمل، ويبتسم من آمال الناس فى الدنيا والآخرة ثم يعود فيبتسم من ابتسامه، ويعبث بالكافرين ويعرض بهم فى ظاهر القول ، وهو بالمؤمنين أشد عبثاً وأبلغ تعريضا . وقد وفق فى بعض أحاديث الرسالة توفيقاً يذكرنا بغمزات هينى وتقريعات كارليل ودعابة سرفانتس وغيرهم من كبار الساخرين والهجائين الذين تعتز الآداب الغربية بآثارهم ويعدها الكثير من قرائنا لغواً وهذراً. لخلطهم بين الهزل والسخر، وقلة تميزهم بين ضحك المجون والبطالة وضحك المعرفة والشعور العميق !

انظر مثلا الى كوخ الخطيئة فى

(١) نثبت هنا هذا الفصل الرائع من الفصول القيمة الضافية التى بسط فيها الاستاذ العقاد آراءه عن ابى العلاء عامة ورسالة الغفران خاصة . وكتبها بعنوان « نظرات فى الحياة على ذكر رسالة الغفران » من (ص ٧٠ — ١٧٩) وهى منشورة فى كتاب له ذائع وفى متناول القراء . وهو « كتاب مطالعات فى الكتب والحياة » وأحب ألا تفوت القارئ

الجنة . يذهب صاحب المعرى «فاذا هو ببيت فى اقصى الجنة كانه حفش أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة ! وعنده شجرة قميئة ثمرها ليس بزاك

فيقول: «ياعبدالله! لقد رضيت بحقير»

فيقول : « والله ماوصلت اليه إلا بعد هياط ومياط وعرق من شقاء وشفاعة من قريش وددت انها لم تكن»

فتأمل كيف ضن المعرى على الحطيئة بقصر واحد حيث القصور لاعداد لها ، ولا كلفة فى بنائها ومثل فى خلدك حال الحطيئة وقد ادخل الجنة بعد شق النفس فاذا هو بائس الدارين وساكن اكواخ فى الارض وفى السماء .. واذا هو لئيم غير زاكى المنبت ، خبيث اللسان ، ناكر للجميل كما كان فى الدار الدنيا ، فهو ينتفع بشفاعة قريش ويود أنها لم تكن . وينجو من النار ، ولا يحمد الله على ماصار اليه كانه لايزال يتمثل بقوله :

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلا
فسيان لا ذم عليك ولا حمد

وان شئت ان تستعين على استحضار صورة الكوخ فى الجنة فتمثل موكبا من مواكب الملوك الفاتحين تمشى فيه بغلة أبى دلامة ، أو رهانا فى مضمار العتاق المسومات يدخله حمار كحمار المسيخ الدجال الذى تنبئنا عنه الاساطير . وانظر كيف يكون مرأى ذلك فى النظر ، ووقعه فى الخاطر ! فكوخ الحطيئة فى عليين ، هو بغلة أبى دلامة فى موكب الملوك وحمار المسيخ فى رهان الجياد ، وهو فى جملته وتفصيله صورة مضحكة عريقة فى الفكاهة بليغة فى السخر والدعابة !

وانظر الى قصة الاوز فى الجنة . يمر ابن القارح صاحب المعرى رف من إوز الجنة «فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر لامر — ومن شأن طير الجنة ان يتكلم — فيقول ماشأنك ؟؟

فيقلن ألهمنا ان نسقط فى هذه الروضة فنغنى لمن فيها من شرب

فيقول على بركة الله القدير

فينتفضن فيصرن جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة — وبأيديهن المزاهر وأنواع مايلتمس من الملاهى — ولا يزلن فى غناء وقصف وإنشاد اشعار حتى يبدو للشيخ فيقول للنابغة الجعدى :

« يا أبا ليلى ! ان الله — جلت قدرته — من علينا بهؤلاء الحور العين اللواتى حولهن عن خلق الاوز : فاختر لنفسك واحدة منهن فلتذهب معك الى منزلك تلاحنك أرق اللحان وتسمعك

ضروب الا لحان » فيقول لبيد بن أبى ربيعة: إن اخذ أبو ليلى قينة واخذ غيره مثلها أليس ينتشر خبرها فى الجنة ، فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك ازواج الاوز؟؟ فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان...!

وكأنى بخلائق المعرى المتوزعة فى كتبه قد ظهرت كلها فى هذه الكلمة الاخيرة . ففيها مزح مليح وسخر ظريف، وفيها فوق ذلك دليل على شعوره باللياقة وحذره من التعرض للضحك وزجره النفس عن شهواتها ولذاتها من اجل ذلك وأمثاله، وصدق بلوتارك صاحب التراجم المشهورة اذ قال ان نكتة واحدة تنقل عن الرجل قد تغنى فى الدلالة عليه ما لا تغنيه الترجمة المسهبة والحوادث الكثيرة

وشبيه بهذا فى الدلالة على شدة اتقاء المعرى للضحك وحضور الحذر منه فى ذهنه ، حواره الذى أجراه بين عدى بن زيد وابن القارح اذ يسأل هذا عديا فى اعراب بيت من شعره فيقول له « دعنى من هذه الاباطيل! ولكنى كنت فى الدار الفانية صاحب قنص فهل لك ان نركب فرسين من خيل الجنة فنبعثهما على صيرانها وخيطان نعامها واسراب ظبائها وعانات حمرها ؟؟ فان للقنيص لذة ! فيقول الشيخ : « انما أنا صاحب قلم ولم أكن صاحب خيل . ومايؤمننى اذا ركبت طرفا وأنا كما قال القائل :

لم يركبوا الخيل الا بعد ما كبروا
فهم ثقال على أكتافها عنف
..... أن يقذفنى على صخور زمرد

فيكسر لى عضدا أوساقا فاصير ضحكة فى أهل الجنان ، .» وهذا حوار جاء عرضا مقتضبا مما تقدمه وتلاه ، فيزيد فى دلالته على ما اشرنا اليه، ان المعرى ابتدعه من عنده ولم يكن فى سياق الحديث ما يدعو اليه او يوحيه الى الذهن بمناسبة قريبة . فكأن هاجس الحذر من الضحك قائم فى ذهن المعرى متجسم أمام وهمه، تحركه أضعف المناسبات أو يحرك نفسه بغير مناسبة . ومثل هذا ينم بلا ريب على خلق كمين فى النفس وعادة لاصقة بالفكر ، ويستدل منه على تيقظ الرجل للضحكات واستعداده الدائم لتحاشيها ، مما يدل على معرفة منه بمواطن السخر وسرعة اهتداء الى مناشئه ودواعيه.

***

وقد وضع المعرى ابليس فى جهنم كما ينبغي له : ولكنه لم يشغله عن الكيد والاغواء بما هو فيه من الضجر والعذاب فلما أطال ابن القارح فى سؤال أهل النار

وأكثر عليهم من المناقشه ،مال ابليس الى الزبانية يقول لهم : « مارأيت أعجز منكم اخوان مالك ! ألا تسمعون هذا المتكلم بمالا يعنيه ؟؟ فلو أن فيكم صاحب نحيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه الى سقر ! » وهذا إصرار على الشر يستحق أن يضحك منه . اذ ما أبعد ماينبغى أن يكون الاغواء من المعذب الذى يضطرب فى الاغلال والسلاسل وتأخذه مقامع الحديد فى أيدى الزبانية وما أغرب ان يتخذ ابليس الزبانية آلة وجنداً يستعين به على الاضرار والكيد، وهم جند الله المسلط عليه لاضراره بالناس وكيده لهم ؟؟ فهذا مايسمونه المفارقة أو هو التناقض المضحك الذى ألقاه المعرى على شيخ الساخرين ليعجب من خبثه وعناده ، ويجعل منه سبيلا الى ابتسامة من ابتساماته الهادئة الهازئة .

على ان اغرب ما فى هذا الموقف ان يكون الساخر الأكبر نفسه سخرية وهزؤاً لأحد من الناس !

***

وفى الرسالة كلمات كثيرة مبثوثة على هذا النحو تارة فى وضوح وصراحة وتارة فى خفاء ومواربة. فتأمل مثلا قول النابغة الجعدى لصاحبه الذبيانى : « اقسم ان دخولك الجنة من المنكرات ولكن الاقضية جرت كما شاء الله ! لحقك ان تكون فى الدرك الاسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك . ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت انك قد غلط بك » وتأمل قول الشيخ ابن القارح — حين اراد ان يصلح بينهما — : « يجب ان يحذر من ملك يعبر فيرى هذا المجلس فيرفع حديثه الى الجبار الاعظم فلا يجر ذلك الا الى ماتكرهان . واستغنى ربنا ان ترفع الاخبار اليه ولكن جرى ذلك مجرى الحفظة فى الدار العاجلة. أما علمتما ان آدم أخرج من الجنة بذنب حقير . فغير آمن من ولد ان يقدر له مثل ذلك ! » وتأمل قول أوس بن حجر من اهل النار — وهو تكرار لمعنى كلام النابغة الجعدى من اهل الجنة — : « ولقد دخل الجنة من هو شر منى، ولكن المغفرة أرزاق . كأنها النشب فى الدار العاجلة .! » وأمثال هذه الكلمات كثيرة فى رسالة الغفران لانحصيها ولكن نحيل القارىء عليها . وحسبنا ان نقول هنا ان الرسالة كلها فى وضعها وفى تركيبها وفيما بدا من معانيها القريبة ، وما انطوت عليه من المغازى البعيدة والمضامين الخفية انها هى الاضحكة

واحـدة متصلة ، يجهر بها المعرى حيناً ويوارب بها أحيانا . وقد يغرق فى السخر حين يوارب ويدارى حتى نخاله ساخراً من السخر ، مترفعاً عن الاهتمام لاظهار قصده ، لشدة استخفافه وقلة مبالاته !

عباس محمود العقاد

رسالة الغفران

(١)

تطالع فى هذه الرسالة الهول ، ولكنك تشيم وراءه تهاتف المرتاب العصى ، وتتنزه من هذه الرسالة فى ظلال الفردوس الوريفة ولكنك تتسمع تحت أوراق نضرتها خفيح السخر الخفى . يقرؤها شديد الغفلة فاذا هى تسابيح للعزيز القادر على كل شىء «ولاشىء على قدرة ربنا بعزيز» ويقرؤها انفطن فلا يأتى على بضع صحائف حتى يشتبه ، ثم يمضى فيها فيقوى اشتباهه ولا يأتى على آخـرها الا والشبهة راسخة . ينكر القارىء الفطن على أبى العلاء ناره وجنته ، ثم هو لا يملك الانكار وفى الكتاب المنزل مصداق وشهيد . فما أورد أبو العـلاء نعمة او نقمة الا ورتل آية بينة يستوحي وحيهـا ويستمد بصيصه من قبسها وقد بهره اعجازها . كذلك ما استباح ابو العلاء لمخيلته وصفا ـ نص القرآن على خلافه ، ولا استعرض تصورا جاء القرآن بما يحظره وينفيه ... ماذا ؟ هو ذاك الباب الخلفى ، ومن هنا ينسل هذا الساخر الكبير ليضع اللغم ويعمل

المخيلة لا بد لها أن تعمل ، وهى القدرة الخالقة فى آثار الفن ولها الأثر الكبير فى قضايا العلم . وإلا فماذا غير المخيلة يحمل « نيوتن » من مشاهدة تفاحة تهوى من شجيرتها الى الارض ـ الى استنباط قانون جاذبية الارض ، وماذا غير المخيلة يولد الصلة فى خاطر الفتى « جيمس وات » بين ارتجاجات الغطاء فوق ابريق الشاى فى غليانه ، وبين امكان تسيير القاطرات بقوة البخار . فلا مندوحة اذن للعالم المخترع عن المخيلة تحدس وتفترض ، والتجارب بعد ذلك كفيلة بتحقيق او تفنيد ماتهجس به المخيلة فهى بمثابة حافز ورائد يصدق وحيه ـ او يكذب ـ ولكنه ـ فى صدقه وفى كذبه ـ يفضى الى الحقيقة التى يعمد اليها ، او الى حقيقة من الحقائق يعثر بها عن عرض فى سياق سعيه الضال ، اما فى ملكوت الفنون والآداب

فالمخيلة نسمة الحياة لها، فلا يكون الفن فنا ولا الادب ادبا بغيرها، فهيهات لابى العلاء ان يسد الفضاء على مخيلته ويقعد سبحات تصوراته وان يك يعرض لاوصاف جنة الله وناره. وليس ابو العلاء اول من عرض لوصف الدار الآخرة وصفا مفصلا، بل وصفها من قبله غيره- فقهاء ومحدثون واعلام فلاسفة ورجالات دين- ومنهم من وضع جغرافيتها ورسم خريطتها ولكن شتان فى هذا جميعا بين خيال مصدق يكبر ويهلل ويصف القدرة بأجل مايتصوره من جليل الاوصاف، وخيال مرتاب يصطنع التكبير والتهليل ولكنه يعرف ان ليس بين الجليل والمضحك الا خطوة، فيعول على هذا فى السخر الخفى وابو العلاء يأخذ عن القرآن وصف الاخرة ويستطرد فى الوصف الرائع الجليل وهو يشوبه ويدخل على سياقه مسخا مضحكا عجيبا- بحجة ان (لاشىء على قدرة ربنا بعزيز) ويتقى ابو العلاء مغبة هذا المسخ ويقدم الحيطة دون افتضاحه بأن لايني- بين الاسطر القليلة والاخرى- عن ذكر الله كثيراً مشفوعة به تسبيحة بعد تسبيحة: «سبحانه- عز وجل تقدست أسماؤه، جلت عظمته، تبارك الملك القدوس ومن لاتدرك يقينه الحدوس» وهكذا. وليس فى هذه التسابيح للخالق القدير مايلهج به فمه ولا تؤمن به سريرته فان أبا العلاء مؤمن بالله ولكنه يريد ان يدخل فى روعنا الوهم بانه حين يصف الدار الآخرة يصفها لا وصف رافض للديانات المنزلة كافة، مفيق من مكر القدماء- كما يسميها- بل وصف مسلم يتصورها فى حمية أذكاره وسبحات شوقه الدينى

واليك مثالا على سخر الرجل- وان كانت الرسالة بجملتها مثالا عليه. ولسوف يرى قارئ الرسالة لنفسه هذا الرأى. ولا يسعنا فى معرض التمثيل لقراء مقالنا الآن نلجأ الى اجمال بعض صورها المفصلة الوافية، وقد نجمع منها نبذا أشتاتاً وندمجها كما فعلنا فى توصيف الجنة وغيرها، اذ لا سبيل لغير ذلك هنا.

بدليل الآية «مثل الجنة التى وعد المتقون، فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات»

أتعرف ماذا يتمثله لنا بدليل الآية الكريمة! يتمثل الجنة- فيها شجر لذيذ اجتناء، كل شجرة تأخذ ما بين المشرق الى المغرب بظل غاط[1] وتجرى فى أصول

(١) مخيم

ذلك الشجر انهار تختلج من ماء الحيوان(١) والكوثر يمدها فى كل أوان ، من شرب منها النغبة فلا موت ، فقد أمن هنالك الفوت . وسعد (٢) من اللبن متخرقات ، لا تغير بأن تطول الاوقات، تغترف منها فى مرافد(٣) العسجد، فتارة البان الابل وتارة البان البقر، وان شئت لبن الضأن فإنه كثير جم وكذلك لبن المعز، وان أحببت وردا من رسل الاراوى (٤) فرب نهر منه كأنه دجلة أو الفرات ، وجعافر الرحيق المختوم يعمد اليه المغترف بكؤوس من العسجد ، وأباريق خلقت من الزبرجد، وكم على تلك الانهار من آنية زبرجد محفور ، وياقوت خلق على خلق الفور(٥)، من أصفر وأحمر وأزرق، يخال ان لمس أحرق . وفيها أوان على هيئة الطير السابحة ، والغانية عن الماء السائحة فمنها ماهو على صور الكراكى ، وأخر تشاكل المكاكى(٦)، وعلى خلق طواويس وبط ، فبعض فى الجارية وبعض فى الشط ينبع من أفواهها شراب، كأنه من الرقة سراب ، شهد له كل وصاف للخمر ، من محدث فى الزمن وعتيق فى الأمر.

تلعب فى تلك الانهار الخمرية أسماك هى على صور السمك بحرية ونهرية ، وما يسكن منه فى العيون النبعية ، الا أنه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر المقابلة بالنور الباهر ، فاذا مد مؤمن يده الى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذبا لو وقعت الجرعة منه فى البحر الذى لا يستطيع ماءه الشارب، لحلت منه أسافل وغوارب ، ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية الى الانوار(٧) ولا هو فى موم(٨) متوار ولكن قال له العزيز القادر « كن » فكان وبكرمه أعطى الامكان ، واها لذلك عسلا ، لو جعله الشارب المحرور غذاءه طول الابد ماقدر له عارض موم (٩) ولا لبس ثوب المحموم ، فمن قدر له أن أن يذوق ذلك الارى (١٠) لعلم أن شهد الفانية ـ اذا قيس ـ اليه وجد يشاكه الشرى(١١) ولو خالط من منه ماخلق الله سبحانه فى هذه الدار الخادعة كالصاب والمقر والشيح لعاد ذلك كله وغيره يعد من اللذائذ ، فأى ما كره من الصاب كأنه المعتصر من المصاب(١٢) فانقطعت معايش أرباب القصب فى سواحل البحر وصنع من المر الفالوذج المحكم بلا سحر

(١) الحياة (٢) مجار أو قنوات (٣) أقداح كبيرة (٤) ابن تيوس الجبل (٥) الظباء (٦) جمع مكاء «طير مغرد» (٧) الأزهار (٨) شمع العسل (٩) حمى (١٠) العسل (١١) العلقم (١٢) قصب السكر

واذا من الله ـ تبارك اسمه ـ بورود تلك الانهار صاد فيها الوارد سمك حلاوة لو بصر به أحمد بن الحسين (المتنبي) لاحتقر الهدية التي أهديت اليه فقال فيها

أقل مافي اقلها سمك
يلعب في بركة من العسل»

***

طال بالقارئ اقتباسنا ولكننا ما أطلناه بل اصطنعنا قصارى القصد مع الحرص كل الحرص على أسلوب الرجل وطريقته في الكتابة وهي ايثار الغريب والتزام السجع وتكلفه المبالغة والاستقصاء في الوصف مستمداً أكثر معانيه مما يحفظ ولكن فضله كبير في أن صوره الوصفية ليست رسما مسطورا أو شخوصا جامدة لاحراك بها بل جرما مجسما وحياة غادية رائحة، وذلك بلمسة واحدة من ريشته ـ شأن المصور الحاذق ـ فانظر أثر التجسيم الذي أحدثته كلمة محفور في قوله «آنية زبرجد محفور» وانظر الحياة التي بعثتها في الصور كلمة «الغادية الى الانوار(١)» في قوله «عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية الى الانوار» وتذكر ذكريات الاسفار التي تمثلها كلمة في سواحل البحر في قوله «معايش أرباب القصب في سواحل البحر» فهذه ليست زوائد بل اجزاء عضوية لا تحقق حياة بدونها ومتممات لاغنى عنها، والفطنة اليها هي الفارق بين الفنان الكبير وبين عامة الفنانين

***

هذه جنة أبي العلاء لم يختلقها من العدم فان للجنة خالقها ولكن اختلق فيها. صاغ أبو العلاء أسماكا من ذهب وفضة وصنوف الجوهر، وجعلها تلعب في الانهار الخمرية، وهيأ سمك حلاوة يصيدها وراد الانهار العسلية، واحتلب في قنوات اللبن ماتدره سائمة الارض من البان الابل والبقر والضأن والمعز وتيوس الجبل. فلعمر الله أي تأليه وتقديس في هذه النعوت والبدع! ولو رواها متصوف يهرف بالجنة في يقظته وفي منامه ويفتن في عمارتها وزينتها وتطير نفسه اشتياقا الى نعيمها وملاذها فيعدد ألوان النعيم ويصف أفانين الملاذ بأقصى قصارى مبالغاته فتكبو به المبالغة كثيرا فنلقي اكثرها سخفا لا اعجازا ـ لقلنا: «جاد سليم النية يجيء بالسخف لانه سخيف ومن طبعه السخف؛ فهو يترك طابعه على مايمسه ولو كان قدس الاقداس» ولكن أطنب في هذا النحو الفيلسوف

(١) الازهار

الشاعر صاحب اللزوميات ، وصار يكدس الصور الممسوخة والمبالغات النابية والمهاترة المعربدة والحركة السمجة والحادث المضحك، فهو يصطنع السخف ليدل على ان السخف فى طبع الموضوع، وانه جدير بان يعرض له بالعبث والسخر

«٢»

ولكن قد يصر متعنت على ان هذا الكلام فى وصف الجنة بريء ، وفيه مناداح لصرفه على غير السخرية والاستهزاء ونحن - ازاء اصراره وتعنته - لا نملك التدليل والتحليل ، فليس الامر مما تتقارع فيه الحجج وتتساجل البينات وانما هى ألوان سخرية تدرك بالبديهة ولا يحتكم فيها الى غيرها ؛ فنحن ندرك بالبديهة ان الجنة ليست كذلك وأن وصفها متنافر مختل التوازن وان أبا العلاء يدخل التنافر ويخل التوازن ليعرضها فى معرض هزء وسخرية . واذا كان سلاح التدليل والتحليل لا يعمل فى هذا الميدان فانها لا نيأس من قوة الاقناع فى سلاحنا القديم، فلنضرب من الرسالة أمثلة يتفاقم خطرها وتستفحل شدتها تدريجاً لعل فى ضربها الدراك ما يساعد البداءة المتعنته على هتك الستر واستشفاف السخر!

فننقل نبأ طاووس من طواويس الجنة - يعبر فيروق من رآه حسنا، فيشتهيه أبو عبيده مصوصاً [1] فيتكون كذلك فى صفحة من الذهب ، فاذا قضى منه الوطر انضمت عظامه بعضها الى بعض، ثم تصير طاووسا كما بدا : فتقول الجماعة ، «سبحان من يحيي العظام وهى رميم !!.» كأن بعث ذلك الأكول نفسه، وجماعته أنفسهم ، من تراب - يتهافت فى طوال الاعصر - الى خلقهم الأول ليس دليلا لانفسهم فى أنفسهم بأن الله يحيي العظام وهى رميم ، وكأنه لاغنى عن ظهور المعجزة العظمى فى صفحة طعام اشتهاه أبو عبيدة فتنضم العظام القصفة بعد ان عرقتها أنيابه وتكتسى بدل اللحم الذى ازدرته لهاته، ويطير الطاووس الذى أكله واحتوته معدته . كأنما كان أكل الجنة وهم واهم أو حلم حالم !

***

ثم نروى حكاية القياذ الاوز ينتفضن فيصرن جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة - وبأيديهن المزاهر وأنواع ما يلتمس به الملاهى - وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلت عظمته وعزت كلمته وسبغت على العالم نعمته ووسعت كل شيء رحمته ووقعت بالكافر نقمته - فتبارك الله القدوس، نقل هؤلاء المسمعات من زى

(١) مطبوخا - منقوعا فى الخل

ربات الاجنحة الى زى ربات الأكفال المترجحة فيقول الشيخ للجعدى « ياأبا ليلى — ان الله جلت قدرته من علينا بهؤلاء الحور العين اللواتى حولهن عن خلق الاوز، فاختر لنفسك واحدة منهن فلتذهب معك الى منزلك تلاحك أرق اللحاف وتسمعك ضروب الالحان ! » فيقول لبيد بن ربيعة « ان أخذ أبو ليلى قينة وأخذ غيره مثلها، أليس ينتشر خبرها فى الجنة ، فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الاوز » فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان !! فالمساكين حرموا أنفسهم لذة يشتهونها ونزلوا عن فرصة استمتاع ملك أيديهم وطوع نصرفهم، لالشىء سوى خشيتهم أن يسموا «أزواج الاوز»: هذاهو سور الصين الذى يحول بيننا وبين مشتهيات مهجنا وعلالات حياتنا ، هذه هى الخيالات التى تقلق ضمائرنا وتروع احلامنا هى منغصات تافهة ووهم باطل، ولكنها بعبارة أخرى مظاهر كرامتنا نصونها من امتهان السخر — عادلا وجائراً — منغصات تافهة ووهم باطل يسخر أبو العلاء منها ولكنه يشقى بها — ويشقى بها أكثر من غيره — آخذ نفسه بضروب من الشدة ليدرأ شرها وذلك لأن الرجل شديد الاحساس بذهاب بصره يتعرض — أكثر من غيره — للزلل فيما يشذ عن مواضعات الناس ويجر من ثمة الى سخريتهم . وهذا سر ايثاره الوحدة فى محبسه ومبالغته فى التستر واتخاذه لنفسه نفقاياً كل فيه ومسارعته بيده الي صدره نافضاً عنه بقية الدبس العالقة لاعنا الشره — اذ لاحظ عليه أحد الطلاب (ياسيدى أكلت دبساً) فكأنما لدغته افعى . اذن فليس بدعا ان يجيب السخر لابى العلاء وهو من رأيناه شديد الاحساس بمواطنه، متنبه الوسواس الى مايستوجبه .

***

فالقصة المروية عن الجماعة أرواج الاوز علتها الاولى فى نفس أبى العلاء الموجعة المتلددة ، بيد أننا نقصر اذا لم نشفع هذا التمويه بكيان القصة المضحك وصورتها الهزلية، فالجماعة فيها محدثو جنة لم يصحوا بعد من دهش الصدمة الشاسعة ولم يألفوا مقدار ما هم فيه من النعيم المقيم فهم فى بحبوحة الخلد يضيقون على انفسهم تضييق أهل العاجلة ، ويدركون حياتهم الآخرة على نحو عهدهم بالحياة الاولى، حتى ليذكروننا قصة الصعلوك الجلف انتبه على فراش الديباج الوثير وخوطب خطاب أمير المؤمنين !

ونتهز هذه المناسبة لنقرر أن رسالة الغفران يتغير المثوى فيها من الارضين الى عليين، ولكن الاشخاص كما هم لم يتبدلوا نفوسا غير نفوسهم، ولم يستحدث أهل الجفوة والبداوة منهم رقة المنعمين المترفين، ولا نسوا مسح الضرع وجعجعة الطواحين، فتلقى الهذلى فى جنة الرضوان يحتلب ناقة مطفلا ولكنه يحتلبها فى اناء من ذهب، ولبيد يتمنى على السميع المجيب ارحاء على الكوثر تدور فيها البهائم لطحن بر الجنه لمأدبته، والبارئ لا يعجزه — جلت عظمته — أن يأتيها بجميع الاغراض من غير كلفة ولا ابطاء. والاعشى والنابغة الجعدى، يترامیان بقوارص المهاجاة ويتناقضان المفاخرة بالقبيلة والنسب شأن الاولين من العرب — هذا فى الجرثومة من ربيعة وذاك من فحول بنى جعدة، والحطيئة فى اقصى جنات المتقين لما نزل لئيم الطبع فاسد الدين، وهكذا أبقى أبو العلاء لأشخاصه شخصياتهم فى الدار الآخرة. ولو أنه فعل غير ذلك لخسرت روايته قوام الروايات وموضوعها، وهو تصوير الشخصيات وابرازها لعيان القارىء حية فعالة تحيا وتعمل على سجيتها لا على مشيئة المؤلف وهواه، وما كنا لنتعرف على أشخاص رسالة الغفران وان سماهم أبو العلاء بأسمائهم وأكثر من تكنيتهم، ولما حفلنا بتمييزهم وهم لم يتميزوا فيها بجبلتهم المأثورة وشخصيتهم التاريخيه ولخيم على الجنة والنار جو من الخمول والتشابه الممل فتثاءب القارىء بعد قراءة صفحات من رسالة الغفران وغط فى النوم. ولكن الرسالة — كما صورها أبو العلاء — تصور لنا فى شخصياتها الصادقة مختلف الاجيال التى حشرت فى صعيد واحد من جاهليين واسلاميين فهى بذلك الاختلاف اقرب الى تمثيل مزدحم الحشر — مما لو جعلت الشخصيات واحدة ومجرى الامور على وتيرة واحدة، ولئن كان هذا المحشر كما حشره أبو العلاء بقدرته لا يعدو أن يكون محشرا محليا لشعوب العرب بل أخص من ذلك لانه محلى أدبى لاقتصاره من العرب على طبقة الشعراء دون سواهم، فان أبا العلاء نجح فى التعويض بعض الشىء عن اختلاف الجنسيات وتباين الشارات والصناعات بأن أتقن كل الاتقان مميزات الشخصيات فأشعرنا على الرغم من هذا القصر والتخصيص — بأننا نشهد ازدحام المحشر واختلاطه على كل حال.

ولقد حرص ابو العلاء على بقاء الشخصية الباطنة — مهما اقتضت حالة النعيم

تثير الشخوص الظاهرة ، فعاد من نيف على المائة شابا غرانقا كالزهرة الجنية ومن نعرفه أعشى البصر مقوس القناة وقد صار عشاه حورا وانحناء ظهره قواما .

فنحن بعد كل هذا نعرف فى زهير الشاب، زهيرا الهرم ، ونعرف فى ميمون الاحور ميمون الاعشى، لان أبا العلاء أبقى على كل منهما شيمته موفورة بادية الميسم وخصاله ناطقة باجلى بيان

وقد يكون ما قصد اليه ابو العلاء من النقد والسخر هو الذي انتحى به هذه الناحية وسلك به هذا السبيل ليوقع العربدة فى الجنات ويعرضها فى معرض مضحك، ولكنها سبيل الهزل على كل حال ولو أراد ابو العلاء غير ما اراده من السخر فى رسالة الغفران لسلك نفس هذه الطريقة الفنية فحرص أشد الحرص على الشخصيات التاريخية، وكان الاثر جليلا والروح جادة دينية كما فعل «دانتى» فى الكوميديا الاهلية فقد أطلعنا دانتى فيما أطلعنا عليه من هاوية جحيمه على درك العشاق الآثمين محروما من النور متجاوب الاصداء بالشهيق والانين، تعصف فيه بالآثمين رياح هوجاء فى كل صوب، متصادمة متناكبة ، تعصف بالملكة الفاجرة (سيراميس) التى من أجل شهواتها سنت شرائع الاباحية، «وديدون» التى خانت رفات زوجها وانتحرت لغرام مخيب مردود ، وكليو بطره الخالعة العذار وهيليدا التى عم التناحر لجمالها وغير أولئك أبطالا وغانيات ممن أوردهم الحب حياض الردى . وفى هذا الحشد المعذب لمح الشاعر إلفين فى ميعة الصبا ورونق الجمال متعانقين فلما دعاهما أقبلا كحمامتين يطيران على بساط الريح الى عشهما الوداع ، فقصت عليه «فرنشسكا» قصة الحب القاهر الذى استحوذ عليهما فلم يفارقهما حتى فى قرارة الجحيم كما يرى وبينما كانت هذه تروى القصة كان الفهما ينتحب فحز الاسى فى نفس الشاعر، وخارت قواه وسقط كالميت مغشيا عليه . فهنا أبقى دانتى على الالفين الاثمين عذوبتهما ولم يمس جمالهما وجمال نفسيهما ولم يفرق أذرعهما المتعانقة الى أبد الابدين . كذلك لما دخل الشاعر مدينه ديس (Dis) فى الدرك السادس من جهنم رأى فضاء شاسعا فى كل موضع قدم منه ضريح ، وهذه الاضرحة مرفوعة الغطاء مسجورة باللهب يندلع منها ، وتخرج من جوف هذه الاضرحة المتقدة أنات ملتاعة، هى أنات الزنادقة أرقدوا فيها ، كل زنديق وشيعته فى ضريح واحداً كداسا محشورة،

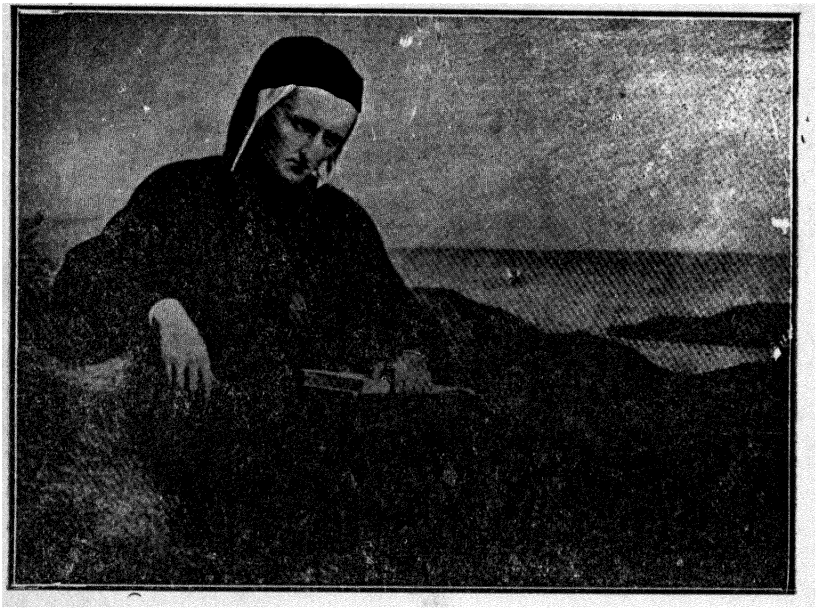

دانتى فى المنفى

منقولة عن رسم «بترلين» فى متحف الفن الحديث بفلورنسا

قضى دانتى التسعة عشر عاماً الأخيرة من عمره فى المنفى وكتب فى اثنائها «الكوميديا الالهية»

دانتى اليجيرى

مؤلف الكوميديا الالهية

تمثال نصفى بالمتحف الوطنى بناپولى

دانتى هو أكبر شعراء ايطاليا كافة ولد فى فلورنسا سنة ١٢٦٥ م . وقضى نحبه فى المنفى سنة ١٣٢١ م .

وروايته « الكوميديا الالهيـة » وهى مؤلفة من ثلاثة أجزاء : (الجحيم والمطهر والفردوس) قريبة الشبه برسالة الغفران

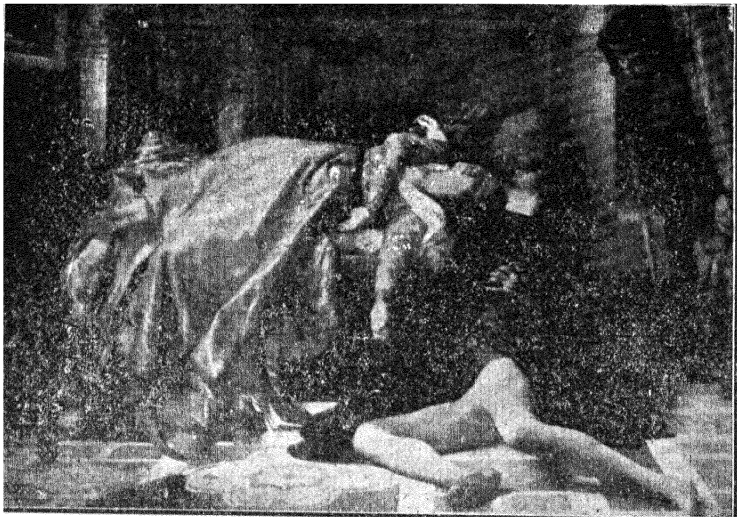

مصرع

باولو ـ و ـ فرنشسكا

منقولة عن صورة ريشة الرسام «كابانل» بلوكسمبورج بباريس
(فاجأ الزوج العاشقين معاً فقتلهما وذلك حوالى سنة ١٢٨٥م)

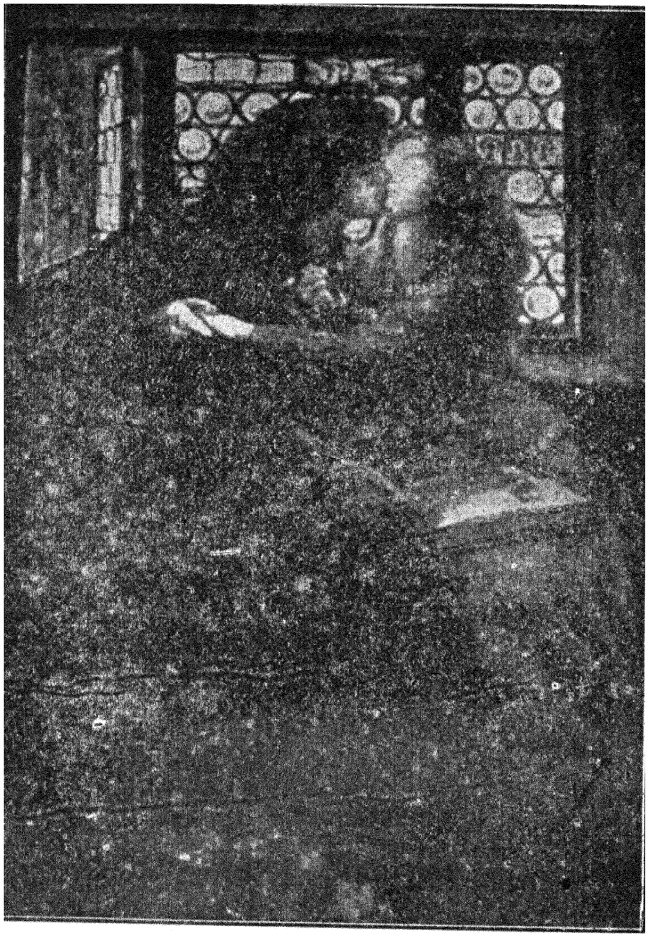

غرام پاولو ـ و ـ فرنشسكا

منقولة عن صورة الرسام روستى

زوجت فرنشسكا من الفارس الشجاع جنا الاعرج وكان مشوه الخلقة فوقع فى قلبها حب أخيه الاصغر « پاولو » الملقب بالجميل وهذه حكاية بدء الخطيئة بينهما كما ترويها فرنشسكا فى « الكوميديا الالهية »

« فى ذات يوم كنا نستمتع بمطالعة قصة « لانسلوت » كيف تيمه العشق وامتلك عليه لبه، وكنا وحدنا ولا ريبة بيننا . فكانت هذه المطالعة كثيراً ما تجتذب أبصارنا فتلتقى النظرات ويفيض الاحمرار من خدودنا الباهتة الا موقتاً واحداً خذلنا فيه ، وذلك عندما قرأنا عن ابتسامة الملكة تلك الابتسامة المشتهاة ، وقد انكب عليها هذا الحب المتفانى بقبلة هيام متدله . عندها لم يتمالك جميل ـ هذا الذى لن أفارقه ـ ان طبع قبلة على شفتى المرتجفين)

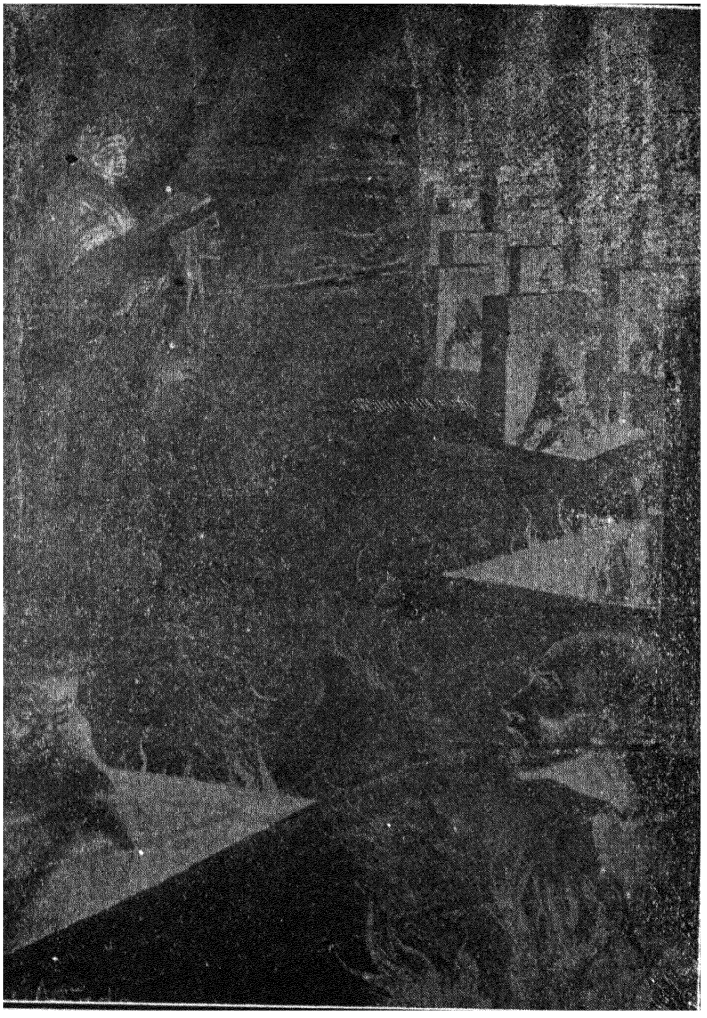

مرقد الزنادقة أتباع الشياطين

لما دخل الشاعر مدينة ديس (Dis) فى الدرك السادس من جهنم رأى فضاء شاسعا فى كل موضع قدم منه ضريح ، وهذه الاضرحة مرفوعة الغطاء مسجورة باللهب يندلع منها ، وتخرج من جوف هذه الاضرحه المتقدة أنات ملتاعة ، هى أنات الزنادقه ارقدوا فيها ، كل زنديق وشيعتة فى ضريح واحد أكداساً محشورة ، ومن احدى هذه الاضرحة هب فارياتا ناهضاً من ضجعته

فى جحيم دانتى
باولو ـ وفرنشسكا
منقولة عن صورة الرسام روسّى
(التقى دانتى بالعاشقين باولو ـ وفرنشسكا فى الدرك الثانى من الجحيم حيث
العشاق الآثمون)

ومن احدى هذه الاضرحة هب (فاريناتا) ناهضاً من ضجعته وبدا للشاعر من رأسه الى وسطه رافع القامة شامخ الجبين وكأنما ينظر باشد الاحتقار الى جهنم نفسها . فهنا أيضاً أبقى «دانتى» على عميد أكبر بيت من بيوتات فلورنسا كبرياءه الموروثة وعظمة نفسه العالية، وان كان قد زجه فى الوطيس المستعر جزاء زندقته، وعلى هذا الاسلوب الفنى جرى دانتى فى الكوميديا الالهية — وهو كما نعلم شديد التدين ، تقيد فى جحيمه ومطهره وفردوسه بما رسمه آباء الكنيسة وما أقروه من الخرافة الوثنية القديمة، فلم يخرج على كاثوليكية القرون الوسطى فى شىء ولكنه يعرض مع لاهوت القرون الوسطى فلسفتها ويعرض فروسيتها . وثمت كانت صورة الكوميديا حية محسوسة تهز النفس وتفعم الخاطر، وعلى هذا الاسلوب الفنى جرى أبو العلاء كما قدمنا حتى أن الاخطل — عليه البهلة (١) ما شدهته النار عن كفره واساءته، وحتى أن ابليس — لعنه الله — وهو يضطرب فى الاغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من ايدى الزبانية، يصطنم منطقه المكذوب فى التعريض وفحش السؤال ويعمد الى استفزاز طبائع الشر الكمينة ليجذب اصحاب الجنة الى سقر !

— ٣ —

فنحن نقول ان أبا العلاء احتفظ بالشخصيات فى الدار الآخرة . نقول انه أبقى على أهل البداوة عنجهية بداوتهم وعلى أهل الكفر نزغات كفرهم، الى غير ذلك مما قدمناه وأطلنا فيه على قدر ما احتمل المقام . ولكن ابا العلاء لم يقل ذلك جهرة عن أشخاصه ، أبو العلاء أرع خاطرا وأوسع حيلة من ان يتورط فى حكم يؤخذ به آخذ المارقين ويحاسب عليه الحساب العسير ، وهو أيقظ تقية من أن يسهو عن مقاتله ويتعرض لهدر دمه أو للاذى وامتهان الكرامة — على أقل تقدير ، ثم هو متفنن ضليع بفنون الادب عليم باساليب التأثير ، فلا بدع ان ائتمرت هذه جميعا فاخرجت الرسالة مخرجا لامحل فيه لاصطناع النقد أو التعليق أو التحليل بل كل شأنها أن تكون مسرح استعراض وتمثيل . فابو العلاء انما يعرض فى رسالته للقارىء أشخاصاً أحياء يعملون بما ركب فى طبائعهم ويسلكون سلوكهم ويتحدثون حديثهم وشأن القارىء معهم شأنه مع

(١) اللعنة

الاحياء الذين يعايشهم، فهو انما يأخذهم بأعمالهم ويستطلع طلعهم من أحاديثهم ويستصدر حكمه من سلوكهم وهـذا الاسلوب فى تأليف الرواية اقرب الاساليب الى الحياة واليه يعمد كل الروائين المعدودين فلا يتدخل المؤلف بين أشخاصه والقراء الا قليلا ليدلى بكلمات قلائل فى شرح باعث أو تحليل عاطفة من حين لآخر، وهى كلمات لا تكفى فى ذاتها ولا يقصد بها أن تكفى فى ذاتها وانما هى معالم طريق يسترشد بها القراء فى شتى مناحى الرواية، ومنائر خضم يستجلون بها اعنلاج الدوافع فى السريرة الانسانية وتكشف الاعماق عن رمم ودرر، فالقراء هنا يسترشدون ويستنيرون الا أنهم هم الذين يرون لانفسهم ويستشهدون حواسهم ومداركهم، فالاسلوب فى «رسالة الغفران» أسلوب تمثيلى الى أقصى حد تسمح به طبيعة القصص المروية ويتسع له نطاق خصائصها والاسلوب التمثيلى يقوم بناؤه على عمادين «الحوار والوقائع» وأكثر الوقائع يغنى فيها الحوار عن العيان اذ ليس فى طوق المؤلف أن يشهدك فوق رقعة المسرح أو بين دفتى الكتاب على كل شىء فى زمانه ومكانه، كانك العالم بكل شىء الموجود فى كل زمان ومكان، وليس مما يتفق مع غاية الفن من تعميق الاثر فى النفوس واهتياجها من اعماقها أن يسرد المؤلف الوقائع على الترتيب والتعقيب. وانما يعرض المؤلف واقعة أو بعض وقائع وفى الوقت ذاته يتيح لنا ان نتسقط انباء وقائع غيرها ـ سابقه ومقترنة لا تقل عنها خطرا وروعة ـ من سياق الحوار بين المتحاورين وان نتمثل مشهدها كما وقعت فى زمانها ومكانها على لسان الشاهدين، وان نستوضح ما استبهم من مآتيها وعلائقها من ذكريات الذاكرين، فاذا سمعنا حوار ابن القارح مع التغلبى فى درك الجحيم تقشع دخانها المنعقد عن مجلس يزيد بن معاية وبين يديه الخمر والقيان تغنيه والندمان تفاكهه ورائحة العنبر عبقة فاغمة والتغلبى ينشده فى الخمر ـ استهتارا وتجديفا ـ فما يزيد عن الابتسام ويهتز للصلة. اذن وقفنا من حوار التغلبى فى الاخرى كيف كان فى الاولى وفهمنا السر فى سوء المآل، واستعرضنا حياته فى الدارين دون أن يتغير المنظر ويتبدل الحال

ثم ابن القارح يقص قصته وهى حكاية طويلة شائقة، كثيرة الفنون غنية بالصور تجد نفسك لأول كلمة منها فى عرصات القيامة ـ وقد طال الامد واشتد الظمأ

والحر ، ولكن الكلمة الثانية سرعان ما تروّح عنك وتنتشل روحك الحائرة نشلة واحدة ، وتصرف الشبح المخيف بأسرع مما ظهر، فاذا ابو العلاء يضاحكك و يكاشفك بالاشارة المريبة والسخر المستتر ثم لايزال يروعك ويضحكك خالطا الروع بالضحك والضحك بالروع من حيث لا تحتسب، فمن حضرة عم النبى وسيد الشهداء الى مشاحنة يترس فيها الشعراء بشيخ النحو لتأوله عليهم ، ورفعه ما قصدوا فتحه، وفتحه ماقصدوا رفعه. ومن هلع ابن القارح ورعدته ثم صرعه ثم نهوضه وقد اخذ الرمق عند ما اجاب لنداء المنادى فى المرة الثالثة والاخيرة شاهد بتوبته ، ومن خروج فاطمة ـ عليها السلام ـ لتسلم على ابيها وهو قائم لشهادة القضاء ومناداة الهاتف ان غضوا أبصاركم يا اهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم . . الى مشهد خيل اولاد النبى طائرة فى الهواء وابن القارح متعلق بالركاب الى منظره على الصراط غير مستمسك تمارسه جارية الزهراء وهو يتساقط عن يمين وشمال

وان سماعنا هذه الحكايات على لسان أصحابها وبضمير المتكلم الذى تكبد أهوالها واصطلى نارها، يجعلها أشد أسرا للسامع وامتلاكا لمجامع حسه، حتى لتسمع من المتكلم نبرات صوته متهدجا فى التوجع والحسرة ، رقيقا فى الحنان واللوعة أجش فى الهلع رنانا فى الفخار وحتى لترى أسارير وجهه تتقلص وتنبسط ولمحات عينيه تورى نارا وتطفح نورا، وحركاته تقوى وتتوعد أو تتراخى وتضرع كأنما المتكلم ماثل بين سمعنا وبصرنا . ولو لم يركن المؤلف الى الاسلوب التمثيلى وسوق الحكايات على لسان أصحابها ـ على سبيل الحوار وترديد الذكريات، وشاءت ركدة الخيال وبلادة الطبع ألا يبرح لحظة منصة الراوى عن الغائبين بضمير الغائبين، اذن لاعياه جمع كل هاتيك الصور بألوانها المحلية ومرامزها لرمزية وحشد شتى العصور التاريخية والمعتقدات الغيبية ـ فى أوجز عبارة وأبلغ تأثير ـ اشهدها فى عبارة رسالة الغفران وتأثيرها

وفى رسالة الغفران وعوثه من غريب اللفظ وتعرض كثير لعلوم اللغة ـ يتجنى البعض على أبى العلاء اصطناعها تعمية للكلام وسترا للسخرية ، ولكن المامة يسيرة بمنثور أبى العلاء ومنظومه ـ فى مختلف الاغراض ـ تثبت أن هذا ديدنه ، وتزكى القول بأن هذا من أبى العلاء ولع بعلوم اللغة نجده فى كثير من أمثاله

المتشائمين، والا فماذا يمكن أن يتكلف أبو العلاء ستره وراء عملية لغوية عقيمة؛ كمداولة كل حرف من أحرف الهجاء عدة مرات على قافية البيتين المرويين

ألم بصحبتى وهم هجوع
خيال طارق من أم حصن
لها ماتشتهى عسلا مصفى
اذا شاءت وحوارى بسمن

فيستفتح العملية العقيمة (بأم جزء) و (حوارى بكشء) وغيرها وهكذا ينطلق خطوة خطوة متغلباً على عقبة كأداء فى أثر عقبة كأداء حتى يخرج ظافراً بعد اذ يختمها بنجاح عظيم (أم شرى) و (حوارى بأرى)

ولكن لنتجاوز «رسالة الغفران» لحظة فان جوها جو شكوك وزندقة قد يدع منفذاً ولو ملتويا ضيقاً للمغالطة والمماراة فى هذا الرأى، ولنسد على المغالطين السبل إلا الى هذا الذى نحن بسبيله، بأن نحتكم الى رسائل المعرى التى تتنزه عما يستوجب التقية والتنكر، ونكتفى منها هنا بهذه الرقعة الموجزة التى كتبها الى بعض العلوية

تلاد ليس بطريف، مودة سيدى الشريف. اذ ود العلوق (١)؛ ود مألوق (٢) ونبئته سأل غنى بكرم الطبع فصادف دروساً من الربع. وقد كنت عرفته بالعراق ماعزمت عليه من انفراد يحجز عن المراد. ووجدت الوالدة ـ رحمها الله ـ قد سبق بها القدر، الى المدر (٣). فأتت النية؛ بالمنية، فانطويت على ياس، ومجانبة للناس، وقدمت أخا انقاض، الي أمور أنا بها غير راض. من جدب عام، اتصل فى عام بعد عام. الى غير ذلك مما الله المنهض به. وقد بعثت شيئاً من النفقة، نفسى من قلته كل المشفقة. والسفر عود (٤) فى مغمضة (٥). يعبث بكل عضه (٦). ولكن أشبه امرأ بعض بزه (٧). وجاءتك الناكز (٨) بدون الرى. وأعطتك الجاذب (٩) بعض غبوق. ياقطام أهلا بقطاك (١٠)، خذى من جذع ما أعطاك. وأنا أسأله بسط العذر واياسى بقبول ما أنفذه متفضلا)

***

اذن فهذا الذى زعمه البعض مصطنعاً عن عمد واختيار ليس فى حقيقة الواقع الا ديدنا وخصلة لهذا المتشائم الكبير العاكف على الدرس والتفكير. ولا حاجة

(١) التى ترضع ولدغيرها (٢) مكذوب (٣) التراب (٤) مسن من الأبل (٥) الارض المطمئنة (٦) شجرة (٧) ثيابه (٨) البئر غاض ماؤها (٩) الناقة قل لبنها (١٠) بطيرك

بعد الى اللجاجة والاطالة فى هذا الصدد

وانما هو الاسلوب التمثيلى فى رسالة الغفران اكبر عامل يشغل البعض عن سخريتها ويلطف وقعها عند البعض الآخر، والا فما تكون ميتة بشار من اجل ابيات زندقته المشهورة :

«إبليس أفضل من ابيكم آدم»

فتبينوا يامعشر الاشرار

النار عنصره وآدم طينة

والطين لا يسمو سمو النار

أو :

الارض مظلمة والنار مشرقة

والنار معبودة مذ كانت النار

الى جانب الميتة التى كان يمكن ان يجرها هذا الهجاء المقذع لو كان فى صيغة غير هذه (ويمر ملك من الملائكة فيقول الشيخ «ياعبدالله اخبرنى عن الحور العين اليس فى الكتاب الكريم: أنا أنشأناهن انشاء ، فجعلناهن ابكارا، عربا اترابا ، لاصحاب اليمين» فيقول الملك «اقف اثرى» فيتبعه فيجىء به الى حدائق لا يعرف كنهها الا الله ، فيقول الملك «خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها، فان هذا الشجر يعرف بشجر الحور» فيأخذ سفرجلة أو رمانة او تفاحة ، او ماشاء الله من الثمار ، فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيناء، تبرق لحسنها حوريات الجنان فتقول «من انت ياعبد الله» فيقول «انا فلان ابن فلان» فتقول «انى أمنى بلقائك قبل ان يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة» فعند ذلك يسجد لله القدير . ويخطر فى نفسه ـ وهو ساجد ـ ان تلك الجارية على حسنها ـ ضاوية [1] فيرفع رأسه من السجود ، وقد صار وراءها ردف يضاهى كثبان عالج وأنقاء الدهناء ورملة بيرين وبنى سعد [2] فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير ، ويقول «يارازق المشرقة سناها ومبلغ السائلة مناها، والذى فعل ماأعجز وهال، ودعا الى الحلم الجهال! اسألك ان تقصر بوص [3] هذه الحورية على ميل فى ميل فقد جاز بها قدرك حد التأميل»

هنا يخرج أبو العلاء عن طور اعتداله وعن شىء من تقيته ويمجن ويقصف . لقد انهزم عقله دون تصديق جنة الخلد فهو يقصف لهذه الهزيمة . لهزيمة نفسه وخيبة رجائه فى حياته ومماته ، والسخرية سوء ظن بالاشياء ومظهر من مظاهر التشاؤم ولقد بلغ به التشاؤم الى حد أن الجنة لو صح نبؤها من قبيل الخيال فليس يصح لديه استقامة حالها فهو يقول ويعاود القول على لسان أهل الجنة وعلى

(١) نحيفة (٢) كلها تلال فى بلاد العرب (٣) عجز ردف

لسان أهل النار « وددت أنى لم انطق مصراعا (شطراً من الشعر) ودخلت الجنة مع الهمج والطغام » « ولقد دخل الجنة من هو شر منى ، ولكن المغفرة أرزاق كأنها النشب فى الدار العاجلة » « لحقك ان تكون فى الدرك الاسفل من النار ولقد صلى بها من هو خير منك ونو جاز الغلط على رب العزة لقلت انك غلط بك » وهذه ظلمات فوقها ظلمات لا تطرق أفقها تباشير صبح ولا ينفذ فى حنادسها شعاع نجم ، وكثيراً ما ائتلقت نجمة القطب الهادية فى حلك الدجنة وكثيراً ما فضض الامل حواشى الغمامة المدلهمة ، ولكن يأس شاعرنا عضال وتشاؤمه مطبق

وهنا أيضاً يندد أبو العلاء بذوق العرب فى محاسن المرأة ونظرهم الى الحسن نظرة حسية بحتة ، تجعل الهوى اتصالا جسديا لاتفاهما روحيا ولا تميز حسناء بعينها عن لداتها الحسان ، بمعان فى عينيها وطهارة ترف على جبينها ووقدة حب تحفز شفتيها وحياء يضرج وجنتيها ، بل تجمع النساء جميعهن صفة واحدة « غصن على كثيب » وهكذا السخرية نزعة فردية مستقلة خارجة على مألوف الجماعة كما أنها أرستقراطية فكرية فوق المعتقدات المتداولة

ويقول ابو العلاء — على لسان الملك الكريم — : « ان الحور العين على ضربين ، ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله من الدار العاجلة لما عمل من الاعمال الصالحة » ولقد مر بالقارئ فى خبر الحورية العجزاء ، مثال من الضرب الاول ، والى القارئ مثال الضرب الثانى ؛ ذلك ان الشيخ يخلو بحوريتين من الحور العين ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها متمثلا بأبيات لامرئ القيس فتستغرب أحداهما ضحكا ، فيقول « م تضحكين ؟ » فتقول : « فرحا بتفضل الله ! أتدرى من أنا يا على ابن منصور ؟ » فيقول « أنت من حور الجنان اللواتى خلقهن الله جزاء للمتقين » وقال فيكن : « كأنهن الياقوت والمرجان » فتقول « انا كذلك بانعام الله العظيم ! على انى كنت فى الدار العاجلة أعرف بحمدونة ، وأسكن فى باب العراق بحلب ، وأبى صاحب رحا ، وتزوجنى رجل يبيع السقط ، فطلقنى لرائحة كرهها من فيّ ، وكنت من أقبح نساء حلب ، فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيا الغرارة ، وتوفرت على العبادة ، وأكلت من مغزلى ومردنى ، فصيرنى ذلك الى ماترى »

ويلاحظ القارىء قوة الملكة

الساخرة وجبروتها فى اختيار المرأة الدميمة وسكنها ومحتدها وزوجها بائع السقط ـ وقد اعتاد بفضل مهنته كراهة الرائحة ومع ذلك غلبت كراهة الرائحة من فمها الابخر ، فطلق غير مطيق صبرا . فأبو العلاء يستوفى المسخ كل استيفاء ويحكم أطراف السخرية من كل جانب ولا يفوته عامل واحد من عوامل تقوية الهزء وتعزيزه ، ولا تهى ناقدته فى الاختيار والتأليف . ولو خاصم ساخر نده بهذا النوع من السخرية لعز على إمكان خصمه أن يتأول سخريته ويرد طعنته الى صدره ، وهذه هى السخرية الحصينة القاتلة

ولقد وسعت سخرية أبى العلاء كل شئ ، حتى الغفران الذى جعل له عنوان رسالته : « فاذا سئل الحطيئة » بم غفر لك ، يقول « بالصدق » فيقال « فى أى شىء ؟ » فيقول : فى قولى

أرى لى وجها قبح الله خلقه

فقبح من وجه ، وقبح حامله

ولو شئنا لاستطردنا الى أخبار من ادخلوا الجنة لصالح الاعمال ، من حمر الوحش ترتع فى رياضها وترزق فيها بغير حساب ، ومن أسود يفترس الواحد منها من صيران الجنة(١) وحسيلها (٢) فلا تكفيه مائة أو مائتان ، فهو يفترس ما شاء الله فلا تؤذى الفريسة بظفر ولا ناب ، ولكن تجد من اللذة كما يجد الاسد ، بلطف ربها العزيز ، وفيها من الحيات القانتات ، كالحية التى كانت تسكن دار الحسن البصرى فيتلو القرآن ليلا ، فتلقت منه الكتاب من أوله الى آخره ، فهى وأترابها يلعبن ويتمافلن ، يتخافقن ويتثاقلن بروضة مؤنقة من رياض الجنة ، وتقول الحية للشيخ : « ألا تقيم عندنا برهة من الدهر فانى اذا شئت انتفضت من اهابى فصرت مثل أحسن غوانى الجنة ، لو ترشفت رضابى لعلمت أنه أفضل من الدرياق(١) فيذعر منها ويذهب مهرولا فى الجنة ويقول فى نفسه : « كيف يركن الى حية » فتناديه « هلم ان شئت اللذة » فيقول « لقد ضيق الله علىّ مراشف الحور الحسان ان رضيت بترشف هذه الحية »

ولكننا لا نستطرد الى أكثر مما قدمنا للتمثيل على سخريه أبى العلاء وعقيدته فلقد كان فى مثل واحد الكفاية فمن لم تقنعه كل هذه الامثال فلا يسعنا الا تهنئته بحسن ظنه الجم . ولعل حسن

(١) قطعان بقر الوحش (٢) اولاد البقر (٣) الترياق وهو شفاء السم

ظنه لا يقف دون كاتب هذه الاسطر، وليأذن لنا ـ قبل وداعه ـ بكلمة واحدة وهي أن رسالة الغفران ليست مزحا هازلا ولا هجواً ناقماً، ولكنها ظاهر يخالف الباطن ودعوى تثبتها قرينة وتنبو بها قرينة، وجد يتردد المرء في تصديقه وهذه هي السخرية!

ولقد يعترض معترض على اسهابنا في الكلام على ألوان السخر في رسالة الغفران فنقول: «ان السخر مفتاح الرسالة فمن أخطأ هذا المفتاح قرأ الرسالة ولم يعرف دخيلتها، وفهمها على غير مدلولها فكان مجهوده ضائعاً ومجهود أبي العلاء أضيع!»

عبدالرحمن صدقي

أشعار الزنادقة في رسالة الغفران

«.... قال (أبو العلاء) في رسالة الغفران: «ولما أجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الجالين، فيقال إن رجلا من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال في ذلك:

« يصول أبو حفص علينا بدرة
رويدك ان المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط
لتشبع ان الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقا . ما ظهرتم
علينا، ولكن دولة . ثم تذهب
ونحن سبقنا كم الى المين . فاعرفوا
لنا رتبة البادي ـ الذي هو اكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا
وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا »

وهذا يشبه أن يكون شعره قد نحله هذا اليهودي، أو أن ايراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه!

ياقوت الرومي

مزايا رسالة الغفران (١)

ـ ١ ـ

شخصية المعري كلفه بالغريب

كان «أبو العلاء» يحرص أشد الحرص على أن يخفي نفسه على القارئ في بعض رسائله ولكن شخصه كان يأبى الا الظهور

كان يلقي بينه وبين القارئ أستاراً صفيقة من غريب اللفظ، وحجباً كثيفة

(١) كلمة مختارة من كتاب «ذكرى ابي العلاء»

من ثقيل السجع ، ويقيم حوله أسواراً منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية ، ولكن عواطفه الحادة تأبى الا أن تخترق هذه الموانع كافة ، لتصل الى قلب القارىء فتترك فيه ندوباً — لدغات الجمر أخف منها وقعاً ، وأهون منها احتمالا

ذلك حاله فى « رسالة الغفران » ، فكم اتخذ حوله من الشعراء الجاهليين جنوداً يذودون عنه ، ويناضلون من دونه ، وكم أسبغ على نفسه من علوم اللغة وآدابها دروعاً تعصمه من وصمة الالحاد !

وكم ضحى من زنادقة العباسيين ضحايا ليعلن أنه مسلم ، ولكن هذا الكيد كله لم يزد الناس الا علما به ، واتهاما له ، حتى قال الذهبى : « انه صاحب الزندقة المأثورة ! » واستدل على ذلك برسالة الغفران

***

أبو العلاء هو اظهر الكتاب المسلمين شخصية ، وأوضحهم عاطفة فى نثره ، ذلك لانه لم يستطع ان يكون منافقاً ، ولم يوفق الى تكلف الحيلة فى اخفاء نفسه ، وان وفق التوفيق كله فى تكلف السجع والغريب !

لقد حكم قانونه الفلسفى الصارم فى نثره ، كما حكمه فى شعره وحياته ، فالتزم فى الكتابة ما لا يلزم — من إيثار الغريب وتصريف اصطلاحات العلم فى التعبير عن العواطف والدلالة على الميول ، فهو يؤدى كثيراً من الاغراض بتلك الضروب العروضية التى ما أراد الخليل بها الا أن تدل على مجرد الاوزان والتفاعيل !

***

من أظهر خصال أبى العلاء فى نثر هذا الطور (طور العزلة) حرصه على الاستقصاء التام ، بحيث اذا عرض لمسألة لغوية أو نحوية — فى طريقه — لم يستطع أن ينصرف عنها حتى يستقصيها ، ولقد اشتد ضيق أهل الجنة وأهل النار — من الشعراء والرواة — به ، لكثرة ما ألح عليهم فى النقد والمناظرة ، حتى نفد صبر « ابليس » الذى لا ينفد صبره ، فأغرى الزبانية أن يقذفوه فى النار ، وحتى أوقع فنونا من الملاحاة بين أهل الجنة الذين لا يعرف الخلاف اليهم سبيلا

***

هذا الاستقصاء يرضى العالم المحقق ، ولكنه يسأم القارىء المتعجل ، لذلك كان الملل الى نفس القارئ — فى نثر أبى العلاء — سريعا ، الا أنك — اذا درست الرجل وفهمت روحه وعواطفه —

أصبح كلفك بعشرته ـ فى نثره وشعره ـ ألزم لك من ظلك! وهذه أخص الصفات التى امتاز بها أبو العلاء !

اما المبالغة ، فقد قلت ، ولكنها لم تنمح، على أن أبا العلاء قد اتخذ لهذه المبالغة دواء حسنا ، فما تجد مبالغة فى نثره الا وقد أحاطها من الالفاظ بما يكف من غلوائها ، فتراه يستعمل «كاد» مرة ، و « لو » مرة اخرى!

***

قلنا : ان الغريب والسجع يلزمان « أبا العلاء » فى كتابته ، ولكن من الحق علينا أن نقسم نثر أبى العلاء قسمين : أحدهما ما يذهب فيه مذهب الانشاء والتنميق، وهذا لابد فيه من السجع والغريب ؛ والآخر ما يذهب فيه مذهب القصص التاريخى أو العلمى وهذا يقل فيه السجع والغريب حتى لا تكاد تعثر بهما

لذلك انقسمت رسالة الغفران الى قسمين ، فاما ما كان من وصف الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها ، فالسجع فيه لازم ، والغريب فيه موفور ، وأما ما وصف به الزنادقة ، فسهل مرسل يسيغه السمع ؛ ولا ينبو عنه الطبع .

وكذلك انقسمت رسالته التى عزى بها خاله « أبا القاسم » عن أخيه؛ هذين القسمين : فاما ما اشتمل على مصارع الأنبياء والملوك وأعلام الناس ، فسائغ اللفظ ـ وان التزم فيه السجع ـ وأما ما وصفت به مصارع الحيوان ، فلن تصل الى فهمه الا بعد العناء الشديد !

ـ ٢ ـ

السخرية

من قرأ رسالة الغفران ، وأراد أن يفقه معناها حق الفقة ، احتاج الى دقة ملاحظة ، وحذق فطنه ، وبعد نظر ، ونور بصيرة ، والى أن يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف اغراضه، فاذا لم يوفق الى ذلك مرت به رسالة الغفران ـ وهو يظنها من أقوم كتب الدين !

ذلك ان أبا العلاء يسلك فى هذه الرسالة الى النقد مسلكا خفيا تكاد لا تبلغه الظنون ؛ ولولا أن مؤرخيه قد كانوا يسيئون الظن به ، لما اهتدوا الى ما فى رسالة الغفران من النقد !

على أنهم لم يفهموا منه الا الظاهر

الذى يلمس ، والصريح الذى لا يشك فيه ، كالاشعار الاباحية التى رواها عن بعض الزنادقة ، فأما نقده الخاص ، فقلما فطنوا له

ولسنا نشك فى أن «على بن منصور ابن القارح » الذى كتبت اليه هذه الرسالة قد كان شديد الزندقة أو شديد الغفلة ! فإن « أبا العلا » لا يكتب هذه الرسالة الا وهو واثق منه باحدى الخصلتين !

وتدلنا رسالة الغفران على أن هذا الرجل كان معاقرا للخمر متهالكا عليها حتى ألح عليه أبو العلاء فى أن يتوب ، ولسنا الآن بمعرض الكلام على «رسالة الغفران » من حيث ما بينها وبين دين « أبى العلاء » من صلة ، وانما نريد أن نبحث عنها من وجهين ، أحدهما السخرية التى تشتمل عليها ، والآخر الخيال الذى عمل فى تأليفها

***

فأما السخرية فحسبك أن تسمع خلاصة القصص الطويل الذى ساقه «أبو العلاء » لدخول « على بن القارح » فى الجنة (١):

قام هذا الرجل من قبره — يوم البعث — فلبث فى الموقف أمداً طويلا حتى أعياه الحر والظمأ — وهو واثق بدخول الجنة ، لأن معه صك التوبة ، فلم يفهم معنى هذا الانتظار ، ففكر فى أن يخدع سدنة الجنة بما كان يخدع به الناس فى الدنيا من الشعر ، فأنشأ القصائد الطوال فى مدح « رضوان » وأنشده اياها ، فلم يفهم منها شيئاً ، لانه لا يتكلم العربية .

فلما عى « على بن القارح » بأمره ، سأله : « ما بالك لم تحفل بقصائدى — وقد كان يحفل بها ملوك الدنيا ؟ » ثم كانت بينهما محاورة آيست «على بن القارح» من « رضوان »

فانتقل الى سادن آخر يقال له : «زُفر» وأعاد معه القصة نفسها. ولكن هذا الخازن نبهه الى أن يتشفع بالنبى فى أمره ، فاجتهد حتى وصل الى « حمزة » فتوسل به الى « على » ، وانه لفى طريقه الى « على » وقد كلفه أن يظهر كتاب توبته — وانه لفى ذلك واذا شيخه « أبو على الفارسى» قد ضاق ذرعه بطائفة من شعراء البادية يخاصمونه فيما تأول من كلامهم ، فنسى التوبة وأمر الشفاعة ، وذهب الى أستاذه فذاد عنه أولئك

(١) ارجع الى (ج «١» ص «١١٠»)

الاعراب ، ثم رجع الى « على » وقد فقد كتاب التوبة، ولكن « علياً » قد هون عليه الامر ، وطلب منه شاهداً على التوبة ، فاستشهد بقاض من قضاة حلب ، وقبل « على » شهادته ، ولكن سقاه من «الحوض» وأيأسه من دخول الجنة — قبل الحساب، فلم ير الا الحيلة ، فذهب الى شباب من بنى هاشم ، فقال: « لقد ألفت فى الدنيا كتباً كثيرة كنت أبدأها وأختمها بالصلاة على النبى وعترته، فحقت لى بذلكم عليكم حرمة ، ولى اليكم حاجة ؟

قالوا « وما هى » قال: « اذا خرجت أمكم « الزهراء » من الجنة لزيارة أبيها، فتوسلوا بها اليه فى أن يأذن بدخولى الجنة، فقبلوا منه ، ثم نادى مناد : « يا أهل الموقف غضوا أبصاركم حتى تمر «الزهراء» ومرت « فاطمة » فسلمت على أبنائها ورغبوا اليها فى أمر صاحبهم ، فقبلت . وأشارت اليه أن يتبعها فتعلق بركاب « ابراهيم » ابن النبى ، ولم تكن خيلهم تمشى على الارض — لكثرة الزحام — انما كانت تطير فى الهواء !

***

وصلوا الى «النبى» وعاد مع «فاطمة» وأخواتها ليدخل الجنة ، فلما بلغ الصراط لم يستطع أن يتقدم عليه قيد أصبع فبعثت اليه « الزهراء » جارية تعينه، فأخذت الجارية كلما أسندته من ناحية مال من الاخرى ، حتى أعياه ذلك وأعياها ، فقال لها : « ياهذه ! ان أردت سلامتى ، فاستعملى معى قول القائل — فى الدار العاجلة — :

« ست — ان أعياك أم
رى، فاحمليني «زقفونه»»

فقالت : « وما زقفونه . . . ؟ » قال : أن يطرح الانسان يديه على كتفى الآخر ويمسك بيديه ويحمله وبطنه الى ظهره ؛ أما سمعت قول « الجلجول » من أهل « كفر طاب »:

«صلحت حالتى الى الخلف — حتى
صرت أمشى الى الورى «زقفونه»

فقالت : «ماسمعت «بزقفونه» ولا «الجلجول» ولا «كفرطاب» الا الساعة! فتحمله وتجوز كالبرق الخاطف ، فلما جاز ، قالت الزهراء — عليها السلام — : «قد وهبنا لك هذه الجارية، فخدها كى تخدمك فى الجنان »

فلما صار الى باب الجنة ، قال له « رضوان » : « هل معك من جواز!» فقال : « لا ؟ » فقال : « لا سبيل للدخول إلا به » فمى بالامر

وعلى باب الجنة — من داخل — شجرة صفصاف ، فقال : « أعطنى ورقة من هذه الصفصاف ، حتى أرجع الى الموقف فآخذ عليها جوازاً ، فقال : «لا أخرج شيئاً من الجنة الا باذن من العلى الأعلى — تقدس وتبارك — »

فلما ضجر بالنازلة ، قال : « انا لله وانا إليه راجعون ! لو ان للامير « أبى المرجى » خازناً مثلك ما وصلت انا ولا غيرى الى درهم من خزائنه »

والتفت « ابراهيم » — صلى الله عليه — فرآه وقد تخلف عنه ، فرجع اليه ، فجذبه جذبة حصله بها فى الجنة »

فهذه الصور التى تمثلها هذه القصة الصغيرة تبين مقدار ما تشتمل عليه رسالة الغفران من السخرية الخفية — وأمثالها كثيرة

(٣)

الخيال

لم يخترع أبو العلاء فى هذه الرسالة شيئاً كثيراً ، أنما وردت أقاصيص الوعاظ بأكثر ما فيها

فاذا كان فى الرسالة شىء ، فهو التنسيق والسخرية ، على أنه قد أخطأ مواضع من الخيال كان حقه الا يخطئها ، فإن « ابن القارح » فى احدى مجالسه جعل كل ما تمنى لقاء رجل من أهل الجنة ، نظر — فاذا هو بين يديه — فلم يكن فرق بين سكان الجنة وبين أثاثها وفاكهتها فى ذلك !

وكذلك أوقع الخلاف والمهاترة بين أهل الجنة ، حتى كادت تقع الملاكمة بين « ابن القارح » وبين « رؤبة » لولا أن توسط « العجاج (١) »

***

ولقد مر « ابن القارح » بمدائن الجن فى « الفردوس » فزارهم وسمع من أشعارهم ، فإذا أشعار بلغت من غرابة اللفظ والاسلوب مبلغاً يخيل الى سامعها أنه كلام الجنة حقا ، وما نشك فى أن « أبا العلاء » هو الذى انتحل هذه الأشعار ، أما معانيها فلا تتجاوز ماروى فى الاخبار الدينية من أحوال الجن

والقول المفصل فى رسالة الغفران يحتاج الى كتاب خاص نرجو ان نوفق اليه ، وحسبنا أن نقرر الآن أن هذه الرسالة هى اول قصة خيالية عند العرب

والفرنج يشبهونها بكتاب دانتى (Dante) الطليانى ، الذى سماه : (Le Comedie dévine) وكتاب ملتن الانجليزى الذى سماه « الجنة الضائعة »

وعندنا أن لقصة المعراج صلة بهذه الاقاصيص !

طه حسين

(١) ارجع الى (ج « ١ » ص « ٢٢٧ و ٢٢٨ »)

ماهي رسالة الغفران (١)

هي أشهر رسائل أبي العلاء وأكبرها، كتبها في عزلته نحو سنة ٤٢٤ هـ — وهو في الحادية والستين من عمره — وقد بلغ اكمل أطوار الحياة — فضمنها نتائج اختباره ودرسه .

وقد أفردت رسائل الغفران عن سائر رسائله لكبرها ، فان حجمها يقارب مجموع ماطبع من تلك الرسائل ، وأما موضوعها ، فهو انتقاد شعراء الجاهلية والاسلام وأدبائهم والرواة والنحاة — على أسلوب روائي خيالي لم يسبقه اليه أحد :

***

فقد تخيل صعود « ابن منصور » — رجل رسالته — الى السماء ، ووصف ماشاهده هناك من الشعراء وغيرهم ، ويشبه ذلك ما كتبه « دانتي » — أعظم شعراء الإيطاليان — في روايته المسماة « الرواية الالهية » التي وصف بها حال الدين في عصره على سبيل الحلم ، فذكر انه رأى — في نومه كانه زار الجحيم ، ووصف مالاقاه هناك من عذاب الخطاة ، ثم مر بجبال « المطهر » ثم صعد الى « الفردوس » ووصف ماشاهده من الأمجاد السماوية ، حتى بلغ الى الخالق ، فمثل أحكام العقاب والثواب ، وما بينهما من التكفير والتطهير ، وضمنها التعريض بأعدائه ، وذكر كثيراً من أحوالهم ، فأنزل المغضوب عليهم الى « النار » ورفع المرضي عنهم الى « الجنة » وترك جماعة منهم في « المطهر »

ويشبه ذلك أيضاً ما كتبه « ملتن » — الشاعر الانكليزي — في روايتيه « ضياع الفردوس و « استرجاعه »

ولكن هذين الشاعرين متأخران في الزمن عن أبي العلاء ، فان « دانتي » توفي سنة ١٣٢١ للميلاد ، (نحو سنة ٧٢٠ هـ) و « ملتن » توفي سنة ١٦٧٤م (نحو سنة ١٠٨٤ هـ .) و « ابو العلاء » توفي سنة ٤٤٩ هـ ، فهو قبل « دانتي » بنحو (٢٧٢ سنة) وقبل « ملتن » بنحو (٦٣٥ سنة) ، فلا بدع — اذا قلنا انهما اقتبسا هذا الاسلوب عن شاعرنا « المعري » فان أقدمهما « دانتي » ظهر بعد أن احتك الافرنج بالمسلمين في الحروب الصليبية ، ونقلوا كتبهم — في العلم والفلسفة والطب الى ألسنتهم !

والايطاليان أسبق الافرنج الى

(١) نشرت بالسنة الخامسة عشرة من مجلة الهلال

الاقتباس من المسلمين ، بما انشأوه على مثال مدارس المسلمين ، وادخلوا فيها الكتب المترجمة عن العربية !

***

وتقسم مواضيع « رسالة الغفران » لى قسمين : الاول شعرى ادبى لغوى ، والثانى نوادر من المدارس الكبرى — فى القرنين (الحادى عشر ، والثانى عشر) فى « سالرنو » و « بولونيا » و « بادوا » و « بيزا » خيالية عن بعض الزنا قة ومستقلى لافكار والمتنبئين ونحوهم — ممن توالى ظهورهم فى اثناء التمدن الاسلامى ! — ويتخلل ذلك محاورات مع الشعراء الجاهليين يسألون فيها عما غفر لهم به ، فيذكر كل منهم شعراً قاله ، او عملا عمله ، فغفر له به — ومنها تسمية هذه الرسالة بـ « رسالة الغفران » كأنه يعرض بما يرجوه من المغفرة لنفسه ، عما فرط منه احياناً من الأبيات التى يعدها الناس كفرية

***

اما سياق هذه الرسالة ، فهو ان أبا العلاء جعلها رداً على رسالة جاءته من صديق له — يعرف بابن القارح ، واسمه « على بن منصور بن طالب الحلبى » الملقب بـ « دوخلة » ويكنى « أبا الحسن » — ذكر « ياقوت » فى « معجم الادباء » انه : « كان شيخاً من أهل الادب ، راوية للاخبار ، حافظاً لقطعة كبيرة من اللغة والاشعار ، وكان ممن خدم « أبا على الفارسى » فى داره ولازمه وقرأ عليه ، وكان يرتزق بالتعليم فى الشام ومصر وتوفى بالموصل »

فيظهر انه كان بين « ابن منصور » هذا ، وبين « ابى العلاء » مراسلات ، و « رسالة الغفران » واحدة منها — كتبها « المعرى » جواباً على رسالة لابن منصور — لم نقف عليها (١) ، ولكن يؤخذ من ثنايا « رسالة الغفران » ان الرجل اثنى بها على « ابى العلاء » وشبهه بالخليل بن احمد ، وسأله بعض الاسئلة ، واخبره انه مسافر الى « حلب » وذكر اناساً من المعاصرين بنقد أو ثناء ، وذكر غيظه من الزنادقة — فأجابه « ابو العلاء » برسالته المشار اليها ، وقد ضمنها ما تقدم ، من نقد الشعراء والنحويين والرواة ، ووصف الجنة وما فيها على اسلوب تصوره لنفسه ، واستنبطه من بنات أفكاره وجعل انشاءها مسجعا — التزم فيه كثيراً من الالفاظ الغريبة ، واليك خلاصة تلك الرسالة :

(١) هى الرسالة المنشورة بأول الجزء الثالث من هذا الكتاب

خلاصة الرسالة

بدأ أبو العلاء بمقدمة تمهيدية ، ثم ذكر وصول رسالة صاحبه ، وأخذ فى اطرائها والاعجاب بما حوته من البلاغة والجزالة ، حتى قال : « ان فى قدرة ربنا أن يجعل كل حرف منها شبح نور ، لايمتزج بمقال الزور ، يستغفر لمن أنشأها الى يوم الدين ، ويذكره ذكر محب خدين »

ثم ترك الرد على الرسالة ، وعمد الى وصف الجنة ، فتصور أن الله — تعالى — نصب لسطور هذه الرسالة — معاريج من الفضة والذهب ، تعرج بها الملائكة من الارض الراكدة — الى السماء ، وتكشف سجوف الظلماء ، وانه غرس لمؤلفها شجر فى الجنة ، كل شجرة منه تأخذ مابين المشرق والمغرب ، وفى ظلال الشجر الولدان المخلدون قيام وقعود ، وهم صلة من الله — تعالى — لعلى ابن منصور ، وتجري فى أصول ذلك الشجر انهار تستمد ماءها من الكوثر ، من شرب منها لايموت !

وعلى تلك الأنهار آنية الزبرجد والياقوت — على اختلاف ألوانه — بعضها على هيئة الطيور السابحة — على صور الكراكى والطواويس والبط — ينبع من أفواهها شراب شهى ، كأنها الانهار الخمرية ، تلعب فيها أسماك — على صور السمك — برية أو بحرية ، الا أنها من الذهب والفضة وصنوف الجواهر ، فاذا مد المؤمن يده الى واحدة منها شرب من فيها شراباً عذباً لو وقعت الجرعة منه فى البحر الملح لحلا

***

ثم انتقل « ابو العلاء » الى الكلام عن « ابن منصور » فتصور جلوسه هناك — وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس ، كأخى ثمالة ، وأخى دوس ، ويونس بن حبيب الضبى ، واحمد بن يحيى ، وسيبويه ، والكسائى وأبى عبيدة ، وغيرهم — ممن كتبت لهم المغفرة ، وان الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ويحيونهم ، وأبو عبيدة يذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان ، والاصمعى ينشدهم أحسن ماقيل !

ثم تهش نفوسهم للعب ، فيقذفون تلك الآنية الثمينة فى تلك الانهار ، فتتقارع ، فيسمع لها أنغام تحيى الاموات !

فيقول الشيخ — ابن القارح — : « آه لمصرع الاعشى — ميمون بن قيس ، فقد ذكرته لما تقارعت الآنية ، ووددت أنه ما صدته « قريش » لما توجه الى النبى

(ص .) وانما ذكرته لورود مثل هذا التقارع فى قصيدته الحائية » — ويأتى بأبيات منها — ثم يقول: « ولو أنه أسلم لجاز أن يكون بيننا فى هذا المجلس فينشدنا ويحدثنا ! »

نزهة ابن منصور فى الجنة

ثم يخطر للشيخ شىء كان يسمى فى هذه الدنيا « النزهة » فيركب فرساً من أفراس الجنة ، خلق من ياقوت ودر ، ويسير فى الجنة على غير منهج ! ومعه شىء من طعام الخلود — وهو ينشد بيتين للاعشى المذكور، فيسمع هاتفاً يسأله : «هل تعرف صاحب هذين البيتين ؟ » فيقول الشيخ . «هو ميمون بن قيس !» فيقول الهاتف: « أنا ذلك الرجل ، منّ الله علىّ — بعد ما صرت فى « جهنم » ويئست من المغفرة ،وسجنتنى الزبانية فى «سقر» فرأيت رجلا فى عرصات القيامة يتلألأ وجهه تلالؤ القمر — والناس يهتفون به من كل أوب —: « يا محمد ! يا محمد ! الشفاعه الشفاعة : نمت بكذا ، ونمت بكذا » فصرخت فى أيدى الزبانية: ياعمد أغثنى !فانلى بك حرمة» فقال : «ياعلى ! بادره فانظر ما حرمته!» فجاء «على بن أبى طالب» — صلوات الله عليه — وأنا أعتل كى القى فى الدرك الاسفل من النار — فزجرهم عنى ، وقال: « ماحرمتك ؟ » فقلت : « أنا القائل : ألا أيهذا السائلى : « أين يممت ؟»

فان لها فى أهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثى لها من كلالة
ولا من حفى، حتى تلاقى محمدا (١)

وقلت لعلى « قد كنت مؤمناً بالله وبالحساب ، وأصدق بالبعث — وأنا فى الجاهلية (وأتى بأبيات تؤيد قوله) فذهب « على » الى النبى ، فقال « يارسول الله ! هذا « أعشى قيس » قد روى مدحه فيك ، وشهد أنك نبى مرسل » فقال : « هلا جاء فى الدار السابقة »فقال «على» : « قد جاء، ولكن صدته « قريش » وحبه للخمر فشفع لي ، فأدخلت الجنة — على أن لا أشرب فيها خمراً ، فقرت عيناى بذلك ، وان لى مناذح فى العسل وماء الحيوان، وكذلك من لم يتب من الخمر فى الدار الساخرة ، لم يسقها فى الآخرة »

ثم يلتفت «ابن منصور» الى رياض الجنة ، فيرى قصرين منيفين مكتوب على أحدهما: «هذا القصر لزهير بن أبى سلمى المزنى » وعلى الآخر : « هذا

(١) ذكرت القصيدة فى (ج «١» ص « ٦٨ ») فلا داعى لاعادة ذكرها هنا

القصر لعبيد بن الابرص الاسدى »

***

(ثم يصف أبو العلاء مقابلة الشيخ لكل منهما وحديثه معهما بشأن ما غفر لهما به ـ مع ما أتياه فى الجاهليه من شرب الخمر ، فيذكر كل منهما أبياتا غفر له بها، فلما يسمع الشيخ ذلك يطمع فى سلامة كثير من أصناف الشعراء ، فيسأل عن « عدى بن زيد العبادى » فيدلونه على منزله ، فيذهب ويجرى له معه حديث طويل ـ على نحو ما تقدم

ثم يركبان ـ كل منهما ـ على سابح من خيل الجنة ـ ويخرجان للنزهة فيلتقيان بأبى ذؤيب الهذلى ـ وهو يحتلب ناقة فيحادثه « ابن منصور » ويسأل عن أبيات قالها ، ثم يمضى فى نزهته بشابين ـ كل منهما على باب قصر من درر، فيسأل عنهما ، فاذا هما النابغتان ـ الجعدى والذبيانى ـ فيقول الشيخ : « ان الجعدى استوجب الجنة بالاسلام ، وأما أنت يا أبا امامة فما جهتك ؟ » فيجيب أنه كان مقرا بالله وأنه حج فى الجاهلية ، الى أن يقول : « ألم تسمع قولى :

فلا لعمر الذى قد زرته حججا
وما هريق على الانصاب من جسد

والمؤمن العائذات الطير يمسحها
ركبان مكة بين الغيل والسند

وقولى :

حلفت ، فلم اترك لنفسك ريبة
وهل يأثمن ذو أمة ـ وهو طائع

يصطحبات من لصاف وثبرة
يردن الا لا سيرهن تدافع

ولم أدرك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتقوم الحجة على بخلافه »

فيسر الشيخ لذلك ، ويطلب الى النابغتين أن يقيما معهما للمنادمة ، ثم يقول : « وكيف لنا بأبى بصير ؟ » فلم تتم الكلمة الا وأبو بصير حاضر (وهو أعشى قيس) فصاروا خمسة ، فيأخذ « ابن منصور » يسأل « النابغة الذبيانى » أسئلة عن شعره وما قاله للنعمان بن المنذر ، (ويتخلل ذلك نقد شعرى لطيف ، ويفعل مثل ذلك بالنابغة الجعدى ، ثم بأعشى قيس)

***

وهم فى ذلك يمر رف من إوز الجنة فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر أمراً ـ ومن شأن طير الجنة أن يتكلم ـ ثم ينتفضن فيصرن جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة بأيديهن المزاهر ، وأنواع ما تلتمس به الملاهى ، فيغنين !

فبينما هم فى ذلك ـ يمر شاب فى يده محجن ياقوت ـ واذا هو «لبيد بن ربيعة» فيسألونه عن مغفرة ربه ويستنشدونه ويباحثونه ، وينتقدون اقواله ، ثم يخطر لابن منصور غناء القيان فى الفسطاط ومدينة السلام وترجيعهن بميمية المخبل السعدى، فتندفع الجوارى يلحن قول السعدي المذكور ؛ وينظر « ابن منصور » فى معانيها ، ثم ينتقلون الى البحث الشعرى ، فيمر بهم « حسان ابن ثابت » فينتقدون بعض قوله ـ فى مدح النبى ـ فيدافع عن نفسه

***

ثم يفترق أهل هذا المجلس ـ بعد ان أقاموا فيه كعمر الدنيا أضعافا كثيرة ـ فينفرد الشيخ فى رياض الجنة ، وبينما هو يطوف فيها ـ يلقاه خمسة نفر على خمس أينق ، فيسأل عنهم ، فيقولون : « نحن عوران قيس » وهم « تميم ابن مقبل » و « عمرو بن احمر» و «الشماخ» و « راعي الابل » و « حميد بن ثور » فيأخذ الشيخ فى تساءلهم عن بعض أقوالهم فيجيبونه، وينتقدهم الواحد بعد الآخر فى الشعر واللغة والنحو ، حتى يسأل « تميما »عن شعر قاله ، فيقول هذا : «والله ما دخلت من باب الفردوس ومعي كلمة من الشعر ولا الرجز ؛ لأنى حوسبت حسابا شديدا ، وقيل لى : « كنت فيمن قاتل « على بن أبى طالب» وانبرى الى « النجاشى الحارثى ، فما افلت من اللهب حتى سفعنى سفعات، وان حفظك لمبقى عليك ، كأنت لم تشهد اهوال الحساب ، ومنادى الحشر يقول :«أين فلان بن فلان » والشوس الجبارة من الملوك تجذبهم الزبانية الى الجحيم ، والنسوة ـ ذوات التيجان ـ يصرن بألسنة من الوقود فتأخذ فى فروعهن واجسادهن ، فيصحن : « هل من فداء؟ هل من عذير يقام ؟ »والشباب من أولاد الاكاسرة يتضاغون فى سلاسل النار ، ويقولون :«نحن أصحاب الكنوز ، نحن أرباب الفانية ، ولقد كانت لنا الى الناس صنائع واياد ، فلا فادى ولا معين »

فيهتف داع من قبل العرش : « او لم نعمركم ،ما يتذكر فيه من تذكر ـ وجاءكم النذير ، فذوقوا فما للظالمين من نصير ؟ « لقد جاءتكم الرسل فى زمان بعد زمان ، وبذلت لكم ما وكد من الايمان ، وقيل لكم فى الكتاب : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ـ وهم لا يظلمون ـ» « فكنتم فى لذات الساخرة واغلين ، وعن

اعمال الآخرة متشاغلين ، فالآن ظهر النبأ ، لا ظلم اليوم ، ان الله قد حكم بين العباد »

***

(وعند ذلك يأخذ الشيخ « ابن منصور » فى تلاوة قصته ـ منذ بعث وجاء دار القيامة الى تلك الساعة ، فيذكر انه قضى فى الطريق خمسين ألف سنة ، واشتد عليه الظمأ ، وانه لما وصل الجنة نظم ابياتا فى مدح خازنها « رضوان » تزلفا اليه حتى يدخله ، فلم يحفل بها ، ولا به ، فناداه وعاتبه ، فقال « رضوان » : « وما الاشعار ، فانى لم اسمع بهذه الكلمة قط الا الساعة » فاجابه الشيخ : « الاشعار جمع شعر ، والشعر جمع كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط ـ ان زاد او نقص ابانه الحس ، وكان اهل العاجلة يتقربون به الى الملوك والسادات ، فجئت بشىء منه اليك لعلك تأذن لى بالدخول فى هذا الباب »

فأنكر عليه « رضوان » الدخول الا باذن الله ، فانصرف الى خازن آخر تقرب اليه بالشعر فلم يفهم مراده ، ثم قال له : « احسب انك تعنى قرآن ابليس المارد ، فهذا لا ينفق على الملائكة انما هو للجان وقد علموه ولد آدم »

ثم سأله عن غرضه فقال : « أن أدخل الجنة » فقال : « من أى الأمم أنت ؟ » قال : « من أمة محمد ! »

فأشار عليه أن يستشفع نبيه ، فاستشفعه ـ فى حديث طويل ، ذكر فيه النبى وزوجه « خديجة » وابنته « فاطمه » وأولاده « عبد الله » و « القاسم » و « الطيب » و « الطاهر » و « ابراهيم »

فتعلق « ابن منصور » بركاب « ابراهيم » حتى أتى الصراط ، فمر عليه ، فلما وصل باب الجنة ، قال له « رضوان » : « هل معك جواز ؟ » فقال : « لا » فأراد منعه من الدخول فجذبه « ابراهيم » جذبة أدخله بها الجنة)

***

فلما يفرغ « ابن منصور » من قصته يعود الى مباحثة الرفاق ، ثم يعرض لهم « لبيد » فيدعوهم الى منزله فى « القيسية » فيرافقونه ـ واذاهم بأبيات ثلاثة ، فيتساءلون عنها فيقول « لبيد » : « انها بنيت له بدل ثلاث ابيات من الشعر قالها فى حمد الله وذكر نعمائه ! »

ثم يبدو للشيخ أن يصنع مأدبة يجمع فيها ما أمكن من شعراء الحضرمة

والاسلام وغيرهم ، ويقترح أن تكون كآدب الدار العاجلة ، فتنشأ أرحاء على الكوثر ـ تجعجع لطحن القمح برحى من عسجد، تديرها جوار من الحور العين؛ ثم يؤتى باللحوم والطهاة ويفرق الغلمان لاحضار المدعوين فلا يتركون فى الجنة شاعرا اسلاميا ولا مخضرما ولا عالما بشئ من أصناف العلوم لا يحضرونه فيجتمع خلق كثير، فاذا قضوا الأرب من الطعام تأتى السقاة بأصناف الأشربة والمسمعات بالأصوات المطربة ، ويحضر أشهر المغنين المعروفين ـ عند العرب وتدور الاحاديث يتخللها أبحاث فى الشعر والغناء والادب والنحو ـ لا محل لها هنا .

ثم يفترق أهل ذلك المجلس ، ويخلو « ابن منصور » بحوريتين ، ويتلو ذلك وصف حور الجنة

تطلع (ابن منصور) الى اهل النار

ثم يخطر للشيخ « ابن منصور » أن يتطلع الى أهل النار ، لينظر ما هم فيه ، فيركب بعض دواب الجنة ويسير ، فاذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ـ فيسأل بعض الملائكة عنها ، فيقولون : « هذه جنة العفاريت والجان ! »

(ويلى ذلك بحث فى شعر الجان وطباعهم ، مع شيخ منهم يجدونه هناك)

ثم يتنقل فيجد سباعا يسأل عن حديثها وسبب وجودها ، ثم يذهب فى كل سبيل ، فيجد رجلا ليس عليه نور سكان الجنة ، فيسأل عنه : فيقول « أنا الخطيئة ! » فيسأله : « بماذا وصل الى الشفاعة ؟ » فيقول : « بالصدق فى قولى :

أبت شفتاى اليوم الا تكلما
بهجر ، فلا أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجها ـ شوه الله خالقه ـ
فقبح من وجه ، وقبح حامله »

ثم يتطلع الشيخ فيرى « ابليس » وهو يضطرب فى الاغلال والسلاسل؛ ومقامع الحديد تأخذه من ايدى الزبانية ، فيسأله « ابليس » : « ممن هو ؟ » فيخبره « أنه فلان من أهل حلب »

ثم يدور بينهما حديث يذكر فيه « بشار بن برد » لانه مدح « ابليس » بشعره ، واذا ببشار يغمض عينيه حتى لا ينظر الى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، وقد أعطى عينين بعد الكمه ، لينظر

الى ما نزل به من النكال . فيباحثه «ابن منصور» فى بعض أقواله .

ثم يسأل عن « امرئ القيس » فيأتونه به، فيسأله بعض الشيء عما رواه « البغداديون » من أشعاره وينتقده ويطعن فى النقلة الذين أخطأوا فى نقل أقواله، وفى ماغيره المعلمون فى الاسلام منها - فى كلام طويل

ثم يلقى « عنترة العبسى » متلددا فى السعير ، فيسأله وينتقده نقداحسنا، ثم يسأل عن «عمرو بن كلثوم» فيقال: « ها هوذا من تحتك ، إن شئت أن تحاوره فحاوره » فيخاطبه!

ويفعل مثل ذلك فى « طرفة ابن العبد » و « أوس بن حجر » و « أبى كبير الهذلي » و « صخر » واذا « الأخطل » و« المهلهل » و « المرقش الأكبر » و « المرقش الأصغر » و« الشنفرى » و « تأبط شرا »

رجوعه الى قصره

ثم يمل من خطاب أهل النار ، فينصرف الى قصره المشيد فى الجنان ، فيلقى آدم ، فيسأله عن بعض شؤونه ، ويضرب سائرا فى « الفردوس » فاذا هو بروضة مؤنقة - فيها حيات يلعبن ؛ فيستغرب وجودهن هناك

فتخاطبه كل منهن أنها صارت الى الجنة بحسنة أتتها ، فمنهن «ذات الصفا» وحية كانت تسكن دار «الحسن البصرى» وغيرها .

ثم يمر بمكان يقال له : « إنه جنة الرجز » وينتقد الرجز وأصحابه - ولا سيما « رؤبة » و « العجاج » ويخاطبهما ويباحثهما .

ثم يذكر « الشيخ » ماكان يلحق شاربى المدام من فتور فى الجسد ، فيختار أن يعرض له ذلك، فيشعر بشيء فى العظام كدبيب النمل ، ويتكئ على مفرش من السندس ؛ ويأمر الحورالعين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة - وإنما هو زبرجد ، أو عسجد، فيكون فيه البارئ حلقا من الذهب ، تطيف به من كل الأشراء ، حتى يأخذ كل واحد من الغلمان وكل واحدة من الجوارى المشتبهة بالجمان بواحدة من تلك الحلق ، فيحمل على تلك الحال الى محله المشيد بدار الخلود ، فكلما مر بشجرة نضحته

أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور ويمسك ما جنى من دماء الفور ، بل هو بتقدير الله الكريم، وتناديه الثمرات من كل أوب ـ وهو مستلق على الظهر ـ: « هل لك يا أبا الحسن ؟ هل لك ؟ » فإذا اراد عنقودا من العنب انقضب من الشجرة ـ بمشيئة الله ـ وحملته القدرة الى فيه ـ وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحية ـ وآخر دعواهم : « أن الحمد لله رب العالمين » لا يزال كذلك ابداً سرمدا ، ناعماً فى الوقت المتطاول منعما، لا تجد فيه الغير مزعما

الرجوع الى موضوع الرسالة

ان ما تقدم خلاصة مئة وعشرين صفحة من « رسالة الغفران » كلها جمل معترضة ، تمنى بها « ابو العلاء» السعادة « لابن منصور » بدلا مما نعبر عنه عادة بقولنا : « أطال الله بقاء مولاى ، وأدام عزه » أو نحو ذلك

وبعد هذا الشرح الطويل عكف « أبو العلاء » نحو الموضوع المراد بالرسالة ، فقال :

« وقد أطلت فى هذا الفصل فنعود الي الاجابة عن الرسالة »

فأخذ فى الرد على ماجاء فيها ـ وهو يبالغ فى الاطراء بصاحبه ، والتواضع عن نفسه ، وينكر مانسب اليه من سعة العلم ـ وضمن أقواله شروحا أدبية وشعرية وانتقادات ونوادر يأتى بها عرضاً ، ويشتمل ذلك على القسم الثانى من موضوع الرسالة ـ أى الكلام عن الزنادقة ـ جوابا على ما جاء فى « رسالة ابن منصور » من غيظه منهم ، فيذكر أحوالهم وطبقاتهم ، ويتخلل ذلك كلام عن « بشار بن برد » و « سيمويه » و« وصالح بن عبدالقدوس » وزندقته، وحكايات عن الزنادقة فى بلاد اليمن وغيرها وعن «الحلاج» المشهور

وأشار الى تعظيم الخلفاء للقرود،وذكر خلاصة تاريخ « الالحاد » و الزندقة » و «الحلولية »و«التناسخ» وغيرها

* * *

فالرسالة تدل على تمكن كاتبها من آداب الجاهلية وأشعارها وأمثالها ، وتوغله فى درس كل شاعر وأقواله وانتقاد كل بيت من أبياته،غير تعمقه فى معرفة الفاظ اللغة ومعانيها المختلفة

ولولا ماتضمنته الرسالة من الالفاظ الغريبة لكانت من أفضل ما يتلى من

كتب الأدب لما حوته من الأبحاث الادبية والانتقادات الشعرية واللغوية والنحوية والتاريخية ، فضلا عن انتقاد رواة الشعر والادب، واختلاف النحاة والمؤرخين فى بعض الاحوال ، وقد ضمنها كثيرا من أشعار الجاهلية وغيرها، مما لم يرد فى سواها من الدواوين الشائعة

وفيها أيضا فوائد اجتماعية وأدبية كالنهى عن الانتحار وتقبيحه، ووصف البدع والنخل ، كالزندقة والحلولية ووصف الحمائم وأنواعها وتمثيل مايقال عن حالة الجنة وأنهارها وأشجارها وحورها وغلمانها ـ وقد شرح المؤلف بعض الالفاظ الغريبة فى خلال كلامه

وبالجملة فالرسالة جزيلة العائدة تشهد بسعة اطلاع « أبى العلاء » فى اللغة والشعر والتاريخ والادب

«جورجى زيدان»

السخر والزندقة فى رسالة الغفران [١]

«رسالة الغفران» أثر ممتاز من بين آثار (أبى العلاء)، واحدى المخطوطات التى تجدها فى «القسطنطينية» و«كمبردج» — وصفها كاتب هذا المقال وترجم بعضها فى «مجلة الجمعية الملكية الاسيوية [٢]»، وهى رسالة من النثر المنمق، بعث بها الى شخص بعينه، اسمه «على بن منصور الحلبى» فظهرت فيها شخصيات الشعراء الوثنيين الذين غفر لهم — ومن ثم اشتق عنوان الرسالة — وقبلوا فى الجنة حيث مثلوا ادوارهم الرئيسية فى تلك التى نستطيع ان نطلق عليها اسم «كوميديا الهية مضحكة» او — كما هى حقيقتها — محاكاة جريئة انقلبت فيها الآراء الاسلامية الجدية — عن الدار الآخرة — الى هزء وسخرية!

وقد حوت — الى ذلك — طرفا من علوم شتى — لا سيما موجزا عن الزنادقة (المفكرين الاحرار) مع نماذج من شعرهم، واشارات الى حقيقة معتقدهم!

. . . . . .

. . . . . .

ولقد كان صدق ايمان أبى العلاء موضوع مناقشات عنيفة، أثناء حياته، فهو — وان لم يحتج الى من يحميه من معاصريه — قد اعتقدوا فيه أنه زنديق، اعتقاداً هيمن على الناس منذ ذلك الحين

***

أما بيانه، فأول ما يبدهك منه خصلتان: «الغموض والتناقض» فقد قالوا انه كتب سفراً عنوانه «الفصول والغايات» محاكاة للقرآن، ولكنك تجده — رغم ذلك — فى «رسالة الغفران» يعنف أشد العنف فى تقريع «ابن الراوندى» لاتيانه نفس هذا العمل، ويقر الرأي الاسلامى الدينى فى اسلوب ذلك «الكتاب المقدس [٣]!» «وأبو العلاء» — اذا ظهر لك فى بعض تنقله فى لزومياته — متكلما عن الدين — كمسلم ورع — فانك لا تكاد تجد فى ذلك الكتاب نفسه — معتقداً اسلامياً واحدا سلم من سخريته!

وقد رغب الناس فى تعليل هذا

---

(١) مقربة عن دائرة المعارف الاسلامية L'Encyclopédie Islamique

(٢) «Roy. As. Soc.» من (ص ٦٣٧ — ٧٢٠ سنة ١٩٠٠) ومن ص ٧٥ — ١٠١ و ٣٣٧ — ٣٦٢ و ٢٣٧ — ٢٦٢ و ٨١٣ — ٨٤٧ سنة ١٩٠٢) (٣) ارجع الى ج («٢» ص «٧١ و ٧٢»

الامر فسلكوا فيه طرقا شتى، ولكن أغرب تعليل رأيناه لذلك، هو افتراض أن أفكار شاعرنا قد تحكم فيها قانونه العروضى المعتسف الذي اختاره لنظم آرائه

ولقد يضطر الانسان اضطراراً الى الشعور بأن أبا العلاء كان — من أعماق ضميره — مرتابا فى كل شيء، ارتيابا تاما وأن معظم عباراته التى امتاز بها طابعه، نشأت عن سلوكه هذا المهيع!

أما تلك النزعات الايمانية الظاهرة فمن المحتمل انه قصد بنظمها الى ذر الرماد فى عيون منتقديه، أو هى — كما يمكن افتراضه أيضاً — ناشئة عن أنه هو نفسه كان يشك أحيانا فى نفس شكوكه، وأنه لم ير بأساً من أن يجمع فى قوسه عدة أوتار مختلفة (١)

دائرة المعارف الاسلامية
L'Encyclopédie Islanique.

الايمان فى رسالة الغفران

(١)

رسالة الغفران — سفر جليل كتبه « احمد بن سليمان المعرى » جوابا على رسالة كتب بها اليه شيخ من شيوخ « حلب » يعرف بـ « على بن القارح » يخبره فيها بأنه ألقى عصى التسيار فى بلده « حلب » بعد أن جاب الآفاق ولقى الكبراء وخدم العظماء وقارب الرؤساء وباعدهم؛ ودنا منهم ثم فارقهم، ويذكر انابته الى الله واعتصامه باسباب التقوى ويشكو اليه ما يجد من فساد الزمان وأخذ الناس بأسباب الفسق وميلهم الى شرب الراح

فأجابه « أبو العلاء » عن رسالته برسالة الغفران، وأغرب فيها أيما اغراب وأوغل فى طرق الاغماض فى الاسلوب، وحشاها من غريب اللفظ ما تنوء به عقول الشادين فى الادب، ولا يمكن أن يستقل بفهمه الا من ارتاض باللغة وملأ عيابه من غريبها وحوشيها وحزى على اسلوب المعرى ومناحيه التى يقصدها

(١) من الامثلة الكثيرة التى تؤيد هذا الرأى قول أبى العلاء فى لزومياته:

قال المنجم والطبيب كلاهما : « لاتحشر الاجساد » قلت: « اليكما »
ان صح قولكما ، فلست بخاسر أو صح قولى ، فالخسار عليكما

فى تعبيره

فأما من قل زاده من الادب ، وخلت عيابه من غريب اللغة ، وقل ارتياضه بأساليب أبى العلاء ، فهو بعيد من الوصول الى فهمها — جملة وتفصيلا!

وأظهر ما يراه الاديب وترتاح اليه نفسه من الرسالة تلك الوجوه التى وجه بها أقوال الشعراء وازالة الاعتراض عليهم

هذا — وقد أطلق « المعرى » للسانه وخياله العنان ، واتخذ من توبة « ابن القارح » بابا يدخل منه الى الجنة بعد مراجعة وممانعة وضراعة وشفاعة ، حتى ظفر — بعد لأى — بدخول الجنة قبل فصل القضاء ؛ وأبدع ما شاء أن يبدع فى تصوير الجنة ورياضها وقصورها وأرباضها وأنهارها وطيرها ، بما يصدق عليه ما جاء فى السنة فى صفتها ، وما أعد الله للمؤمنين فيها ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقول الله فى كتابه الكريم : « فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين »

وفى رأيى أن الرجل لم يقصد بالدين هزؤا ولا سخرية ، وانما هو شىء جر اليه الخيال الشعرى ، وأملاه حب الاغراب فى التصوير ؛ وما أشد حب « أبى العلاء » للاغراب فى نثره وشعره وفى ألفاظه ومعانيه

واعتقادى فى « أبى العلاء » أنه كان متين الدين ، قوى اليقين ، وأنه كان شديد الوطأة على منتحلى التقوى المتظاهرين بالدين والتصوف ، والحكام وغيرهم من طوائف الناس — فكان أهل زمانه موتورين منه ؛ فكالوا له الذم ، وتجنوا عليه الجنايات ، انتقاما لانفسهم أو تقربا الى الحكام ، أو ليظهروا فى ثوب الغيرة على الدين والدفاع عن حوزته ، لينالوا على ذلك تقريظ المقرظين ، وهم — فى الحقيقة — مقصرون عن بلوغ مداه ، أرادوا أن يغضوا منه ، ويهدموا من شامخ قدره ومرفوع منارد ، ليساويهم فى خمول الذكر وضعة القدر!

***

عرف الرجل — فى حياته — شأن شأن هذا الفريق من مناوئيه ، فقال :

« حاول اهوانى قوم ، فما
قابلتهم الا باهوانى
وقولونى بقالاتهم ،
فغيروا نية اخوانى
لواستطاعوا لشكونى الى الـ
ـمريخ فى الشهب وكيوانى »

ولقد تتبعت ما يرمونه به وينسبونه اليه — من الاقوال — فوجدته اما

مكذوباً عليه ـ لم يقله ولم يوجد فى كتبه ـ واما كلاما له وجه صحيح ومعنى ينبغي حمله عليه، واما أن يكون قوله قد اقتصب اقتضاباً ـ بحيث ـ اذا ضم الى سابقه ولاحقه ـ كان على غير ما فهم الناقد أو العائب

هذا هو رأيي فى أبي العلاء ـ بعد أن قرأت «رسالة الغفران» و«اللزوميات» قراءة متفهم، أقنعتني بأن الرجل قد أصابه ما أصاب النابهين من ذوي المواهب السامية والأقدار العالية، فى قديم الزمان وحادثه، كالغزالى وابن تيمية وابن رشد وجمال الدين وأستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده ـ فلم يخل واحد من هؤلاء من عدو كاشح يرميه بالمقذعات ويزحزحه عن حظيرة الدين، والدين أسهل باب يلجه القادحون، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

ابريل سنة ١٩٢٥ عبد الوهاب النجار

***

حاشية فاتنى فى كلمتى السابقة أن أقول: إن من ارتاض بأسلوب «أبى العلاء واضطلع باللغة، ووعى كثيراً من الغريب، رأى فى «رسالة الغفران» لذة وفائدة، أما اللذة فمن الفكاهات التى يجدها فى تلك الرسالة من توجيه أقوال الشعراء وتلمس النكات، وأما الفائدة ففى تلك الدعوات التى يوجهها «أبو العلاء» الى «ابن القارح» ولا يشبه فيها دعاء دعاء ـ مع كثرتها ـ مما يدل على قدرته وسعة ذرعه فى اللغة والادب، وفى تلك الجمل التى يتبعها بتفسيرها بين حين وآخر.

هذا ما أردت اثباته والسلام

ابريل سنة ١٩٢٥ عبد الوهاب النجار

(٢)

كان أبو العلاء المعرى من الفلتات فى البيئة التى نبت فيها، بل فى العالم الاسلامى فى ذلك العهد، فقد تقدم الذى يناسب مواهبه الفطرية ببضعة قرون، ولذلك نشأ ثائراً على كل ما يحيط به من عادات وتقاليد وأوضاع؛ حتى على ما كان يفهمه الناس من معنى الدين، من هنا حشرة الاكثرون فى زمرة الملحدين، وكان من أقوى أدلتهم على الحاده «رسالة الغفران» و«اللزوميات»

فاذا كان التدين هو الخضوع لصورة ذهنية، تنحل صفات علوية، منتزعة من الصفات البشرية، والتأثم من الرذائل خوفاً من عقاب، والتحلى بالفضائل طمعاً فى ثواب، والتقليد فى العبادات والمعاملات واهمال أحكام العقل والنظر، والجمود على

حالة نفسية لاتتغير ، والاستعصاء على ناموس الترقى ، قلنا : اذا كان التدين هو تقمص هذه الروح، فإن «أبا العلاء» لم يكن متديناً :

ولكن اذا كان التدين ـ على ما نفهمه اليوم من معنى الاسلام ـ هو محو كل صورة ذهنية ، وتعريض صفحتى العقل والقلب للوجود المطلق ، رجاء أن ترتسم عليها الحقيقة تحميها الشكوك من عبث الخيالات ، والثورة على كل تقليد يناقضه بداهة العقل ، وعلى كل نظام لا يوافق سنن الطبيعة ، واستشعار الروعة من المجهول الضخم الذى يحيط بنا من كل مكان ، والترفع عن الدنايا لانها لاتتفق وكرامة الانسان، واحالة الحاجات البدنية الى أدنى حدودها ، قلنا : اذا كان التدين هو هذا ، فان «أبا العلاء» كان من أعمق الناس تديناً

***

كل مايؤخذ على « أبى العلاء » أنه كان شاكا حائراً، فلو كنا نعيش فى القرون الخالية ، لحكمنا لاول وهلة أنه كان ـ لهذا السبب ـ ملحداً ، ولكنا ـ ونحن فى عصر التحليل والتركيب ـ نقول : انه لهذا السبب عينه كان متديناً : فان الاطمئنان بهذا العقل العادى الى صور ذهنية ، والاخلاد الى حالة نفسية لاتتطور، يشعر بخمود الخصائص العقلية ودثور المزايا الانسانية :

والتدين ـ اذا عرف بأنه تقليد وعض بالنواجذ على أمور مقررة ، فالشاك الحائر لا يكون من أهله ، ولكنه ـ اذا فهم بأنه تعطش مستمر الى فك معمى الحياة ، وتوثب عقلى لادراك هذا المجهول الهائل ، كان من اخص صفات المتدين الشك والحيرة ، وتلك كانت حالة «أبى العلاء» فى جميع أطواره فكيف يقول عنه ابن القرن العشرين انه كان ملحداً .

أدريت من هو الملحد؟ الملحد والمتنطع فى الدين اخوان توأمان ، كلاهما يعتمد على هذا العقل الناقص فى الحكم على مالم يحط بعلمه؛ وفى السبح فى لجج الخيالات وفى عدم الشعور بالتبعة الادبية فى اصدار الاحكام النهائية فالملحد ينكر على الاطلاق ، والمتنطع فى الدين يثبت على الاطلاق ، لايصدران كلاهما عن دليل يقوى على التحليل ، فهما صنوان فى الاخلاد الى الخيالات، ولكن بينهما حالة هى الاولى بهذا الانسان الضعيف، فى وسط هذا الوجود المخيف ، هى حالة الشك والحيرة ، يفكر وينظر ويرود

المساتير، حتى اذا هم أن يطمئن الى عقيدة مقررة تراءت وجوه المجاهيل فأدركه (الشك) ، ثم انه كلما اتجه الى وجهة متوهماً انها سبيل المعرفة الصحيحة ، بدت له طرائق شتى ، وتفرعت منها طرائق اخرى فوقع فى (الحيرة) ـ فهو يقضى وجوده بين الشك والحيرة يقظ القلب ، حى الشعور ، لاتزدهيه المظاهر ولا تخدعه الظواهر ، متعرضاً لنور الحق ـ ليس بينهما حجاب !

وهذا ما كان عليه ابو العلاء

ابريل ١٩٢٥ محمد فريد وجدى

آراء في رسالة الغفران

— ١ —

رأى الاستاذ الدكتور طه حسين

آية الادب العربى ، لا استثنى منه شيئاً ، لا استثنى منه شعراً ولا نثراً ، ولا أستثنى منه قديماً ولا حديثاً ، لا أستثنى منه شيئاً ما !

هى آية الادب العربى ، كما أن صاحبها هو آية كتاب العرب ، هى آية التفكير العربى ، هى آية الخيال العربى ، هى آية السخرية العربية ، هى آية الحرية العربية ، هى آية العرب فى هذا كله .

لا أغلو فى ذلك ولا أسرف ، بل أعترف بأنى دون ما أريد !

(٢)

رأى الاستاذ محمد كرد على

. . . . ولكن « رسالة الغفران » التى كتبها (أبو العلاء) رداً على رسالة ابن القارح — وكلاهما مطبوع — أشبهت رواية دانتى (Dante) الشاعر الايطالى (La divine comedie) وكانت من أعظم الروايات الخيالية الدالة على أن أعمى المعرة كان معلماً لنابغة ايطاليا فى الشعر والخيال

وبعض الباحثين من المتشرقين فى أوروبا على أن « دانتى » فى روايته « الالهية » المؤلفة من ثلاث روايات وهى جهنم والمطهر والجنة ، التى ألفها بين سنتى (١٣٠٠ — ١٣١٨ م) قد اقتبسها — ولا سيما رواية جهنم — من رسالة الغفران للمعرى ، ونسج على منواله فى التصور !

(٣)

رأى مستعرب الانجليزية (١)

. . . . وان من أحسن ملاحم المولدين ملحمة نثرية ، جمع فيها صاحبها شتيت المعانى وأوغل فى التصور حتى سبق « دانتى » الشاعر الايطالى ، و « ملتن » الشاعر الانجليزى الى بعض تخيلاتهما — ألا وهى « رسالة الغفران » لابى العلاء المعرى

ولكن استغلاق عبارتها وفقدان الطلاوة الشعرية منها ينحطان عن درجة أمثالها من ملاحم الاعاجم !

— ٤ —

رأى المرحوم « جورجى زيدان »

هى من جملة رسائل أبى العلاء ،

(١) هو الاستاذ المرحوم سليمان البستانى

ولكننا افردناها بالكلام لأنها طبعت على حدة ، ولها شأن خاص من حيث موضوعها ، وهي فلسفية خيالية كتبها فى عزلته وضمنها انتقاد شعراء الجاهلية والاسلام وادبائهم والرواة والنحاة . على أسلوب روائى خيالى لم يسبقه اليه أحد .

فتخيل رجلا صعد الى السماء ووصف ماشاهده هناك . كما فعل « دانتى » شاعر الايطاليان فى « الرواية الالهية » وما فعله « ملتن » الانجليزى فى « ضياع الفردوس » لكن ابا العلاء سبقهما ببضعة قرون ، لأن دانتى توفى نحو سنة ٧٢٠ هـ وملتن نحو سنة ١٠٨٤ هـ وتوفى ابو العلاء سنة ٤٤٩ هـ ، فلا بدع اذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه ، واقدمها « دانتى » لم يظهر الا بعد احتكاك الافرنج بالمسلمين . والايطاليان أسبق الافرنج الى ذلك .

وتقسم مواضع رسالة الغفران الى قسمين ادبى لغوى ونوادر خيالية عن بعض الزنادقة ومستقلى الافكار والمتنبئين ونحوهم ، ممن توالى ظهورهم فى أثناء التمدن الاسلامى . ويتخلل ذلك محاورات مع شعراء الجاهلية يسألون فيها عما غفر لهم به فيذكر كل منهم شعراً قاله أو عملا عمله فغفر له به . ومنها تسمية هذه الرسالة برسالة الغفران . كأنه يعرض بما يرجوه من المغفرة لنفسه عما فرط منه أحيانا من الابيات التى يعدها الناس كفرية .

— ٥ —

رأى صحيفة الاهرام

لعل المكتبة العربية أغنى واغزر مكتبة ابقاها سلف لخلف فى أى أمة من أمم الشرق والغرب بالرغم من الآفات التى منيت بها فى اسبانيا وبغداد وسائر الاقطار ، ولكن كثيراً من المؤلفات العربية القديمة افرغت فى القالب الملائم للعصور التى كتبت فيها ، فبعدت عنها اذواق نشئتنا التى سايرتها المدارس العصرية فى غير هذا الطريق

ولما رأى الاديب المجيد كامل افندى الكيلانى انه فى (رسالة الغفران) للشاعر الحكيم أبى العلاء المعرى « فنا من الادب العالى لايقل عن أجل أثر أخرجه اكبر رأس غربى مفكر » اراد ان يفرغها فى قالب عصرى متذرعا بذلك الى تحبيب هذا الاثر الادبى القيم للشباب المفكر ، وتقريباً له من اذواقهم وميولهم الادبيه فتناوله بالتبويب

العصرى أولا ، وبالايجاز والشرح ثانياً وقدم بين يديه — غير ترجمة المعرى وان القارح الذى كتبت الرسالة اليه . فصلا عن المعرى وعبقريته ورسالته هذه ، بقلم العالم الفاضل محمد فريد بك وجدى ، والكتاب فى نحو مائتين وخمسين صفحة، فنحث الادباء على اقتنائه

— ٦ —

رأى مجلة الهلال (١)

وعثروا على رسالة كبيرة تسمى « رسالة الغفران » لم تدخل فى هذه الرسائل (٢) ، ولم تطبع بعد ، ولكن منها نسخاً خطية فى بعض مكاتب أوروبا الكبرى ، وفى المكتبة الخديوية (٣) وهى فلسفية خيالية — على شكل الرواية لغتها مثل لغة سائر رسائله ، صفحاتها نحو ٢٠٠ صفحة، يتضمن قسمها الاول محادثات خيالية بين الشيخ « على ابن منصور » . بطل الرواية . وبعض شعراء الجاهلية الذين غفرت لهم سيئاتهم ودخلوا الجنة فيسأل الله كلا منهم عما ساعده على نيل الغفران فيجيب أنه ناله بشعر قاله أو عمل عمله فيتخلل ذلك نخبة اشعار الجاهلية وكثير من احوالهم . ، والقسم الثانى يبحث فى الزنادقه والدهريين

— ٧ —

رأى الاستاذ شبل شميل (٤)

« رسالة الغفران » هى رسالة للمعرى رداً على رسالة لعلى ابن منصور وكأن « علياً » المذكور عرض فيها بالحاد «المعرى» فأجابه بها «أبو العلاء» يصف له الجنة التى أعدت له جزاء رسالته هذه :

— ٨ —

رأى الاستاذ سير ابراهيم الساعى

يعترينى فى بعض ساعات الملل فتور شديد يزهدنى فى كل كتاب ويحميني القاء نظرة واحدة على أى سفر كائنا ماكان . ولكنى لاأذكر أن ساعة من تلك الساعات المضجرة المسئمة استطاعت أن تقصينى لحظة واحدة عن التمتع بأدب أبى العلاء الذى أرى فيه — دائما . وفى

(١) ارجع الى السنة الخامسة عشرة من مجلة الهلال (ص٢٠١)

(٢) يعنى رسائل أبى العلاء المطبوعة ، وقد عنى الاستاذ مرجليوث المستشرق المشهور بنشرها مع ترجمة انجليزية وتعليقات نافعة ، وقد طبعت طبعة اخرى فى بيروت سنة ١٨٩٤

(٣) دار الكتب المصرية (٤) ذكر هذا الرأى فى كتابه « صدى رسالة الغفران »

أشد ساعات مللى وضجرى ـ صيقلا لفهمى ومنشطا لفتوري ومفرجا لضائقة نفسى

***

لاأعرف أثراً أدبيا قرأته فوددت أن آتى على قراءته لأعود اليه مرة ثانية ، الا وجدتنى ـ بعد الانتهاء منه ـ متكاسلا عن معاودة النظر فيه والمضى فى قراءته ،ثم لاتلبث مشاغلى واعمالي الكثيرة أن تنسينيه !

***

حدث لى ذلك فى كل ماقرأته . لا استثنى منه الا اثرا خمسة ما قرأتها مرة الا عاودنى حنين الى قراءتها واحتثنى شغف شديد الى التمتع بأفكارها الباهرة وجمالها المتجدد ،إذا قرأتها للمرة الثانية دفعنى ذلك الى قراءتها للمرة الثالثة والرابعة ،وهكذا أقرأها للمرة العشرين فتتكشف لي منها جوانب أسمى وأروع وأمتع من تلك التى ظهرت لى فى المرة الاولى، وستظل متعتى وأنسى ماحييت

تلك الآثار الأربعة هى رسالة الغفران ولزوم ما لا يلزم وديوان ابن الرومى وكتاب كليلة ودمنة وكتاب الف ليلة وليلة

تلك اسفار كتب لها الخلود :

— ٩ —

رأى الاستاذ جلال نهير (١)

أظهر المعرى ـ بانشائه رسالته الى صديقه « على بن منصور » ـ سفرا رفيع القيمة من وجهتى النظر الأدبية والتاريخية

ولم يلق هذا السفر ما هو خليق به من العناية الى اليوم ، مع انه لا يقل عن أن يوصف بأنه « غاية متقنة » أو انضاج لفكرة « الكوميديا الالهية » سبق انشاؤه « دانتى » بقرنين ونصف قرن .

وقد اشتمل ـ فى كل مكان منه ـ على مباحث فى فلسفة اللغة عرض لها المؤلف اثناء تحليله آثار الشعراء واطلق عليه اسم « رسالة الغفران »

(١) معربة عن كتابه « مناحى تفاسير القرآن الرئيسية »

بين داعى الدعاة وأبي العلاء

رسائل الحيوان [1]

روى ياقوت فى معجمه أن السبب فى انشاء تلك الرسائل وما فيها من حوار ومناقشات ممتعة : أن أبا نصر بن ابى عمران « داعى الدعاة بمصر » لما قرأ قول ابى العلاء

غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتخبر أنباء العقول الصحائح [2]

---

(١) ننشر فى هذه الصفحات تلك الرسائل الممتعة التى وعدنا بنشرها فى (ج « ١ » وج « ٢ » ص « ٢٢ » وص « ١٦٧ »)

(٢) هذا البيت هو مطلع قصيدته التى نعدها تشريعه الخاص فى امر الحيوان، وقد أورد فيها حججه وبين الاسباب القاهرة التى دعته الى تحريم أكل اللحوم على نفسه ، ويلى هذا البيت قوله :

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا بيض أمات أرادت صريحه لأطفالها ـ دون الغوانى الصرائح
ولا تفجعن الطير ـ وهى غوافل ـ بما وضعت ، فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته ـ كى يكون لغيرها، ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدى من كل هذا ، فليتنى ابهت لشأنى، قبل شيب المسائح
بنى زمنى ! هل تعلمون سرائراً علمت ؟ ولكنى بها غير بائح
سريتم على غى، فهلا اهتديتم بما خبرتكم صافيات القرائح
وصاح بكم داعى الضلال، فما لكم أجبتم ـ على ما خيلت ـ كل صائح
متى ما كشفتم عن حقائق دينكم تكشفتم عن مخزيات الفضائح
فان ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم ولا تلزموا الاميال سبر الجرائح

الى آخر القصيدة التى يرجع اليها القارىء ـ ان شاء ـ فى الجزء الاول من اللزوميات ص (١٨٤ — ١٨٥)

كتب الى المعرى يقول له: « أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ، وقد أتيتك مستشفيا فاشفنى » ودارت بينهما مراسلات فى ذلك .

قال ياقوت : « ولما وقفت على ذلك اشتهيت ان أقف على صورة مادار بينهما على وجهه حتى ظفرت بمجلد وفيه عدة رسائل من أبى نصر هبة الله بن موسى بن أبى عمران الى المعرى فى هذا المعنى ، انقطع الخطاب بينهما على المساكتة »

قال : « ونقلها على الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض دون تفاصح المعرى وتشدقه ! » ونحن نأسف على فقدان ذلك « المجلد النفيس » الذى نشعر بشدة الحاجة اليه ، ونشكر لياقوت تلخيصه الذى حفظ لنا جوهر الرسائل ، وان وددنا لو أنه نقلها كما هى بلا ايجاز ، ولكن بعض الشر أهون من بعض ، والى القارئ تلك الرسائل كما أوردها ياقوت :

رسالة « داعى الدعاة »

الشيخ (١) ـ أحسن الله توفيقه ، الناطق بلسان الفضل والأدب ، الذى ترك من عداه صامتاً ـ مشهود له بهذه الفضيلة من كل من هو فوق البسيطة ، غير أن الادب الذى هو جالينوس طبه ، وعنده مفاتيح غيبه ، ليس مما يفيده كبير فائدة فى معاشه أو معاده سوى الذكر السائر به الركبان ، مما هو ـ اذا تسامع المذكور به ـ علم أنه له بمكانة الجمال والزينة ـ مادام حياً ـ فاذا رمت به يد المنون من ظهر الأرض الى بطنها فلا بحسن ذكره ينتفع ولا بقبحه يستضر (٢)

واذا كانت الصورة هذه ، كان مستحيلا منه ـ أيده الله ـ مع وفور عقله ، أن جعل مواده كلها منصبة الى أحكام اللغة العربية ، والتقعر فيها ، واستيفاء أقسام ألفاظها ومعانيها ، ووفر عمره على مالا نتيجة له منها ، وترك نفسه المتوقدة نار

---

(١) « يعنى أبا العلاء المعرى »

(٢) يقول ابو العلاء فى هذا المعنى فى سقط الزند :

ولا يبالى الميت ـ فى لحده بذمه شيع ، ام حمده

ذكائها خلوا من النظر فى شأن معاده ، وأن يمتاز من عمله مالا ينفع فيمكث، اذا ذهب الزبد جفاء من غيره(١) .

فاذن هو ـ حرسه الله ـ بمقتضى هذا الحكم ، مرتو من عذب مشرب هذا العلم ، وانما ليس يبوح به لضرب من ضروب السياسة ؛ والدليل على كونه ناظرا لمعاده ،سلوكه سبيل العيش بالتزهد ، وعدوله عن الملاذ من المأكول والمشروب والملبوس ، وتعففه عن أن يجعل جوفه للحيوان مدفناً ، او أن يذوق من درها لبنها ، أو يستطعم من استلذت عليه فى حرثه وانشائه .

وهذه طريقة من يعتقد أنه ـ اذا آلمها ـ جوزى بألمها ، وهذا غاية فى الزهد، ولما رأيت ذلك ، وسمعت داعية البيت الذى يعزى اليه ،وهو :

غدوت مريض الدين والعقل، فالقنى لتعلم أنباء الامور الصحائح(٢)

فشددت اليه راحلة العليل فى دينه وعقله ، الى الصحيح الذى ينبئنى أنباء الامور الصحائح ، وأنا أول ملب لدعوته ، معترف بخبرته ، وهو حقيق أن لا يوطئنى العشواء،فيسلك بى فى المجاهل،ولا يعتمد فيما يورده تلبيس الحق بالباطل.

وأول سؤالى عن أمر خفيف ، فان استنشقت نسيم الصبا ؛ سقت السؤال الى المهم ـ أسأله عن العلة فى تحريمه على نفسه اللحم واللبن وكلما يصدر الى الجود من منافع الحيوان ؟

فأقول : « أليس النبات موضوعاً للحيوان يمتار منه ، وبوجوده وجوده ؛ وبقوة فى الحيوان حساسة ما استولى على الانتفاع بالنبات ، ولو لم يكن الحيوان لكان موضوع النبات باطلا لا معنى له » وعلى هذه القضية ، فان القوة الانسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ؛ لرجحانها عليه بالنطق والعقل فهى مسخرة له على أنواع من التسخير، ولولا ذلك، لكان موضوع الحيوان باطلا .

---

(١) يشير الى قوله تعالى : «فأما الزبد فيذهب جفاء . واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض »

(٢) ارجع الى « ج ٣ » ص « ٩٣ »

***

فتجافى الشيخ ـ وفقه الله ـ عن الانتفاع بما هو موضوع له مخلوق لاجله ـ ابطال لتركيب الخلقة . ثم امتناعه من اكل الحيوان ، ليس يخلو القصد به من أحد امرين ، اما أن تأخذه رأفة بها فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغي له أن يكون أرأف بها من خالقها .

فاذا ادعى أن تحليلها وتحريمها انما كان من بعض البشر ـ يعنى به اصحاب الشرائع ـ وان الله لم يبح اراقة دم حيوان واكله ، كان الدليل على بطلان قوله وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التى خلقها الله ـ سبحانه ـ على صيغة لا تصلح الا لنتش اللحوم وفسخها وتمزيق الحيوان وأكلها (١) ، واذا كان هذا الشكل قائم العين فى الفطرة كان جنس البشر وسيع العذر فى اكل اللحم ، وكان من احل لهم ذلك محقاً .

***

والثانى انه يرى سفك دماء الحيوان خارجا عن اوضاع الحكمة ـ وذلك اعتراض منه على خالقه الذى أوجده

واذا أنعم الشيخ وساق الى حجة اعتمدها ، رجوت كشف المرض الذى وقع اعترافى به!

— ٢ —

رد أبى العلاء المعرى

قال العبد الضعيف العاجز « أحمد ابن عبدالله بن سليمان » : أول ماأبدأ به ؛ أنى أعد سيدنا الرئيس الجليل المؤيد فى الدين ـ أطال الله بقاءه ـ ممن ورث حكمة الانبياء وأعد نفسى الخاطئة من الاغبياء .

---

(١) أبو العلاء نفسه لاينكر هذا بل هو يصرح به كثيرا فى لزومياته . فمن ذلك قوله :

ولو لم يرد جور البزاة على القطا مصورها ، ماصاغها بمناسر

وقوله متهكما فى مكان آخر

رأيت سجايا الناس فيها تظالم ولا ريب فى عدل الذى خلق الظلما

وهو بكتابه الى متواضع ـ ومن أنا حتى يكتب مثله الى مثلى : مثله فى ذلك مثل الثريا كتب الى الثرى ، وقد علم الله أن سمعى ثقيل ، وبصرى عن الابصار نقيل ، قضى على ـ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين النازل والمربع ثم توالت محنى ، فأشبه شخصى العود المنحنى ، ومنيت فى آخر عمري بالاقعاد . وعدانى عن النهضة عاد .

واما ماذكره سيدنا الرئيس الاجل المؤيد فى الدين ، فالعبد الضعيف يذكر له مما عاياه طرفا ، فأقول :

« ان الله جلت عظمته ـ حكم على بالازهاد ، فطفقت من العدم فى جهاد ، وأما قول الضعيف العاجز : « غدوت مريض العقل والدين . فالقنى » فانما خاطب به من هو فى غمرة الجهل ، لاهو من للرياسة علم واصل .

وقد علم ان الحيوان كله حساس يقع به الالم ، وقد سمع الضعيف من اختلاف القدماء ، واول مايبدأ به : لو أن قائلا من البشر قال : اذا بيننا القضية البتية المركبة من المسند والمسند اليه ، ولها واسطتان احداهما نافية ، والاخرى استثنائيه ، فقلنا « الله لايفعل الا الخير » فهذه القضية كاذبة أو صادقة ؟

فان قيل انها صادقة ، فقد رأينا الشرور غالبة فعلمنا ان ذلك امر خفى ولم يزل من ينسب الى الدين يرغب فى هجران اللحوم ، لأنها لم يوصل اليها الا بايلام الحيوان ، يفرمنه فى كل أوان ـ وان الضائنة تكون فى محل القوم ـ وهى حامل ـ فاذا وضعت وبلغ ولدها شهرا او نحوه ، اعتبطوه فأكلوه ورغبوا فى اللبن وباتت امه ثاغية لوتقدر سعت له باغية ، وقد تردد فى كلام العرب مايلحق الوحشية من الوجد والناقة اذا فقدت الفصيل ، فقال قائلهم :

فما وجدت كوجدى ام سقب أضلته فرجعت الحنينا

وللسائل ان يقول « ان كان الخير لايريد ربنا سواه ، فالشر لايخلو من احد أمرين : اما ان يكون قد علم به او لا ، فان كان عالما به فلا يخلو من احد امرين اما ان يكون مريدا له أولا ، فإن كان مريدا له فكأنه الفاعل ، كما ان القائل يقول :

« قطع الامير يد السارق » وان لم يباشر ذلك بنفسه .

وان فعل غير مريد ،فقدجاز عليه مالا يجوز على امير مثله فى الارض انه اذا فعل فى ولايته شيء لايرضاه ، أنكره وامر بزواله .

وهذه عقدة قد اجتهد المتكلمون فى انحلالها فأعوزهم .

***

وقد ذكرت الانبياء أن البارئ ـ جلت عظمته ـ رؤوف رحيم ، ولو رأف ببنى آدم وجب أن يرأف بغيرهم من اصناف الحيوان الذى يجد الالم بأدنى شيء وقد علم ان الوحش الراتعة ، يبكر اليها الفارس فيطعن العير او الاتان ، وهن ما اسدين اليه ذنباً .

ولأى حال استوجب من يفعل بها هذه الرقة وهى لم تشرب من الماء بذنوب ولم تجز ما يكتب من الذنوب

وقد رأيت الجيشين المنتسب كل واحد منهما الى الشرع المنفرد ، يلتقيان ـ وكلاهما فى مدد ـ ويقتل بينهما آلاف عدد فهذا محسوب من أى الوجهين ليس ـ عند ـ النظر بهين »

***

فلما بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الاقوال ، وبلغ ثلاثين عاما ، سأل ربه انعاماً ، ورزقه صوم الدهر ؛ فلم يفطر فى السنة ولا الشهر الا فى العيدين ، وصبر على توالى الجديدين . وظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العاقبة .

وقد علم سيدنا الرئيس الاجل المؤيد فى الدين ـ ولا ريب انه قد نظر فى الكتب المتقدمة وما حكى عن «جالينوس» وغيره ـ من اعتقاد يدل على الحيرة .

واذا قيل ان البارئ رؤوف رحيم ، فلم سلط الاسد على افتراس نسمة انسية ليست بالمفسدة ولا القسية ، وكم مات بلدغ الحيات جماعة مشهورة ، وسلط على الطير الراضية بلقط الحبة البازى والصقر ـ وان القطاة لتدع فراخها ظماء وتبتكر

الترد ماء تحمله اليها فى حوصلتها ، فيصادفها ـ دونهن ـ أجدل ، فيأكلها ، فيهلك فراخها عطشا ،

***

(وذكر اشياء من هذا الباب ثم قال :) وأتبرأ من قول الكافر :

ألمت بالتحية ام بكر فحيوا أم بكر بالسلام (١)

ولعن الله القائل ـ ويقال إنه « الوليد بن يزيد بن عبد الملك ـ : »

أدنيا منى خليلى « عبدلا » دون الازار (٢)

وويل لابن رعيان ـ إن كان قال :

هى الأولى ـ وقد نعموا بأخرى وتسويف الظنون من السواف

فان يك بعض ما قالوه حقا فإن المبتليك هو المعافى

* * *

ومما حثنى على ترك أكل الحيوان أن الذى لى فى السنة نيف وعشرون دينارا ، فاذا أخذ خادمي بعض ما يجب ، بقى لى ما لا يعجب ، فاقتصرت على فول وبلسن ، وما لا يعذب على الالسن .

فأما الآن فاذا صار الى من يخدمنى كبير عندي وعنده هين فما حظى الا اليسر المتعين ، ولست أريد فى رزقى زيادة ، ولا أوثر لسقمى عيادة ـ والسلام

— ٣ —

من أبى عمر الله الى أبى العلاء

حوشى الشيخ ـ أدام الله سلامته ـ من أن يكون ممن قطف فى مرض دينه

---

(١) ذكرت القصيدة فى ج « ٢ » ص «٢٧») فلا داعى لاعادة ذكرها هنا !

(٢) وفى رواية ياقوت :

أدر الكأس يمينا لا تدرها ليسار

وقد مرت القصيدة فى) ج «٢» ص «٤٤») فلا داعى لذكرها ثانية

وعقله بعلته ، وأجاب دعوة الداعى منه بالبيت الشائع عنه ، لينال شفاءعلته جوابا يزيده الى غلته غلة ، اذن يكون كما قال المتنبى :

أظمتنى الدنيا ، فلما جئتها مستسقيا ، مطرت على مصائبا

* * *

كان سؤالي له ـ حرسه الله ـ فى شىء يختص بنفسه ، فى هجره ما يسد الجسم من اللحم ، فأجاب بما اقول فى جوابه : « اهذه انباء الخ (١) » وهل زاد السقيم بداوئه هذا الا سقما ، والأعمى الأصم ، فى دينه وعقله ، بما قال ـ الا عمى وصمم على أن جميع ما ذكره بنحية عن سؤالى ومعزل عنه ، ولا مناسبة بينها وبينه !

وأما القول بأن اللحوم ولا يوصل اليها الا بايلام الحيوان ، فقد سبق الجواب : « لا يكون الشيخ أرأف بها من خالقها » فليس يخلو من كونه عادلا أو جائرا ، فان كان عادلا فإنه ـ سبحانه ـ يقبض ارواح الآكل والمأكول جميعاً ، وذلك مسلم له ، وإن كان جائزا ـ لم ينبغ أن نرجح على خالقنا بعدلنا وجوره ، وأما قوله : « وللسائل أن يقول : إن كان الخير هو الذى لا يريد ربنا سواه ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به أو لا » الى آخره ـ فأقول : قيل إن انسانا ضاع له مصحف ، فقيل له : اقرأ « والشمس وضحاها » فانك تجده فقال : « وهذه السورة أيضاً فيه » فأقول أيضاً : « ان هذا أيضاً من ذلك ، وجميعه ظلمات ، فأين النور ، وإنما قصدنا أن نعرف أنباء الأمور الصحائح ، كما قاله ، وأما قوله ـ « لما رأى اختلاف الاقوال ، وأيقن بنفاد وزوال ـ سأل ربه أن يرزقه صوم الدهر ، واقتنع بالنبات فما صح لى أن الرب الذى سأله هو الذى يريد الخير وحده ، أو الذى يريد الشر وحده ، أو الذى يريدهما جميعاً ـ والصوم فرع على أصل من شرع يأتى به رسول ، والرسول يتعلق بمرسل ، وقصتنا فى

---

(١) يعنى : « أهذه هى أنباء الامور الصحائح » التى قالها المعرى فى بيته :

غدوت مريض العقل والدين ، فالقنى لتسمع أنباء الامور الصحائح ! »

ارجع الى (حـ « ٣ » ص « ٩٣ »)

المرسل مشتبهة ، يبعث رسولا يريد أن يطاع أم لا يطاع ، فان كان يريد أن لا يطاع فهو مغلوب على ارادته لأن من لا يطيعه أكثر ، وإن كان يريد أن لا يطاع ، فارساله اياه محال ، وطلبة حجة من الضعفاء ليعذبهم — ، فان كان موضوع صومه على هذا ، فلم يفعل شيئاً ، وإن كان على غيره — مما هو أجلى وأوضح — فهو الذى أطلبه .

وأما حكايته قول بعض الملحدين ، واستعاذته بالله أن يكون من المعترضين — فى قوله تعالى — : « وانه أهلك عاداً وثمود فما ابقى » الآيات

ان كان البارئ — سبحانه — خلقهم ، وهم يعلمون أنهم مجرمون ، وللتوبة والانابة يحرمون ، فكان الاولى به — وهو الرؤوف الرحيم أن لا يخلقهم لئلا يعذبهم ، وان كان لا يعلم ، فهو كأمثالنا ، ولا يدرى ما يكون منه

وقول الشيخ بعده : معاذ الله أن نقول ذلك بل نسلم ، ونتلو الآية : « من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » ، فليس الملحد — اذا قال — : « إن السكر حلو ، والخل حامض » لا يقبل منه لكونه ملحدا — وقوله يقتضى جوابا ، فان كان عند الشيخ جواب ، فهو الذى نبغى ، والا فما التسليم فى هذا الموضوع الا التسليم للملحد — لا شىء غيره !

واما انشاده : « المت بالتحية ام عمرو » وما بعده من الاشعار ، وذمه من قال ولعنه — فمن الذي اتهمه بشىء من ذلك — حاشاه — وما الذى اوجب الاذكار بكفريات شعرهم ؟ — واما ختمه الرسالة بقوله : « ان الذى حثه على ترك أكل الحيوان ان الذى له فى السنة — نيف وعشرون دينارا ، يصير الى خادمه معظمها ويبقى له ايسرها » فتحمل مؤونة القدر الذى يطعمه — لو كان ثقيلا لوجب تحمله ، فكيف — وهو الخفيف محمله

وقد كاتبت مولاى « تاج الامراء » — حرس الله عزه — أن يتقدم بازاحة العلة ، فيما هو بلغة مثله من الذ الطعام ، ومراعاته على الادرار والدوام — ليتكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجرى امره فى معيشته على احسن ما يكون من الصورة !

ثم ـ ان قام من الشيخ نشطة لجواب ، اعفانى فيه عن قصد الاسجاع ولزوم ما لا يلزم ، فان ملتمسى فيه المعانى لا الالفاظ !

— ٤ —

من أبى العلاء الى داعى الدعاة

سيدنا الرئيس الاجل ، المؤيد فى الدين ، عصمة المؤمنين ـ هدى الله الامم بهدايته ، وسلك بهم طريق الخير على يده ، قد بدأ المعترف بجهله ، المقر بحيرته ، الداعى الى الله ـ سبحانه ـ ان يرزقه ما قل من رحمته ، فى اول ما خاطبه به ان ذكر اعتقاده فى سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين ـ ضوّأ الله الظلم ببصيرته واذهب شكوك الافئدة برأيه وحكمته ، وما نفسه عليه من الذلة والحقرية عنده ، وانه يحسبها ساكته فى بعض السوام ، وعجب ان مثله يطلب الرشد ممن لا رشد عنده ، فيكون كالقمر الذى هو دائب فى خدمة ربه ليلا ونهارا يطلب الحقيقة من أقمر بفلاة ـ يرد الماء على الصائد ، ويصيب قلبه بسهم ، وقد ذكر ـ ايد الله الحق بحياته ـ بيتا من ابيات على « الحاء » ذكرها وليه ، ليعلم غيره ما هو عليه من الاجتهاد فى التدين ، وما حيلته فى الآية التى هى قوله : « ومن يهد الله فهو المهتدى » واولها :

غدوت مريض العقل والدين ، فالقنى لتعلم انباء الامور الصحائح (١)
فلا تأكلن ما اخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا يقدر احد يدفع ان الحيوان البحرى لا يخرج من الماء ـ الا وهو كاره ـ واذا سئل المعقول عن ذلك لم يقبح ترك اكله ـ وان كان حلالا ، لان المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق.

وأبيض امات ـ ارادت صريحه لاطفالها ـ دون الغوانى الصرائح

والمراد بالابيض « اللبن » ومشهور ان الام اذا ذبح ولدها وجدت عليه وجدا عظيما ، وسهرت لذلك ليالى ، وقد اخذ لحمه ، وتوفر على اصحاب امه ، أما كان يرضع من

(١) ارجع الى هذه الابيات فى (ج « ٣ » ص « ٩٣ »)

لبنها ، فأى ذنب لمن تحرج عن ذبح السليل ، ولم يرغب فى استعمال اللبن، ولايزعم أنه محرم ، وإنما تركه اجتهادا فى للتعبد ، ورحمة للمذبوح ، رغبة أن يجازى عن ذلك بغفران خالق السموات والأرض ؟

وإذا قيل ان الله ـ سبحانه ـ يساوى بين عباده فى الاقسام ، فأى شىء أسلفته الذبائح ـ من الخطأ ، حتى يمنع حظها من الرأفة والرفق

فلا تفجعن الطير ـ وهى غوافل بما وضعت ـ فالظلم شر القبائح

وقد نهى النبى (ص .) عن صيد الليل ، وذلك أحد القولين ، فى قوله : « عم ! أقروا الطير فى وكناتها » وفى الكتاب العزيز ـ : « يا أيها الذين آمنوا : لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ! ومن قتله منكم متعمدا ، فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم » الى غيرها من الآى ـ فى المعنى ـ فاذا سمع من له أدنى حس ، هذا القول ، فلا لوم عليه ـ اذا طلب التقرب الى رب السموات والأرضين ـ بأن يجعل صيد الحل كصيد الحرم ـ وإن كان ذلك ليس بمحظور

«ودع ضرب النحل الذى بكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح !»

لما كانت النحل تحارب الشائر عن العسل بما تقدر عليه ، وتجتهد أن ترده من ذلك ، فلا غرو أن أعرض عن استعماله رغبة فى أن تجعل النحل كغيرها مما يكره ذبح الأكيل ، وأخذ ما كان يعيش به ، لتشربه النساء كى يبدن ، وغيرها من بنى آدم ، وقد وصفت الشعراء ذلك ، فقال « أبو ذؤيب » يصف مشتار العسل:

« اذا لسعته النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت لوب عواسل »

وروى عن «على» حكاية معناها أنه كان له دقيق شعير ، فى وعاء يختم عليه فاذا كان صائما ، لم يختم على شىء من ذلك الدقيق ، وقد كان ـ عليه السلام ـ يصل الى غلة كثيرة ، ولكنه كان يتصدق بها ، ويقتنع أشد اقتناع :

وروى عن بعض أهل العلم أنه قال ـ فى بعض خطبه ـ : ان غلته تبلغ فى السنة خمسين ألف دينار ، وهذا يدل على أن الانبياء والمجتهدين من الأئمة ـ يقصرون نفوسهم ، ويؤثرون بما يفضل منهم أهل الحاجة، وقد عدل سيدنا الرئيس

الي الايماء بأن من ترك أكل اللحم ذميم ـ ولو أخذ بهذا المذهب ، لوجب على الانسان أن لا يصلى صلاة الا ما افترض عليه ، لأن ما زاد على ذلك اداه الى كلفة ، والله ـ تبارك وتعالى ـ لا يريد ذلك ، ولوجب الذى له مال كثير ، اذا أخرج عن الذهب ربع العشر ، لا يحس به أن يزيد على ذلك ، وقد حث الناس على النفقات فى غير موضع من الكتاب الاشرف ، والعبد الضعيف العاجز ، قد افتقر الى مثل ذلك .

ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لان يسأل ولا أن يجيب ، لان أعضاءه متخاذلة ، وقد عجز عن القيام فى الصلاة ، فانما يصلى قاعدا ، والله المستعان : ـ وكيف له أن يكون يصل الى أن يدب على عكاز

(ثم استشهد على عجزه بأشعار العرب) وانى لأعجز ـ اذا اضطجعت ـ عن القعود ، فربما استعنت بانسان ، فاذا هم باعانتى وبسط يديه لنهضتى ، ضربت عظامى ، لانهن عاريات من كسوة كانت عليهن ، وأما استشهاده ببيت « أبى الطيب » فمن استرشد بمثل العبد الضعيف العاجز ، مثله مثل من طلب فى القتادة بثمر النخلة ، وانما حمل سائله على ذلك حسن الظن الذى هو دليل على كرم الطبع ، وشرف النفس ، وطهارة المولد ، وخالص الخيم :

وأما ما ذكره من المكاتبة فى توسيع الرزق على ، فيدل على افضال ورثه عن أب فأب ، وجد فى اثر جد ، حتى يصل النسب الى التراب ، فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة فى التوسع ، ومعاودة الاطعمة ؛ وتركها صار له طبعا ثانيا ، وانه ما أكل شيئا من حيوان خمسا وأربعين سنة :

والشيخ لا يترك اخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه (١)

وقد علم أن السيد الأجل تاج الامراء ؛ فخر الملك ، عمدة الامامة ، وعدة الدولة ومجدها ، ذا الفخرين ، نصيف أولاد سام وحام ويافث ، وود العبد الضعيف العاجز لو أن قلعة حلب وجميع جبال الشام ، جعلها الله ذهبا ، لينفقه « تاج الامراء ،

(١) ارجعه الى (ج « ٣ » ص « ٧ »)

نصير الدولة النبوية » ـ على امامها السلام ـ وكذلك على الائمة الطاهرين من آبائه ، من غير أن يصير الى العبد الضعيف من ذلك قيراط ـ وهو يستحى من حضرة « تاج الامراء » أن ينظر اليه بعين من رغب فى العاجلة ، بعد ما ذهب ـ وهو رضى أن يلقى الله ـ جلت قدرته ـ وهو لا يطالب الا بما فعل ، من اجتناب اللحوم ، فان وصل الى هذه الرتبة ، فقد سعد

(ثم اعتذر عن السجع بأحبار أوردها ، واحتجاجات ذكرها)

وسيدنا الرئيس الاجل المؤيد فى الدين ـ لا زالت حجته باهرة ودولته عالية ـ كما قال « ثعلبة بن صعير » :

ولرب قوم ظالمين ، ذوى شذى تغلى صدورهم بهتر هاتر
(لا كارتهم على ما ساءهم[1]) وخسأت باطلهم بحق ظاهر

ولو ناظر « ارسطاليس » لجاز أن يفحمه ، أو « أفلاطون » لنبذ حججه خلفه ، والله يجمل بحياته الشريعة ، وينصر بحجة الملة ـ وحسبى الله ونعم الوكيل !

— ٥ —

صه داعى الرعاة الى أبى العلاء

ما فاتحت الشيخ ـ أحسن اليه توفيقه ـ بالقول ، الا مفاتحة متناكر عليه ، فيه مؤثر لان يخفى من أين جاء السؤال ، فيكون الجواب عنه باستدلال ، ورفض حشمة ، وحذف تكلف للخطاب بـ « سيدنا » و « الرئيس » وما يجرى هذا المجري ـ اذ كان حكم ما يتجارى فيه ، موجبا أن لا يتخلله شىء من زخارف الدنيا ، ولانى أعتقد أن سيدى ـ بالحقيقة ـ من يستقل دون يده يداى أحد منه للدنيا ، أو تمتار نفسى من نفسه استفادة من معالم الاخرى ـ ، فما ادري كيف انكشفت الحال ، حتى صار الشيخ ـ ادام الله تأييده ، يخاطبنى بـ « سيدنا »

---

(١) كذا بالاصل ، وهو ظاهر التحريف ، ولعل صوابها : « باكرتهم يوماً على ماساءهم »

و « الرئيس »ولست مفضلا عليه فى دنيا ولا دين، بل شاد راحلتى اليه الاستفادة أن وردت موردها ـ أو صادفت نهرا أو علامتها ـ قابلتها بالشكر لنعمته ، والاسجال على نفسى باستاذيته !

(وبعد) فانى أعلمه ـ أدام الله سلامته ـ أننى شققت جيب الارض من أقصى ديارى الى مصر ، وشاهدت الناس بين رحلين اما منتحل لشريعة حبا اليها، ولهج بها ، الى الحد الذى ـ أن قيل له من اخبار شرعه : « ان فيلاطار ، أوجملا باض » لما قابله الا بالقبول والتصديق ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ، ويسفهه ويلعنه ، والعقل عند من هذه سبيله ـ فى مهواة ، وفى مضيعة ، فليس يكاد ينبعث أن هذه الشريعة التى هو منتحلها ، لم يطوق طوقها ، ولم يسور سوارها، الا بعد لموع نور العقل منه ، فكيف يصح توليه أولا ، وعزله آخر ؟

فلما رمت بى المرامى الى الشام ، وسمعت أن الشيخ ـ وفقه الله ـ يفضل فى الادب والعلم ـ قد اتفقت عليه الأقاويل ، ووضح به البرهان والدليل ؛ ورأيت الناس ـ فيما يتعلق بدينه مختلفين، وفى اره مبتلين، فكل يذهب فيه مذهبا، وحضرت مجلسا جليلا أجرى ، فيه ذكره ، فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا ، فحفظته فى الغيب :

وقلت « ان المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظنة والريب : »

وقام فى نفسى أن عنده من حقائق دين الله سرًّا ـ قد اسبل عليه من البقية ستراً ، وأمراً يميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا ! »

ولما سمعت البيت : « غدوت مريض العقل (١) » توثقت من خلدى ـ فيما حدثت عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لسانا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقاً ، ويفتق من هذا الفخر رتقا ، للسان ـ صامت عند كل ناطق ، من ذروة جبل العلم شاهق ! ـ فقصدته قصد «موسى» للطور ، أقتبس منه ناراً ، وأحاول أن آرفع بالفخر منارا ، لمعرفة ما تخلف عن معرفته المتخلفون ، واختلف فى

(١) البيت الذى مر الاستشهاد به فى ص «٩٣» من هذا الجزء

حقيقته المختلفون ، فأدليت دلوى بالمسئلة الخفيفة التى سألت عنها ـ ترقيا من دون الى فوق ، وتدرجا من صغير الى كبير ـ فكان جوابه : « أنه يصغر عن أن يكون للاسترشاد محلا » فقلت: «هذه زيادة فى فضله ، وما يجوز صدور مثله عن مثله » ثم انتهى الى الاحالة على كون الناس ـ ممن تقدم أو تأخر ـ فى واد الحيرة تائهين ، وفى أذياله متعثرين ، من قائل يقول: «ان الخير والشر من الله» ومجيب يجيبه: « هل كان ما كان يستعيذ منه رسول الله (ص .) من وعث السفراء وكل مستعاذ منه ـ خيراً أو شر » ـ فان كان خيراً ، فالاستعاذة منه باطله وان كان شرا ـ والله مريده ـ فالاستعاذة منه كذلك فضول وزيادة فى المعنى ، وسؤال من يسأل: «هل كان سَمّ ,, الحسن ،، وقتل ,, الحسين ،، عليهما السلام ـ خيرا أو شرا ؟ » فان كان خيرا ، فاللعنة على القاتل من أى جهة ؟ وان كان شرا والله مريده ـ زال اللوم عن القاتل !

وقائل يقول : « ان الخير من الله ، والشر من غيره » ومجيب يجيب بالجواب الذى يقطع به الاسباب او غير ذلك ، مما أطال به الخطاب من أشعار الملحدة وأقوالهم ، فكان جوابى ـ ادام الله سلامته ـ انى من هؤلاء تبرأت اليك وتطايحت عليك ، وان كلامهم عندى ـ قبل أن عللته ـ عليل ـ وهو على مسامع القبول منى ـ ثقيل ، فافتح لى الى ما عندك بابا ، وافتح لى من لدنك جنابا » فلم يفعل!

ثم خاطبته ، على امتناعه من أكل اللحوم ، فاحتج بكونه متحرجاً من قصدها ـ أعنى البهائم ـ بالمضرة والايلام ، متعففا عنها لهذه الجهة ، فقطعت لسان حجته ـ بعد تناهيها ـ وقلت : « ان كان الله ـ تعالى ـ سلط بعضها لتأكل بعضا ـ وهو أعرف بوجوه الحكمة وأرأف بالخليقة ، فلا يكن أرأف بها من ربها ، ولا أعدل فيها من خالقها ! »

ثم عدل الى قصور يد الاستطاعة ـ دون ذلك ـ اذ كان القدر الذى هو له ـ فى السنة ـ منصرفا الى من يتولى خدمته أكثره ، وخالصاً له أقله ، فقطعت الحجة فى هذا الباب أيضا ، وعينت له على جهة كريمة ، من الذين لا يتبعون ما أنفقوا منا

ولا أذى ـ يقوم بقدر كفايته من أطيب ما يأكلون واركى ما فى البيوت يذخرون فتجافت نفسه ـ وقاها الله السوء ـ عن هذا الباب ايضا ، وكتب فى الجواب الثانى بأنه لا يؤثر ذلك ولا يرغب فيه ، ولا يخرق عادته المستمرة فى الترك ، وابتدأ يقول : « انى طلبت الرشد ممن لا رشد عنده ؟ وان البيت الذى قاله ـ مما تعلقت به ؟ وجعلته محجة الى استقراء طريقته ومذهبه ، انما أراد الاعلام باجتهاده فى التدين ! ، وما حيلته فى الآية المنزلة « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ! »— ، فجمع بين المتضادين فى كلمة واحدة ! إنه ـ إن كانت الاية حقا كان الاجتهاد باطلا !

وقال : « ان الله ـ سبحانه ـ اسرارا لا يقف عليها الا الاولياء ، فنحن على ذلك السر ندور ، وعلى باب من هو عنده نطوف ، فان قلنا « إنه ـ حرسه الله ـ من أصحابه ، بدعوى صحته فى دينه وعقله ، ومرض الناس ـ على موجب قوله » قال : « لا رشد عندى » فنظمه فى هذا المعنى يناقض نثره ، ونثره يخالف نظمه ، فكيف الحيلة ؟

ثم قال ان البيت المقول :

« غدوت مريض العقل والدين ، فالقنى لتعلم أنباء الامور الصحائح »

يؤدى معناه البيت الثانى :

« فلا تأكلن ما أخرج البحر ظالما ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح »

فكان مرض الدين والعقل ـ من جهة اكل اللحوم ، وشرب الالبان ، وتناول العسل ، فمن ترك هذه المطاعم كان صحيحا فى دينه وعقله ـ وهو يعلم ان مصحة الاديان والعقول لا تقوم بذلك ، ولا يجوز أن يكون هذا البيت الثانى ناسخا لحكم الاول ، فيكون محصول دعواه في فقر الناس الى أن يصح دينهم وعقلهم ـ هو ان يقول لهم : « لا تأكلوا اللحم واللبن ! »

وأما قوله ان الحيوان البحرى كاره أن يخرج الى البر ، وانه ليس يقبح فى العقول ترك كله ـ وان كان حلالا ـ لأن المتدينين لم يزالوا يتركون مالهم طلق ، فما من

حيوان ـ بحرى ولا برى ـ هو اجل من هذا الانسان الحى العاقل ، وهو كاره للموت فيموت ، وكاره لأن يأكله شيء ، والدود تأكله فى قبره ! ـ، فان كان ذلك صادرا عن موضع حكمة ، كان ما ذكره من الحيوان البري والبحرى جاريا فى مضمار هذا ـ مثلا بمثلا ـ وان كان معدولا به عن وجه الحكمة ، كان محالا أن يكون صانعى سفيها ، وانا مصنوعه حكيما !

واما قوله ان النبى (ص .) « صلى الى ان تقرحت قدماه » فقيل له فيه ، فقال: « أفلا احب انا كون عبدا شكورا » فما هذا مما نحن عليه فى شيء ، والانسان له ان يصلى ما شاء من الصلوات فى الاوقات التى تجوز فيها الصلاة ـ على ان لا يزيد فى الفرائض ، ولا ينقص منها » ـ وهذا الكلام شرعى ، وكانت النصبة للتكلم على العقليات :

واما قوله : « انه(ص) حرم صيد الحرم ، وان لغيره ان يحرم صيد الحل ، تقربا الى الله ـ (سبحانه) فليس لأحد ان يحلل او يحرم غيره !

واما قوله . ان « عليا » لما قدم الخبيص سأل : « هل اكل النبى (ص .) منه ؟ » فلما قالوا : « لا » رفعه ، ولم يأكله ! ـ فهذه الحجة عليه لا له ، فان الناس مجمعون على ان النبى (ص .) لم يفارق اكل اللحم ـ وهو يهجره دهره ، وذلك بالضد سواء ، ولو انه ـ حرسه الله ـ لم يستظهر على بالشريعة ، ولم يتجاوز نصبة العقل ، لصنته عن هذا الجواب ، الذى عسى ان يستغل سره ، ويعز على ذلك.

واما ما شكاه «من ضعفه وتضور حركته ، وانه لم يبق فيه بقية لان يسأل ولا أن يجيب » فما هو ـ حرسه الله ـ على علاته من الضعف والقوة ـ الا من محاسن الزمان ، وممن سارت بذكر فضله الركبان ، الا انه ـ على عدوان الدهر عليه ـ عدا على نفسه بحرمانها ملاذ دنياها ، فان وثقت نفسه بملاذ تعتاض عنها ـ مما هو خير وأبقى منها ، فما خسرت صفقته ، وقام مصداق قوله بالبيت المتقدم ذكره ـ وان كان يوسم بميسم الشح بمنع المنتجعين ورد السائلين ، وان كان شق على نفسه من غير بصيرة ـ كما يدعيه الآن خوضاً مع الخائضين ، وتحيرا مع امثالنا من

المتحيرين ، فقد اضاعها وجنى عليها !

وادعى فى البيت المتقدم ذكره ، مالا برهان له ، والغرض فى السؤال والجواب الفائدة ـ واذا عدمت ، فقد خفف الله عنه ان يتكلف جوابا ، واما الاسجاع ، ومسألتى التخلى عنها ، فاكانت الاسجاع بالمعانى ان تضل بتبعها ، ولاننى ـ اذا تتبعت ، فضله بصنعاته فى الادب والشعر ، وجدت فى ارضه مراغما كثيرة وسعة ، ومن اين لى ان اظهر على مكنون جواهر علوم دينه كظهورى على مصنفات ادبه وشعره !

***

وقبل ، وبعد ـ فأنا اعتذر عن سر له ـ ادام الله حراسته ـ آذيته ، وزمان بالقراءة والاجابة شغلته ، لأننى ـ من حيث ما نفعته ـ ضررته

والله يعلم انى ما قصدت به غير الاستفادة من علمه ، والاغتراف من بحره ، والسلام !

انتهى الكتاب

جميع الحقوق محفوظة للشارح

فهرس الجزء الثاني

الرد على رسالة ابن القارح

صحيفة		صحيفة	
٣	وفاء ابن القارح	٢٨	عودة الى أبى الطيب المتنبى
٣	شيرين وكسرى	٢٩	اختلاف الخواطر
٤	غريزة النفاق	٣٠	الدهر
٦	المعرى يتبرأ من العلم	(٣٠)	(الدهر)
(٨)	(العزلة)	(٣٢)	(الزمان)
١٠	الانتحار	٣٤	شاتم الدهر
١١	ابو القطران الأسدى	٣٤	الزندقة والزنادقة
١٣	التقبيل	٣٥	بشار بن برد
١٣	فضل الموت	٣٧	نادرة من نوادر الزنادقة
(١٣)	(رأى أبى العلاء فى الموت)	٣٧	نادرة أخرى
١٩	مادح أبى العلاء	٣٨	عودة الى أبى نواس
٢٠	رسالة أبى الفرج الزهرجى	٣٨	صالح بن عبد القدوس
٢١	أمثال العرب	٣٩	الصناديقى
٢٢	شكاة الأدباء	(٤٠)	(المزدكية)
(٢٢)	(ترجمة مالك بن أسماء الفزارى)	٤١	دعوى الربوبية
٢٤	ابو الطيب المتنبى	٤٢	ربيعة بن أمية الجمحى
٢٥	رواية القطربلى وابن أبى الازهر	٤٢	سمير بن أدكن
٢٦	دعبل بن على	٤٣	القرامطة
٢٦	ابو نواس	٤٤	الوليد بن يزيد
٢٧	سذاجة العرب	٤٥	ابو عيسى بن الرشيد
٢٧	رسالة آدم	٤٦	الجنابى
٢٧	زندقة قريش	٤٦	(ترجمته)

صحيفة

٤٧ العلوى البصرى
٤٩ النجوم
٤٩ الألمعى
٥٠ الحلاج
(٥٠) (ترجمته)
(٥١) اجلال القرد « قرد زبيدة وقرد يزيد »
٥٢ رجعة الى الحلاج
٥٣ مذهب الحلول
(٥٣) (الحلولية)
٥٥ التناسخ
(٥٥) (مذهب التناسخ)
٥٧ (رأى أبى العلاء فى التناسخ)
٦٠ مذهب التناسخ فى الهند
٦٢ ابن هانئ الأندلسى
٦٣ عودة الى الحلاج
٢٣ ابن أبى عون
(٦٤) (العقل والتقليد)
٦٧ عبد الله بن ميمون القداح
(٦٧) (رأى أبى العلاء فى المنجمين)
٧٠ ابن الراوندى
(٧٠) (ترجمته)
٧١ القرآن الكريم
٧٣ ابن الرومى
(٧٣) (ترجمته)

صحيفة

(٧٣) (سبب موته)
(٧٤) (دقته واسترساله فى المعنى)
(٧٥) (حكايته مع ابى بكر السراج)
(٧٦) (مذهبه)
(٧٦) (قصيدته الجيمية)
(٨٢) (الطيرة والتشاؤم)
(٨٧) (نخبة من شعر أبى العلاء فى الطيرة)
(٨٨) (نخبة من شعر ابن الرومى فى الطيرة والفال)
(٩٣) (حكايته مع ابن المسيب)
٩٤ ابو تمام
٩٥ مناحة القصائد
٩٦ المازيار
(٩٦) (ترجمة احمد بن حنبل)
(٩٧) أبو مسلم الخراسانى
٩٧ أعباء الفقير وأشجان الغنى
(٩٨) (الجد)
(٩٩) (موجز رأى الشعراء فى الجد)
١٠١ على بن أبى طالب
(١٠١) (آراء الشيعة فيه)
١٠٤ دعوى الربوبية
١٠٤ رجعة الى ابن الراوندى
١٠٤ ابو حوف
١٠٥ عودة الى على بن أبى طالب
١٠٦ الزواج

صحيفة

١٠٧ زواج النبي بخديجة
١٠٨ حاجة الشيخ الى الزواج
١٠٨ الخدم
١٠٨ لؤم الخدم
١٠٩ التوبة .
١١٠ الفضيل بن عياض
١١٠ عمر بن عبد العزيز
١١٠ ابو حذيفة وحماد عجرد
١١١ عمر بن الخطاب
١١١ عودة الى النبي
١١١ تميم بن أوس الدارى
١١٢ أحمد بن حنبل والخمر
١١٢ الخمر
١١٢ (رأي ابى العلاء فى الخمر)
١١٦ توبة ابن القارح
١١٦ حديث طالوت
١١٦ عودة الى ذكر الحور
١١٧ رجعة الى الخمر
١١٨ المعتصم وابراهيم المهدى
١١٨ الهيام بالخمر
١١٩ (الجبر)

صحيفة

١٢٠ ابو طلحة واليهودى
١٢١ حرص الناس
١٢١ ميتة فاذوه
١٢١ ابو الهذيل العلاف
١٢١ بدء التعارف بين المعرى وابن القارح
١٢١ اساتذة ابن القارح
١٢٢ حجج ابن القارح
١٢٣ ابو الطيب اللغوى
١٢٤ ابن القارح فى مصر
١٢٤ الهنود والخمر
١٢٥ دنانير ابن القارح
١٢٦ بائع كميته
١٠٨ الجمل فى زمن المنصور
١٢٨ فضل الذهب
١٢٩ ابنة أخته
١٣٠ قاتل خاله
١٣٠ أدب الخؤولة
١٣٠ غريزة المرأة
١٣٢ ابو بكر الشبلى
١٣٢ ختام الرسالة

فهرس الجزء الثالث

الى رسالة ابن القارح

صحيفة		صحيفة	
٢	تحية	١٥	ابن الراوندى
٢	حنين صادق	١٥	مصنفاته
٢	فضل أبى العلاء	١٦	احتصار ابن الرومى
٣	ورود حلب	١٦	مثال من طيرته
٤	أبو القطران ووحشية	١٧	ابو تمام
٤	ذكرى أبى العلاء	١٧	ابوجعفر بن محمد
٤	رسالة الي الفرج الزهرجى	١٨	شكوى الزمان
٤	الزهرجى وابن القارح	١٨	عزوف ابن القارح عن الغوانى
٥	المتنبى	١٩	قريش والنبى
٥	الزمان	٢٠	صبر الصحابة
٦	رواية القطر بلى وابن أبى الازهر	٢١	بدء الدعوة
٦	الزنادقة والملحدون	٢٢	العبدرى والنبى
٦	بشار بن برد	٢٢	مساوئ الدنيا
٧	صالح بن عبد القدوس	٢٢	كل صفاء الى كدر
٧	القصار الاعور	٢٣	حسرة وندم
٧	الصناديقى	٢٣	الخمر
٨	الوليد بن يزيد	٢٤	توبة
٩	أبو عيسى بن الرشيد	٢٤	ميتة « فاذوه »
٩	الجنابى	٢٥	بدء التعارف
١٠	(هلاك الزنج بالبصرة)	٢٥	ترجمة ابن القارح
١٣	الحلاج	٢٥	دراسته واستاذته
١٤	ابن أبى العذافر	٢٥	سفره الى مصر

صحيفة		صحيفة	
٢	مقابلة ابى الحسن المغربى	٢٩	فساد الثقة
٢٦	حج ابن القارح	٢٩	سارقة خالها
٢٦	عودته الى مصر ثم هربه	٣٠	أبو بكر الشبلى
٢٨	فضل أبى العلاء	٣٠	ابن السماك والرشيد
٢٠	أبو الطيب اللغوى	٣١	نعم الله وآلاؤه
٢٠	حافظة ابن القارح	٣١	عودة الى أبى بكر الشبلى
٢٥	أوقات الملل والعزوف عن العلم	٣٢	ختام الرسالة

(٢) رسالة الملائكة

٣٣	تمهيد	٣٩	حواره مع السائق والشهيد
٣٣	تبرؤه من مظنة العلم	٣٩	مظاهرة عند رضوان
٣٤	مسائل الصرف	٤١	بلاد عبقر
٣٥	رسالة الملائكة	٤١	نعيم أهل الجنة
٣٥	حواره مع عزرائيل	٤١	حوارهم مع الخليل بن أحمد
٣٥	حواره مع منكر ونكير	٤٢	فصاحة أهل الجنة
٣٨	حواره مع مالك	٤٢	ختام الرسالة

(٣) دراسات فى رسالة الغفران

٤٤	الخيال فى رسالة الغفران (للاستاذ العقاد)	٧١	(٣) الخيال
٤٤	« « « « « طه حسين	٧٢	ماهى رسالة الغفران (للمرحوم جورجى زيدان)
٤٧	السخر فى رسالة الغفران (للاستاذ العقاد)	٧٤	(١) خلاصة الرسالة
٥٠	رسالة الغفران (للأستاذ صدقى)	٧٥	(٢) نزهة ابن منصور فى الجنة
٦٦	اشعار الزنادقة فى الرسالة لياقوت الرومى	٧٩	(٣) تطلعه الى اهل النار
٦٦	مزايا رسالة الغفران (للاستاذ طه حسين)	٨٠	(٤) رجوعه الى قصره
٦	(١) شخصية المعرى وكلفه بالغريب	٨١	(٥) الرجوع الى موضوع الرسالة
٦	(٢) السخرية		

صفحة

٨٣ السخر والزندقه فى الرسالة (لدائرة المعارف الاسلامية)

٨٤ الايمان فى رسالة الغفران (للاستاذ النجار)

٨٦ الايمان فى « « « وجدى)

آراء فى الرسالة

٨٩ (١) رأى الاستاذ الدكتور طه حسين

صفحة

٨٩ (٢) رأى الاستاذ محمد كرد على

٨٩ (٣) « معرب الالياذه

٨٩ (٤) « المرحوم جورجى زيدان

٩٠ (٥) « صحيفة الاهرام

٩١ (٦) « مجلة الهلال

٩١ (٧) « الاستاذ شبل شميل

٩١ (٨) « « سيد ابراهيم

٩٢ (٩) « « جلد زهير

(٤) رسائل الحيوان

٩٣ السبب فى انشائها

٩٤ (١) رسالة داعى الدعاة

٩٦ (٢) رد أبى العلاء المعرى

٩٩ (٣) من أبى عمران الى أبى العلاء

١٠٢ (٤) من أبى العلاء الى داعى الدعاة

١٠٥ (٥) من داعى الدعاة الى أبى العلاء